المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

378

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



شارع بريك لين

(رواية) الجزء الأول

تأليف: مونيكا علي

ترجمة وتقديم: أ. عبده عبدالعزيز أحمد عبدالفتاح

مراجعة: د. طيبة محمد صادق

يونيو 2009

إبداعات عالمية

شارع بريك لين (رواية) الجزء الأول

الكويت - يونيو 2009

378

إبداعات عالمية

شارع بريك لين (رواية) الجزء الأول

نقدم إلى القارئ الكريم في هذا العدد رواية طويلة لكنها حميمة، كتبتها الروائية الشابة البنغالية الأصل مونيكا علي في العام ٢٠٠٣، وهي أول رواية تقوم بكتابتها، وقد ارتقت هذه الرواية إلى التصنيف النهائي لجائزة «مان بوكر» لعام ٢٠٠٣، وتحولت كذلك إلى فيلم يتناول الدراما النسائية النفسية عام ٢٠٠٧، كما تعد هذه الرواية - وفق الاستطلاعات - واحدة من أهم الروايات التي تقرأ في أوروبا في الآونة الأخيرة، وهي رواية مثيرة ولاذعة ومذهلة ومقروءة على نطاق واسع.

وقد وضعت الروائية مونيكا علي عنوانا أوليا لهذه الرواية، وهو «سبعة بحور وثلاثة عشر نهرا»، حيث كان يرمز للمسافة البعيدة بين سيلحيت في بنجلاديش ولندن.

ولدت المؤلفة مونيكا علي في دكا عاصمة بنجلاديش في أكتوبر عام ١٩٦٧، وانتقلت عندما كانت طفلة إلى شمال إنجلترا مع أسرتها، درست السياسة والفلسفة والاقتصاد في جامعة أكسفورد.

تركز الرواية، التي كتبت عن الجالية الآسيوية التي تقيم في إيست إند بمدينة لندن، على الجالية البنغالية في تورهامليتس، وهي جالية تخفى تقريبا عن بقية لندن، تبدأ الرواية بمولد «نازنين» المريب، حيث ظنوا أنها ولدت ميتة، لكنها سرعان ما تستفيق، وترفض الأم أخذها إلى المستشفى، لأنها ولدت مبكرا عن موعدها، وتتركها لقدرها وفق ما ارتأت أمها، مرسخة بذلك الحكمة التي سوف تصبح أحد محاور الرواية: «يجب على المرء عدم مقاومة القدر»، وتتبع الرواية «نازنين» وأختها «حسينة» وهما تعيشان حياة شاقة في مكانين مختلفين للغاية لكنهما كانتا تتحليان بالشجاعة، وكل منهما لها منطقها الخاص.

تبدأ الرواية بمشهد مولد نازنين بصحبة الحكمة القائلة «يجب على المرء عدم مقاومة القدر»، ثم تنتهي الرواية بمشهد مولد جديد لنازنين لكن هذه المرة بحكمة مختلفة تماما تتحدى واقعها، إذ تلبس حذاء التزلج وهي ترتدي الساري لتفعل الشيء الذي طالما حلمت به.

تتميز الكاتبة مونيكا علي برشاقة الانتقال من الملهاة إلى المأساة، ثم تعود ثانية بالرشاقة نفسها، كما تتميز بحيوية شخصياتها وقدرتها الفائقة على رسم كل منها أو قل نحتها.

كما نشير للقارئ الكريم إلى أنه تم فصل الرواية في جزأين منفصلين، الأول في هذا العدد حتى نهاية الفصل الحادي عشر، ثم نتبعه بتكملة فصول وأحداث الرواية في العدد المقبل مطلع شهر أغسطس، وقد ارتأينا ذلك الأمر تشويقا للقارئ الكريم، وتحسبا من أن يتطرق إلى القارئ شيء من الملل، نظرا إلى الطول المفرط للرواية.

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٢٠

ردمك: ٣-٢٧٥-٠-٩٩٩٠٦



لوحة بريشة الفنان الكويتي
عادل الخلف



الكويت









الثقافة العالمية



الإصدارت الدورية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب





الكويت







الإصدارت الدورية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



شارع بريك لين

(رواية)

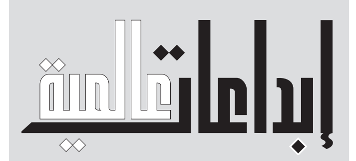
الجزء الأول

تـــــألـــــيـــــف: مونيكا علي

ترجمـــة وتقــديم: أ. عبده عبدالعزيز أحمد عبدالفتاح

مــــراجـــعـــة: د. طيبة محمد صادق

العدد 378 يونيو 2009



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
:E.Mail
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	***500*** فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	***10*** د.ك
للمؤسسات	***20*** د.ك

دول الخليج

للأفراد	***12*** د.ك
للمؤسسات	***24*** د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	***25*** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	***50*** دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	***50*** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	***100*** دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: ***28623*** - الصفاة - الرمز البريدي ***13147***
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٢٠
ردمك: ٩٩٩٠٦-٠-٢٧٥-٣

• شارع بريك لين
(رواية)
الجزء الأول

العنوان الأصلي:

Brick Lane
By: Monica Ali
Simon & Schuster, Inc.

الطبعة الأولى – الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2009م

إبداعات عالمية - العدد 378

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

white

الإهداء

إلى آبا

من مونيكا علي

مع حبي

white

«بقسوة ومن دون رحمة يرشد كل منا إلى قدره، لكننا في البداية، عندما نكون مستغرقين في التفاصيل، في شتى أنواع السفاسف، في أنفسنا، نكون بالفعل غير مدركين ليده القاسية».

إيفان تورجينيف

«قدر الإنسان هو شخصيته»

هيراقليطس

white

المقدمة

عندما انتهت الأوركسترا من عزف السيمفونية الخامسة للمرة الأولى في باريس أواخر القرن التاسع عشر، توجه أحد الموسيقيين إلى أستاذه الذي كان يجلس في مقصورة بمفرده حتى يتمكن من سماعها من دون إزعاج قائلا له: «هيه، ما رأيك يا أستاذ»؟ قال له أستاذه: «أف لهذه الموسيقى! إنها موسيقى مربكة ومحيرة تماما حتى أنني عندما هممت بلبس قبعتي رحت أبحث عن رأسي فلم أجده». إلى هنا ينتهي كلام الأستاذ لكنه يعطي لنا معيارا آخر للفن الحقيقي. سواء كان هذا الفن أدبا أو رسما أو موسيقى أو غيرها. فالأدب الحقيقي، وهو ما يعنينا هنا، شأنه شأن الموسيقى الحقيقية، يصيب النفس البشرية بمثل هذه الحالة العارمة من الحيرة والفوضى. ولكنها ليست فوضى من أجل الفوضى، بل فوضى بناءة، فوضى من أجل إعادة ترتيب جديد للأشياء وفق خبرة وزاوية التقاط جديدتين.

وفي حاصل الأمر، قليلة هي الكتابات التي تحقق هذه الغاية. لكن مونيكا علي، الروائية الشابة (ستة وثلاثون عاما عند صدور الرواية ٢٠٠٣) ذات الأصل البنغالي، تفعل ذلك في رواية «شارع بريك لين» بمهارة الطاعنين في الكتابة. على الرغم من كونها روايتها الأولى. وبريك لين كما هو معروف،

أحد شوارع إيست إند بلندن، يربط مقاطعة وايتشابل بضاحية سبيتافيلدز التي تعد الآن المدينة السيلحيتية، معقل الجالية البنغالية.

وقد كتبت هذه الرواية في بادئ الأمر تحت عنوان «سبعة بحور وثلاثة عشر نهرا» حيث كان يرمز هذا العنوان للمسافة البعيدة بين سيلحيت ببنجلاديش ولندن. لكن الناشر أشار عليها بتغيير العنوان، لأن هناك كتابا بالفعل يحكي قصة الرواد الأوائل من سيلحيت في إنجلترا يحمل عنوان «عبر سبعة بحور وثلاثة عشر نهرا»؛ ولأن هذا العنوان أيضا لم يكن يعني الكثير بالنسبة إلى البريطانيين ولم يكن يعني شيئا بالمرة للأمريكيين. فاقترح عليها عنوان «بريك لين» نظرا إلى وجود تاريخ رائع للجالية البنغالية في بريطانيا. كما أن بريك لين هو اسم لمطعم شهير في نيويورك.

والروائية الشابة مونيكا علي ولدت في دكا ببنجلاديش في أكتوبر ١٩٦٧. عندما كانت طفلة انتقلت إلى شمال إنجلترا مع أسرتها. درست السياسة والفلسفة والاقتصاد بجامعة أكسفورد. تعيش الآن في جنوب لندن مع زوجها سيمون (مستشار للإدارة) وطفلين.

بدأت موهبة الكتابة لديها عندما كان طفلها الأول «فيليكس» لم يكمل السنة بعد. بدأت بكتابة القصص القصيرة. ومع مرور الوقت شعرت بأنها مكبلة بعض الشيء

بصيغة القصة القصيرة، وعلى حد تعبيرها لم يكن لديها مجال تتنفس فيه. أحست بأن ثمة شيئا آخر تريد أن تفعله. ساعتها كان الأمر يتمثل في مسألة إيقاظ الشجاعة لديها. واتتها الشجاعة أخيرا عندما كان عمر ابنتها شومي خمسة شهور. يبدو الأمر كأن وجود عربة الطفلة في ردهة الشقة كان عاملا في قرار مونيكا أن تعطي الكتابة اهتماما أكبر. وفي خضم الفوضى الأمومية كانت هناك ضرورة ملحة في أن تجد فسحة لنفسها. لكنها تعتقد أن العامل الأساسي كان موت جدها لأمها فتقول: «كنت أنوي أن أصحب شومي الرضيعة لأقدم الطفلة لجدي وجدتي بيد أنه كان من العسير أن تنجز أشياء ولديك طفل ورضيع. وعندما حان الوقت للذهاب هناك كنا ذاهبين لجنازته. في اليوم التالي، عندما ذهبنا لقضاء العطلة في بحيرة المقاطعة كان ثمة شيء مثير للانتباه يتعلق بجنازة. شعرت بالحاجة في عدم إرجاء الأشياء أكثر من ذلك. أرسلت زوجي بصحبة الصغار وسحبت الستائر في مواجهة الشمس وعندئذ كانت البداية».

آملة في نصيحة بناءة قدمت مونيكا في حذر الفصلين الأولين إلى صديق يمارس عملا تحريريا، في الاثنين التالي كان هناك عرض على الطاولة، استغلت جزءا من مقدم العقد للصرف على رعاية الأطفال، ومن ثم تسنى لها أن تكرس وقت الصباح للرواية، فقضت ثمانية عشر شهرا في

كتابة الرواية من أول سطر فيها إلى آخر مراجعة تحريرية لها. تقول مونيكا: «كنت أعمل بتركيز شديد. كنت مسلوبة الفكر. ففي أي وقت لم يكن الأطفال في رعايتي كنت أعمل». أما فيما يتعلق بمجلة جرانتا، تقول مونيكا علي: «كان الناس يسألونني بخصوص قائمة جرانتا بطريقة تجعلني أعتقد أنهم يريدون مني أن أشتكي، لكنني كنت سأصبح حمقاء إذا اشتكيت ولم أكن لأفعل لأنني مدركة تماما ما يحدث مع الروايات الأولى: فأنت بعيد، تلوّح براية وليس من أحد يمر في اتجاهك».

و«شارع بريك لين» في واقع الأمر رواية طويلة لكنها حميمة، كتبت في الجالية الآسيوية التي تقيم في إيست إند بلندن. رتب والد نازنين لها زواجا من رجل بنغالي خائب الرجاء يكبرها بعشرين عاما. لتجد نفسها في لندن وقد استحال الوطن المترامي الأطراف إلى شقة ضيقة. رواية مفعمة بالسخرية الدافئة تستكشف دور القدر في حياتنا «هؤلاء الذين يتقبلونه في رضا وهؤلاء الذين يتحدونه» وتتتبع التحولات الحادة لفتاة آسيوية حذرة وخجولة إلى امرأة شجاعة ومبجلة.

والرواية تركز على هذا القطاع المستعرض من الجالية البنغالية في تورهامليتس، جالية تخفى تقريبا على بقية لندن. وهي رواية مثيرة ولاذعة ومذهلة ومقروءة على نطاق

واسـع. وتعد من نوعية الكتب التـي تجعلك تلهث وراءها في نهـم. تبدأ الروايـة بمولد نازنين المريب حيث ظنوا أنها ولدت ميتة لكنها سرعان ما تفيق وترفض الأم أخذها إلى المستشفى لأنهـا ولدت مبكرا عن موعدها وتتركها لقدرها وفق ما ارتأت أمها، مرسـخة بذلك الحكمة التي سـوف تصبح أحد محاور الرواية «لا يجب على المرء مقاومة القدر».

ثـم يدور محـور الرواية حول نازنين نفسـها التي تسـتعد لـزواج يأخذهـا مـن الـدروب القـذرة وحقـول الأرز فـي قرى بنجلاديـش إلـى مدينة تـور هامليتس ومنظر العشـب الميت وأحجـار الرصيـف المتكسـرة والسـتائر علـى النوافـذ. كانت نازنـين تدرك دائما أنه ليس هناك طائـل من مقاومة القدر، علـى العكـس مـن أختهـا حسـينة التـي كسـرت كل القواعد وهربـت من أسـرتها مع رجل تحبـه. وربما كانـت الإنجليزية المتكسـرة التي تتحدث بها حسـينة فـي خطاباتها إلى أختها نازنين، ضاربة في ذلك أبسط القواعد اللغوية، إسقاطا على كسر القواعد الاجتماعية التي تمارسه حسينة داخل الرواية. تتتبع الرواية نازنين وحسـينة وهما يعيشـان حياة شـاقة في مكانـين مختلفـين للغايـة، لكنهمـا كانتا على شـجاعة وكل منهما لها منطقها الخاص.

مأخـوذة بطاولات الزاوية المكدسـة وورق الحائط المزخرف بالرسـوم والشـهادات المؤطـرة التـي تشـهد بكفـاءة زوجهـا

الجديد في الفلسفة المتعالية، قلما كانت نازنين تغادر شقتها في بادئ الأمر. لكنها عندما غادرتها شاهدت لندن في حيرة كائن فضائي هبط لفوره من كوكب المريخ. ويعد شانو، زوجها الثرثار إحدى معجزات الرواية الرئيسة. فعمره ضعف عمرها، ووجهه يشبه ضفدعة، يميل إلى الاستشهاد بديفيد هيوم. لكنه شخصية ساخطة وفي الوقت نفسه محببة للقارئ.

وتتميز مونيكا علي برشاقة الانتقال من الملهاة إلى المأساة، ثم تعود ثانية بالرشاقة نفسها. كما تتميز بحيوية شخصياتها وقدرتها الفائقة على رسم كل منها، أو قل نحتها. حتى أن القارئ ربما يتبادر إلى ذهنه أن الرواية سيرة ذاتية للمؤلفة. كذلك ثمة حضور قوي للرائحة على امتداد الرواية الشيء الذي يضفي على السرد مزيدا من الحيوية والثراء.

تبدأ الرواية بمشهد مولد نازنين بصحبة الحكمة القائلة «لا يجب على المرء مقاومة القدر»، ثم تنتهي بمشهد مولد جديد لنازنين ولكن هذه المرة بحكمة مختلفة تماما تتحدى القدر، إذ تلبس حذاء التزلج وهي ترتدي الساري لتفعل الشيء الذي طالما حلمت به.

إذن التعاطي مع القدر، برضا كان أو بتحد، مسألة تتسم بها الشخصيات داخل الرواية. وربما كان من قبيل المصادفة أن تستهل هذه المقدمة بسيمفونية بيتهوفن الخامسة التي يصفها البعض بأنها سيمفونية القدر.

ولا عجب أن تكون رواية «شارع بريك لين» إحدى الروايات التي ارتقت إلى التصنيف النهائي لجائزة مان بوكر ٢٠٠٣، في السنة نفسها صنفت مونيكا علي من قبل مجلة جرانتا Granta واحدة من أفضل عشرين روائيا شابا في بريطانيا. ولا عجب أيضا أن تلفت الرواية انتباه السينما كنص ثري، فتتحول إلى فيلم مدهش يتناول الدراما النسائية النفسية ٢٠٠٧ من إخراج سارة جافرون. وينال الفيلم بدوره عدة جوائز.

ولا عجب أن تعد وفق الاستطلاعات واحدة من أهم الروايات التي تقرأ ها أوروبا في الآونة الأخيرة.

ومع نهاية هذه الرواية الثرية ربما تنتاب القارئ حالة الحيرة والفوضى التي تحدثنا عنها آنفا. تلك الفوضى البناءة التي تعيد ترتيب مفردات النفس والحياة وفق ما اكتسب من خبرة جديدة.

عبده الريس
مصر - المنصورة
١٦ مايو ٢٠٠٩

white

الفصل الأول

white

مقاطعة ميمنسج، شرقي باكستان ١٩٦٧

ساعة وخمس وأربعون دقيقة قبل أن تبدأ حياة نازنين - تبدأ كما كانت ستبدأ في وقت ما، بعبارة أخرى على نحو مشكوك فيه. أحست أمها روبان بقبضة حديدية تعتصر أحشاءها - كانت تجثم فوق مقعد أرضى بثلاث أرجل خارج سقيفة المطبخ، بينما تنظف دجاجة لأن أولاد عم حميد قد وصلوا من جيسور[١] وسوف تكون هناك وليمة. قالت منادية الدجاجة بالاسم كما كانت تفعل دائما «زقزوق يا زقزوق أنت عجوز وكثيرة الألياف، لكنني أود أن آكلك عسيرة الهضم كنت أو غير عسيرة الهضم، وغدا لن أطبخ سوى الأرز، ليس ثمة باراثا[٢]».

نزعت مزيدا من الريش وشاهدته يتطاير حول قدميها. قالت «آآاه. آآاه. آآاه».

جالت برأسها أشياء. على مدار سبعة أشهر كانت تنضج مثل ثمرة مانجو على شجرة. سبعة أشهر فقط. نحَّت جانبا تلك الأشياء التي جالت برأسها لفترة، ساعة ونصف الساعة، على الرغم من أنها لم تكن تدرى هذا، حتى دخل الرجال قادمين من الحقول، يجرجرون الأتربة ويضربون على بطونهم، قبضت روبان على وصل الدجاجة ورقبتها النحيلة واكتفت بقول «قادمة، قادمة» لجميع الاستفسارات عن الطائر. كانت ظلال الأطفال الذين يلعبون البلي، وينخس بعضهم بعضا تستطيل وتحتد. بينما رائحة الكمون المصحون وحب الهال تنتشر في أرجاء الحي

(١) جبيسور: مقاطعة تقع في جنوب غرب بنجلاديش - المترجم.

(٢) بارثا: نوع من الخبز لا يحتوي على خميرة، يخبز في صينية - المترجم.

الســـكني. كانت الماعز تثغو ثغــاء عاليا حادا. صرخت روبان في حماس شديد واهتياج

هـــرع حميـــد من المرحاض علـــى الرغم من أنه لـــم ينته من أمره. أســـرع عبر رقعـــة الخضراوات، مارا بأعـــواد القش التي فـــاق ارتفاعهـــا أعلى بناية إلـــى طريق الدراجـــات الذي يطوق القرية، عائدا إلى الحي الســـكني، وقبـــض على هراوة ليقضي على الرجل الذي كان يقتل زوجته، كان يعلم أنها هي، من غيرها في استطاعته أن يهشم الزجاج بصرخة واحدة؟ كانت روبان في الثكنات المخصصة للنوم. لم يكن الســـرير مرتبا على الرغم من أنها كانت لم تزل واقفة. بإحدى يديها كانت تمسك بكتف ممتاز وباليد الأخرى دجاجة لم يكتمل تنظيفها.

أشاحت ممتاز لحميد «اذهب، أحضر بانيسا، هل تنتظر عربة ريكاشة؟ اذهب على رجليك»

تناولت بانيسا نازنين من كاحلها وطرقعت علكتها في استخفاف بالجسد المزرق الضئيل «لن تأخذ نفسا واحدا. بعض الناس الذين يفكرون مليا كيف يوفرون بضعة تاكات[٣] لا يســـتدعون داية» ثم راحت تهز رأسها الأصلع المتغضن.

كانت بانيســـا تزعم أن عمرها مائة وعشرون سنة. وكانت تدعي هذا باســـتمرار منذ العقـــد الماضي أو نحو ذلك. ولأنه ليس في القرية من أحد يتذكر يوم مولدها، ولأن بانيسا كانت أكثـــر جفافا من ثمرة جوز عتيقة لـــم يرغب أحد في دحض زعمهـــا، زعمت أيضا أن ألف طفل لم يكن من بينهم إلا ثلاثة

---

(٣) تاكا: وحدة عملة في بنجلاديش ـ المترجم.

عـــرج واثنان صم (خنثى وأحدب) وجنـــين ميت وآخر هجين ســحلية وقرد خطيئة في حق الرب دفــن حيا في الأحراش البعيدة، وأرســلت الأم إلى من يهـتم به هنــاك. وعلى الرغم مــن أن نازنـــين ميتة، فإنهــا لا يمكن أن تعـــد من بين هذه الإخفاقــات علـــى اعتبار أنها ولـــدت قبل أن تصر بانيســا بعظامها داخل الكوخ.

قالت بانيسا لروبان «شاهدي ابنتك، كل شيء تمام. كل ما كانت تعوزه شخص يفسح لها الطريق إلى هذه الدنيا».

نظــرت إلـــى الزقـــزوق التـــي تقـــر بجانـــب الأم الثكلى ومصمصت شفتيها فتجوف خداها، نظـرة جـائعة أوســعت عينـــيها قليلا على الرغم مـــن أنهما كانتا بالفعل مدفونتين في التجاعيد. لقد مرت شـــهور كثيـرة منذ أن ذاقــت طعـم اللحـــم والآن برزت هاتان الفتاتان الشـــابتان (كان يجب أن تخنقهما عنـــد الولادة) في تنـافـس. قالت بانيســا «دعوني أغسلها لكي أكفنها من أجل الدفن، بالطبع أنا أقوم بخدمتي مجانا، فقط هذه الدجاجة ربما تفي بعنائي، أرى أنها عجوز وكثيرة الألياف».

قالت ممتاز عمة نازنين التي كانت تبكي «دعيني أحملها»، قالت روبان، «اعتقدت أنه عسر هضم» ثم طفقت تبكي.

أمسكت ممتاز بنازنين التي كانت لاتزال تتدلى من كاحلها فأحســـت بجزع صغيـــر أملس ينزلق علـــى أصابعها وينطلق بـــوأوأة فوق الملاءة الملطخة بالـــدم. وأوأه!! صراخ! أفرغتهما روبان وأسمتها قبل أن تموت بلا اسم ثانية.

مصممصت بانيسا بشفتيها بضع مرات. بطرف ساريها المصفر راحت تجفف بعض اللعاب الذي سال على ذقنها. شرحت الأمر «هذا يسمى حشرجة الموت».

اقتربت النســاء الثلاث بوجوههن من الطفلــة. رفت نازنين بذراعيهــا ثم طفقت تصرخ كما لو كان في اســتطاعتها أن ترى هذا المشــهد المروع، بدأت تفقد لونها الأزرق ثم استحالت شيئا فشــيئا إلى اللون البني ثم إلى الأرجواني، قالت بانيســا بنظرة اشــمئزاز «لقد أعادها الله»، قالت ممتاز التي بدأت تشــك في تشخيص بانيســا الأولى «حسن، ألم يرسلها الله إلينا منذ بضع دقائق؟ هل تعتقدين أنه يغير رأيه كل ثانية».

تمتمت بانيســا في ســرها، وضعت يدها فوق صدر نازنين، أصابعها الملتوية مثل جذور شــجرة معمرة شــقت طريقها فوق سطح الأرض «الوليدة حية لكنها ضعيفة. أمامك طريقان يمكن أن تسلكيهما» قالت موجهة حديثها إلى روبان.

«إما أن تذهبي بها إلى المدينة، إلى مستشفى، سوف يضعون عليهــا أســلاكا ويعطونها أدويــة، وهذا مكلف للغاية، فســوف تضطرين لبيع حليك، وإما أن تنتظري ما سيفعله القدر» استدارت قليلا إلى ممتاز لتشملها الآن «بالطبع القدر سوف يقرر كل شيء في النهاية مهما كان الطريق الذي تسلكينه».

قالــت ممتاز بينمــا بزغت على خديها علامــات حمراء من التحدي «سوف نذهب بها إلى المدينة».

لكن روبان التي لم تســتطع أن تكف عــن البكاء ضمت ابنتها إلى صدرها وهزت رأسها. قالت «كلا، لا يجب أن تقف في طريق

القدر مهما يحدث سوف أرضى به. وطفلتي لا يجب أن تضيع أي مجهود في مقاومة القدر. بتلك الطريقة سوف تزداد قوة».

قالت بانيسا «حسن، إذن لقد حسم الأمر» راحت تحوم للحظة أو لحظتين لأنها كانت جائعة بما يكفي لالتهام الطفلة. لكن بعد نظرة من ممتاز راحت تجرجر قدميها عائدة إلى كوخها.

جاء حميد ليشاهد نازنين، كانت ملفوفة في قماشة قطنية ومضطجعة على كيس خيش قديم فوق فراش قابل للطي. كانت عيناها مغمضتين ومنتفختين كأنها تلقت لكمتين قويتين.

قالت روبان «بنت؟».

قال حميد «أعرف، لا يهم، ماذا بوسعك أن تفعليه؟».

ثم انصرف ثانية.

جاءت ممتاز بصحن من الأرز، دال[٤] ودجاج مطهو بتوابل الكري. قالت روبان «إنها لا ترضع. إنها لا تعرف ماذا تفعل. ربما قُدِّر لها أن تموت جوعا».

قلبت ممتاز عينيها «سوف ترضع في الصباح. والآن عليك أن تأكلي وإلا قدر لك أن تموتي من الجوع أنت الأخرى»، ابتسمت في وجه أخت زوجها الصغير الحزين. احتشدت كل ملامحها كدأبها دائما لتتفجع على كل شيء فات وكل ذلك الذي سوف يُقدر له أن يفوت.

لكن نازنين لم ترضع في الصباح ولا في اليوم التالي. في اليوم الذي أعقبه أدارت وجهها بعيدا عن الحلمة وأحدثت جلبة ملجمة.

---

(٤) دال: عدس بالبنغالية ـ المترجم.

لــم تســتطع روبان المعروفــة بالبكاء أن تتجــاوب مع مطلب الدموع. توافد أناس: عمات، أخوال، أولاد عم، إخوة، أولاد إخوة، أولاد إخوة الزوج، نســائب، نساء القرية ثم بانيسا، جرت الداية قدميها المقوســتين على أرضية الكوخ الطينية القاســية وراحت تحدق في الطفلة، «سمعت عن طفل لم يكن يرضع من الأم لكنه أرضع من عنزة» ابتسمت فظهرت علكتها السوداء. «طبعا لم يكن هذا واحدا من مواليدي».

جاء حميد مرة أو مرتين بيد أنه في الليل نام في الخارج على تشوكي. في اليوم الخامس عندما بدأت روبان تتمنى رغما عنها أن يســرع القدر ويأخذ قراره، مصمصت نازنين بشــفتيها حول الحلمة فراحت ألف إبرة محماة تســري في ثدي روبان فحملتها على البكاء من الألم ومن فرحة المرأة الصبور الطيبة.

لما كبرت نازنين ســمعت مرات كثيرة هذه الحكاية عن «كيف تركت لقدرك» بســبب قرار أمها الحكيم عاشــت نازنين لتصبح الفتاة النابهة ذات الوجه الكبير.

مقاومة المرء لقدره من شأنه أن يضعف الدماء أحيانا، بل في أغلب الأحوال من شأنه أن يكون مميتا. لم تسأل نازنين ذات مرة عن الحكمة من حكاية «كيف تركت لقدرك»، لقد كانت في واقع الأمر ممتنة لشــجاعة أمها التامة، رواقيتها الدامعة التي كانت تتبدى تقريبا كل يوم.

قال حميد - دائما كان ينظر بعيدا عندما يتحدث - «إن أمك ولية بالفطرة، إنها تتحدر من عائلة أولياء»؛ لذا عندما نصحتها روبــان أن يقر عقلها وقلبها، وأن تتقبل نعمة الله، وأن تتعامل مع

الحياة بالطريقة نفسـها التي تعاملهـا بها، راحت نازنين تصغي باهتمام ورأسـها الكبير مائل إلى الوراء، وعيناها مرتخيتان في رباطة جأش. كانت طفلة رزينة.

على نحو مضحك قالت ممتاز حين لم تَرها على مدار يومين، كيف حال طفلتي الغالية، أما زلت سـعيدة بعودتك للحياة؟ قالت نازنين «ليس لدي شكاوى أو تندمات أخبرك بها. إنني أخبر الله بكل شيء».

ما لا يمكن تغييره لا بد أن يولد، وبما أنه لا شـيء يمكن أن يتغير كان على كل شـيء أن يولد. هـذه القاعدة أدارت حياتها. كانت بمنزلة مانترا[٥] وضع محدد. لذا عند سن الرابعة والثلاثين بعدمـا رزقت بثلاثة أطفال وطفل ارتحـل عنها، عندما كان لها زوج عبثي وقد ابتليت بعاشق ملح، حينما لم تستطع للمرة الأولى الانتظار حتى يتكشـف المسـتقبل، بل كان عليهـا أن تفعل ذلك بنفسـها. أفزعتها قوتهـا الخاصة كطفل يلـوح بقبضة مطبقة يضرب بها على عينه.

ولدت حسـينة أختها بعد أن قضت بانيسا نحبها بثلاثة أيام فقط (عن مائة وعشرين سـنة) لم تصغ إلى أحد. عندما بلغت السادسـة عشـرة، حين أصبح جمالها من الصعب ألا تمتلكه أو على الأقل تنظر إليه، هربت إلى خولنا مع ابن صاحب المنشـرة. راح حميـد يصر بأسـنانه بينما يقر بجواره فـأس. على مدار سـتة عشر نهارا حارا وليل بارد كان يجلس بين شجرتي الليمون اللتين تعلمان مدخل الحي. في هذا الوقت كان شـغله الشـاغل

(٥) مانترا Mantra: في الهندوسية والبوذية «كلمة السر - الكلمة المفتاح» يعتقد أنها تمتلك قوة خاصة، كما يمكن استخدامها في بداية التأمل والصلوات - المترجم.

رمي الكلاب الرقطاء التي تتسكع وراء مقلب النفاية بالطوب وسب ابنته الخنزيرة العاهرة التي كان يجب أن يُقطع رأسها منذ اللحظة التي راحت تحبو فيها. في هذه الليالي كانت نازنين تضطجع مستيقظة، تصغي لخشخشة سطح الصاج المموج (السقف)، وهى تجفل عند صيحات البومة التي لم تعد تبدو مثل صيحات البومة بل تبدو أكثر مثل فتاة مقتولة بفأس في ظاهر عنقها. لم تأت حسينة، وحميد عاد إلى الإشراف على العمال في حقول الأرز. ولكن على مدار درستين لم تتخللهما سوى استفزازات بسيطة لم تكن لتعرف أن لديه بنتا ضالة.

بعد ذلك مباشرة، عندما سألها أبوها إذا كانت تود أن ترى صورة للرجل الذي ستتزوجه في الشهر التالي، هزت نازنين رأسها وأجابت «آبا من الجميل أنك اخترت زوجي، أتمنى أن أكون زوجة صالحة مثل آما».

لكن عندما استدارت للانصراف لمحت من دون قصد أين وضع أبوها الصورة.

حدث أن رأتها. هذه الأشياء تحدث. كانت تحمل الصورة دائما في رأسها عندما تتمشى تحت أشجار الأثاب مع أولاد عمها. كان الرجل الذي ستتزوجه عجوزا، على الأقل في الأربعين من عمره. كان له وجه يشبه ضفدعة. سوف يتزوجان وسوف يصطحبها معه عائدا إلى إنجلترا. جالت ببصرها عبر الحقول التي راحت تتألق باللون الأخضر والذهبي في ضوء المساء الواهن. على البعد ثمة صقر كان يحوم، هوى مثل حجر ثم صعد من جديد وراح يحلق قبالة السماء حتى تلاشى إلى لاشيء.

ثمة كوخ وســط الأزر كان يبدو فــي المكان الخطأ! كان خجلانا، متداعيا من أحد جوانبه، محاولا الاختباء. الإعصار الذي سوَّى نصــف القرية المجاورة بالأرض اصطفى هذا الكوخ ليبقي عليه، لكنــه قام بترحيله من مكانه. فــي القرية كانوا لايزالون يدفنون موتاهــم ويبحثون عن جثث. راحت البقع الســوداء تنتشــر في الحقول البعيدة. كان البشر يفعلون ما بوسعهم في هذا العالم.

تور هامليتس، لندن، ١٩٨٥

لوّحت نازنين لسيدة الوشم. سيدة الوشم كانت دائما هناك عندمـــا تطل نازنين عبر الأعشـــاب الجافة وأحجار الرصيف المتكســـر على المجمع الســـكنى المقابل. معظم الشقق المقفلة من ثلاثة جوانب كانت لها ســـتائر شـــبكية والحياة من ورائها عبارة عن أشـــباح في أشـــباح. غير أن ســـيدة الوشم لم تكن لديها ستائر قط. كانت تجلس صباح مساء بفخذيها الكبيرتين اللتين تفيضان على جانبي الكرســـي، تميل إلى الأمام لتسقط رماد السيجارة في وعاء، ثم تميل إلى الخلف لأجل جرعة من كأســـها، في هذه اللحظة كانت تشرب ثم قذفت العلبة خارج النافذة.

كان الوقـــت منتصـــف النهار. انتهت نازنين من شـــغل البيت. ســـوف تشـــرع على الفور في إعداد وجبة المساء. بيد أنها سوف تتـــرك الوقت يمر لبرهـــة. كان الطقس حارا والشـــمس تخطت الإطارات المعدنية للنافذة وراحت تســـطع بعيدا عن الزجاج. ثمة ساري أحمر مذهب كان معلقا في شقة بالدور الأعلى في مجمع روزميد السكني. صدرية طفل وملابس صغيرة مخيطة تحته في دور منخفـــض. كانت اللافتة المثبتة على المبنى القرميدي مكتوبة بحروف إنجليزية كبيرة وسميكة والأشكال اللولبية تحتها بنغالية. لم يكن هناك طفح ولا سيارات مركونة. ليس هناك ألعاب بالكرة. رجلان هرمـــان يرتدي كل منهما بيجامة بنغالية وقلنســـوة، كانا يســـيران على امتداد الطريق في تؤدة كأنما لا يريدان أن يذهبا

إلى المكان الذي يذهبان إليه. ثمة كلب نحيل راح يتشمم المسافة حتى وسط الأعشاب ثم تبرَّز. كان النسيم على وجه نازنين ثقيلا محملا بالرائحة المنبعثة من الصناديق المكتظة بالقمامة.

مرت ستة شهور الآن منذ أرسلوها بعيدا إلى لندن. كل صباح قبل أن تفتح عينيها كانت تفكر «لو كنت من الطراز الذي يتمنى، أعرف ما كنت سأتمناه»، ثم تفتح عينيها لترى وجه شانو المنتفخ على الوسادة بجانبها، شفتاه منفرجتان انفراجة ساخطة حتى وهو نائم. ترى التسريحة القرنفلية بالمرآة ذات الحواف المجعدة، ودولاب الملابس الضخم الذي يتطلب معظم الحجرة. هل هذا احتيال، أن تفكر «أعرف ما كنت سأتمناه»، أليس هذا ما يحدث عند القيام بأمنية؟ لو كانت تعرف ما الأمنية لكانت قد قامت بها بالفعل في مكان ما بقلبها.

لوّحت سيدة الوشم في المقابل لنازنين. جثت على ذراعيها وكتفيها والمناطق المتاحة من أردافها. تثاءبت ثم أشعلت سيجارة، كان ثلثا الجزء المكشوف من جسمها على الأقل مغطى بالوشم. لم تكن نازنين قريبة (لا أقرب من هذا ولا أبعد) لتتبين شكل الرسومات. قال شانو إن سيدة الوشم من ملائكة الجحيم[٦]، الشيء الذي أزعج نازنين. اعتقدت أن الرسومات ربما كانت عبارة عن زهور أو طيور. كانت قبيحة وجعلت من سيدة الوشم أكثر قبحا من اللازم. لكن من الواضح أن سيدة الوشم لم تكن تعبأ. في كل مرة تراها نازنين كانت تحمل نظرة الضجر والانفصال نفسها. هذه الحالة نفسها كان يبحث عنها سادهوس[٧] الذي

(٦) الهيلز أنجلز: جماعة من راكبي الدراجات البخارية المتهورين ـ المترجم.

(٧) سادهوس: يشبه الدرويش في الهندوسية ـ المترجم.

يسير مرتديا أسمالا بالية في قرى المسلمين، غير مكترث بطيبة الغرباء والشمس القاسية.

فكرت نازنين أحيانا في النزول وعبور الســـاحة وصعود سلم روزميـــد إلى الطابق الرابع. ربما اضطـــرت لطرق بضعة أبواب قبل أن تجيب ســـيدة الوشم. كانت ســـتأخذ شيئا ما، هدية من الساموســـا[٨] أو بهاجي[٩]. سيدة الوشـــم كانت ستبتسم ونازنين ستبتسم وربما كانتا ستجلسان معا بجوار النافذة وتجعلان الوقت يمر في يســـر أكثر. فكرت في هذا لكنها لم تكن لتذهب. فربما أجاب الغرباء لو طرقت الباب الخطأ. وربما تغضب سيدة الوشم عنـــد مقاطعة غير مرغوب فيها. كان مـــن الواضح أنها لا تحب أن تترك كرســـيها. وحتى إذا لم تغضب ماذا ســـيكون الموضوع؟ نازنين في استطاعتها أن تقول شيئين بالإنجليزية! آسفة وشكرا. يمكنها أن تقضي يوما آخر بمفردها. إنه يوم آخر فقط.

يجب أن تواصل تجهيز وجبة المساء. لحم الضأن بتوابل الكاري كان جاهزا. لقد أعدته من الليلة السابقة بالطماطم والبطاطس الطازجـــة. كانت هناك دجاجة في الفريـــزر منذ آخر مرة دُعي فيها الدكتـــور أزاد لكنه ألغى الموعد في اللحظة الأخيرة. مازال أمامها تجهيز الدال وأطباق الخضراوات وصحن التوابل وغسل الأرز وإعداد الصلصة من أجل الســـمك الذي ســـيحضره شانو هذا المساء، سوف تقوم بشـــطف الأكواب ومسحها بورق جريدة لجعلها تلمع، مفرش الطاولة عليه بعض البقع يجب إزالتها، ماذا

(٨) الساموسا: فطيرة هندية مثلثة تحشى بالبطاطس أو الخضراوات أو اللحم ـ المترجم.

(٩) بهاجي: طبق هندي يعد من الخضراوات ـ المترجم.

يحدث لو ساء الأمر؟ فربما يتعجن الأرز، وربما تضع الملح بزيادة في الدال وربما ينسى شانو السمك.

لم يكن سوى العشاء، عشاء واحد، ضيف واحد. تركت النافذة مفتوحة، واقفة على الأريكة، تناولت القرآن الكريم من الرف العالي الذي صنعه شانو مجبرا خصيصا له. عقدت عزمها بحماس على قدر الإمكان، باحثة عن ملاذ من الشيطان بقبضتين مطبقتين وأظافر مغروزة في راحتيها. ثم اختارت صفحة بشكل عشوائي وشرعت في القراءة:

(ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا).

هدَّأت الكلمات من اضطرابها وأصبحت راضية. حتى الدكتور أزاد لا يمثل شيئا بالنسبة إلى الله. لله ما في السماوات وما في الأرض. كررتها بضع مرات بصوت عال. أصبحت رابطة الجأش، لا شيء يمكن أن يعكر صفوها إلا الله إذا أراد ذلك.

ربما أزبد وأرعد شانو لكون الدكتور أزاد مدعوا على العشاء. فليتذمر، فلله ما في السماوات وما في الأرض. كيف يبدو هذا باللغة العربية؟ أكثر جمالا منه حتى بالبنغالية، افترضت ذلك لأن هذه كلمات الله الفعلية.

أغلقت الكتاب وقلبت نظرها في الحجرة لتتأكد أنها مرتبة كما ينبغي. كتب شانو وأوراقه مكدسة تحت المنضدة. يجب نقلها وإلا لما استطاع الدكتور أزاد أن يدخل قدميه. الأبسطة التي رفعتها من النافذة من قبل وضربتها بمنفضة خشبية في حاجة

إلى بسطها من جديد. كانت هناك مجموعة أبسطة: أحمر وبرتقالي وأخضر وأرجواني وبني وأزرق. السجادة صفراء ذات رسم نباتي أخضر، قال شانو إنها مائة بالمائة نيلون ولا تبلى بسهولة. الأريكة والكراسي بلون روث ماشية جاف حيث يعد لونا عمليا. كان لديهما بعض المفارش البلاستيكية فوق مساند الرأس لحمايتها من زيت الشعر الذي يستعمله شانو. كان هناك كثير من الأثاث يفوق ما رأته نازنين من قبل في غرفة واحدة، حتى لو أخذت كل الأثاث الموجود في الحي السكني من كل جهر[١٠] عم وعمة فلن يرتقي إلى مستوى هذه الغرفة. كانت هناك منضدة خفيضة بسطح زجاجي وأرجل من البلاستيك برتقالية اللون، وثلاث طاولات خشبية صغيرة مكدسة معا. الطاولة الكبيرة التي كانوا يستخدمونها لوجبة المساء، خزانة الكتب وصوان زاوية، رف للكتب، وطاولة ذات عجلات مكتظة بالملفات والدوسيهات، الأريكة والكرسي ذو الذراعين، سنادتان للأرجل، ستة كراسي سفرة وخزانة العرض. الجدران مكسوة بورق حائط أصفر ذي مربعات ودوائر بنية اللون مصطفة بانتظام من أعلى ومن أسفل. لا أحد في جوريبور لديه شيء مثلها. كان أبوها ثاني أغنى رجل في القرية ولم يحظ قط بشيء كهذا. لقد أقام لها عرسا جيدا. كانت هناك أطباق معلقة على الحائط متصلة بخطافات وأسلاك، لم تكن مخصصة للأكل بل للعرض فقط. بعضها مطلي بطلاء ذهبي يسميه شانو «رقائق ذهبية». شهاداته مؤطرة ومختلطة بالألواح. كانت تنعم بكل شيء هنا. كل هذه الأشياء

(١٠) جهر: بيت بالبنغالية ـ المترجم.

الجميلــة. أعادت المصحف مكانه. بجــواره كان يقر أكثر الكتب قداســة ملفوفا في واق قماشـــي: القرآن باللغة العربية. راحت تلامس القماشة بأناملها.

أجفلت نازنـــين أمام الفاترينة الزجاجيـــة المكتظة بحيوانات فخارية، وأشكال من الصيني وفاكهة بلاستيكية. كل منها يجب أن ينفض الغبار عنه. تعجبت كيف دخل الغبار ومن أين أتى. وعندئذ، لأنها تركت ذهنها يتنقل ويتشتت من جديد. بدأت تتلو من القرآن واحدة من الســور التي تعلمتها في المدرســة. لم تكن تدري ماذا تعني الكلمات لكن إيقاعها هدَّأ من روعها. كان شهيقها يصّاعد من أعماقها. زفير وشهيق هادئ صامت. راحت نازنين في النوم على الأريكة. فطفقت تطل على حقول الأرز ذات اللون الأخضر المشــوب بزرقة وتسبح في البحيرة الباردة العميقة. راحت تسير ذراعا بذراع مع حســينة إلى المدرســة، وتتقافزان بعض الشيء فوقعتا وراحتا تنفضان التراب عــن ركبتيهما بأيديهما. وراحت طيور المينة تصيح بين الأشــجار، والماعــز تضطرب، وجواميس الماء الضخمة الحزينة تمر مثل جنازة، والسماء التي فوقهما كانت رحيبة وصافية والأرض ممتدة للأمام. وكان في اســتطاعتها أن ترى نهايتها البعيدة حيث تتلاشـــى الســماء مع الأرض في خط داكن الزرقة.

عندما اســتيقظت كانت الساعة تقترب من الرابعة. أسرعت إلى المطبخ وشرعت في فرم البصل والنوم مازال في عينيها، لذا لم يمر وقت طويل قبل أن تجرح إصبعها. جرح غائر في السبابة اليسرى، أسفل الأظفر مباشرة. فتحت الصنبور البارد ووضعت

يدها تحته. ماذا تفعل حسينة؟ هذا الخاطر كان يجول برأسها على الدوام. ماذا تفعل في الوقت الحالي؟ لم يكن مجرد خاطر بل كان إحساسا، طعنة في الصدر. الله وحده يعلم متى ستراها من جديد.

أقلقها أن حسينة كانت تقاوم القدر. لا خير يمكن أن يأتي من هذا. ليس ثمة شخص واحد يستطيع أن يقول ذلك. ولكن من الناحية الأخرى إذا تبصرت حقا في الأمر، فكرت فيه مليا، كيف لك أن تتأكد أن حسينة لم تكن ببساطة تتبع قدرها؟ فإذا كان القدر لا يمكن تغييره، لا يهم كيف تقاومه، فربما قدر لحسينة أن تهرب مع مالك. ربما قاومت ذلك، وذلك ما لم تستطع أن تغيره. أوه، تعتقد أن الأمر سيكون سهلا، الوقوف على قرار. منذ أمد طويل لتكون رهن إشارة القدر. ولكن كيف لك أن تعرف أي طريق ينادي عليك منه؟ وكان هناك كل يوم تعيشه إذا عاد شانو للبيت هذا المساء ووجد المكان غير مرتب والتوابل ليست مصحونة بدورها هل يمكنها أن تضع يديها هكذا وتقول: لا تسألني لماذا لم أجهز أي شيء، فلم يكن أنا الذي قرر ذلك، إنه القدر. الزوجة يمكن أن تضرب لأتفه سبب. لم يقم شانو بضربها بعد. لم يبد إشارة تدل على الرغبة في ضربها. لقد كان في الواقع عطوفا ودمثا، على الرغم من ذلك كان من الحماقة أن تفترض أنه لن يضربها. كان يعتقد أنها «عاملة ماهرة» (لقد سمعته بالمصادفة وهو يتحدث في التلفون) سوف يفاجأ إذا وقعت في زلة.

«إنها فتاة غير مدللة، قادمة من الريف» لقد استيقظت ذات ليلة لتحضر كوب ماء. كان هذا بعد أسبوع من زواجها. انصرفت

لتنام بينما كان شانو لم يزل مستيقظا، وهو يتحدث في التلفون. عندما كانت تقف خارج الباب كان شانو يقول:

«لم أكن لأقول ذلك. ليست جميلة ولكن ليست بهذا القدر من القبح أيضا. الوجه كبير، جبهتها عريضة. العينان ضيقتان قليلا». وضعت نازنين يدها على جبهتها. هذا صحيح. كانت الجبهة كبيرة غير أنها لم تفكر في أن عينيها ضيقتان جدا.

«ليست طويلة. ليست قصيرة. نحو خمسة أقدام. الوركان هزيلان قليلا لكنني أعتقد أنهما عريضان بما يكفي لحمل طفل. جميع الأشياء مدروسة. إنني راض. ربما عندما تكبر سوف تنبت لها لحية في ذقنها لكنها الآن لم تبلغ سوى الثامنة عشرة. وعم أعمى أحسن من عدمه»، وركان هزيلان! يمكنك أن تأمل في خطأ كهذا، قالت نازنين ذلك في نفسها وهي تفكر في ثنايا الترهلات التي تتدلى من بطن شانو. كان من الممكن أن تدس أقلامك الجافة والرصاص المائة تحت هذه الثنايا وتحتفظ بها على نحو آمن ومحكم. يمكنك أيضا أن تدس كتابا أو كتابين بالإضافة إلى ذلك، هذا إذا استطاعت ساقاك النحيلتان أن تتحمل الثقل، «ما هو أكثر من ذلك أنها عاملة ماهرة. تنظيف، طبخ وما شابه. الشكوى الوحيدة التي يمكن أن أشكوها هي أنها لا تستطيع أن ترتب ملفاتي بالتسلسل لأنها لا تعرف الإنجليزية. أنا لا أشكو على الرغم من ذلك، فكما قلت فتاة من الريف غير مدللة بالمرة».

استمر شانو في التحدث، غير أن نازنين انسلت عائدة إلى السرير، «عم أعمى خير من عدم وجود أعمام»، زوجها لديه

مثل لكل شــيء. أي زوجة أحســن من عدمها. شــيء ما أحسن مــن عدمه. ما الذي قد توهمتــه؟ أنه قد أحبها؟ أنه ممتن لأنها هي الصبية والحلوة قد ارتضت به؟ وذلك في تضحية بنفســها في ســبيله، وأنها كانت تحظى بشيء ما؟ أجل، أجل. أدركت في ســرعة خاطفة أنها قد توهمت كل هذه الأشياء. يا لها من فتاة حمقاء، يا لها من تصورات بعيدة، أي اعتداد بالنفس لديها.

يظهــر أن النزيف قد توقف. أغلقت نازنــين الصنبور ولفت قطعة من بكرة المطبخ حول إصبعها، من كان يتحدث إليه شــانو في ذلك اليوم؟ ربما كانت مكالمة من بنجلاديش، قريب لم يحضر حفل الزفاف. ربما كان الدكتور أزاد. الليلة ســوف يرى بنفســه الجبهــة الكبيرة والعينــين الضيقتين للغاية. رشــحت دماء من الجرح، نزعت لفافة المطبخ وشاهدت القطرات الحمراء تسقط في الحوض الفضي. راحت القطرات تتســحب معا مثل الزئبق ثم انســابت في المجرى. كم من الوقــت يلزم لتفريغ إصبعها من الدم، قطــرة قطرة؟ كم من الوقت يلزم الذراع؟ ويلزم الجســم، الجسم بأكمله؟

أكثر ما كانت تفتقر إليه هو الناس. ليس أناسا بعينهم (بعيدا بالطبع عن حسينة) بل مجرد أناس، لو وضعت أذنيها على الحائط لتســنى لها أن تســمع أصواتا، التلفزيون المفتوح، سعال أحيانا، تدفق المغسلة، شــخص ما بالطابق الأعلى يجرجر كرسيا، توليع عود ثقاب أسفل. الجميع في أكشاكهم يحصون ممتلكاتهم.

طيلــة أعوامها الثمانية عشــر لا يمكنهــا أن تتذكر إلا نادرا أنها عاشــت بمفردها لحظة واحدة حتى تزوجت وأتت إلى لندن

لتجلس يوما بعد يوم في هذا الكشك الكبير مع أثاث تنفض عنه الغبار. والصوت المكتـوم للحياة الخاصة محكم دائما من فوقها وتحتها وحولها. تفقـدت نازنين إصبعها. لقد توقف النزيف من جديد. عرضت على بالها أفكار. سوف تكلم شانو من أجل ساري جديد. لم يقل أبا لها وداعا. فكرت أنه سـوف يأتي في الصباح قبـل أن يذهبا إلى دكا، إلى المطار ولكن عندما اسـتيقظت كان قد غدا بالفعل إلـى الحقول. هل ذلك لأنه كان يهتم بها بدرجة مفرطـة أو لأنه كان يهتم بهـا بدرجة قليلة؟ كانت في حاجة إلى مزيد من ورنيش الأثاث ومادة تبييض للمغسـلة. هل سيود شانو إزالة الأجـزاء المتصلبة في قدمه هذه الليلـة أيضا؟ ماذا تفعل حسينة؟

ذهبت إلى حجرة النوم وفتحت خزانة الملابس، كان الخطاب في درج الأحذية في القاع. جلست على السرير لتقرأه وقدماها تكادان تلامسـان الضلفات المطلية باللون الأسود. أحيانا كانت تحلم أنها محبوسـة بداخلها وأنها أخذت تطرق وتطرق ولا أحد يسمع.

«أحمد ابن عمنا أعطاني عنوانك، شكرا لله، سمعت عن زواج وأدعو مرات عديدة في يوم زفافك وأدعو أيضا الآن.

أدعـو أن يكون زوجك رجلا طيبا. سـوف تكتبـين وتخبرينني بكل شـيء. سـعيدة للغايـة الآن. خائفة تقريبـا وبصعوبة أجرؤ علـى فتـح عيني. لماذا هذا؟ ما الـذي يجلب الخوف؟ لم يضعني اللـه علـى الأرض فقـط لأعاني. أعلم ذلـك على الـدوام حـتى عندما لا تأتي الأيام بنور.

عـم مالـك حصل له علـى وظيفة درجة أولى بشـركة السـكة الحديـد، هـذا العم واصل جدا في السـكة الحديد. مالك يخرج مبكـرا فـي الصباح ويعود متأخرا. لا يعـرف كثيرا عن القطارات ومثل هذه الأشـياء لكنه يقول أيضـا كذلك هذا لا يهم. المهم أن تكون ذكيا. لا أحد أذكى من زوجي. هل يمكنك أن تصدقي؟ نحن نعيش في وحدة من الشقة بارتفاع ثلاثة طوابق. مكاننا يحتوي على حجرتين. ليس هناك شـرفة غير أنني أصعد إلى السـطح. توجـد أرضيـة مـن حجـر يثلـج قدميـك. لدينـا سـرير بنابض معدني. خزانة وكرسـيان في حجرة النوم. أطبق الساري وأضعه في صندوق تحت السرير. في غرفة الجلوس لدينا ثلاثة كراسي من الخيزران وبساط ومقعد (يحب مالك أن يضع عليه قدميه) قفص مؤقت فقط حتى نشـتري طاولة، كذلك موقد كيروسـين أغطيـه بشـال لجعل المكان مرتبا. قـدري والطاسـات محفوظة داخل القفص بالكاد، أي صراصير فقط واحد ربما اثنان أراهما من وقت إلى آخر.

على الرغم من أننا ليس لدينا شيء، فأنا سعيدة، لدينا الحب، الحب هو السعادة، أحيانا أرغب في العدو والقفز مثل ماعز. هذا ما نفعله في طريقنا للمدرسة. لكن ليس هناك مجال كثير وأنا في السادسة عشرة من عمري، ومع ذلك امرأة متزوجة.

كل شـيء على ما يرام. لا أترك لسـاني يثير المتاعب لأنه كما يقـول زوجي فقط، وجود رجل عطوف علـى زوجته لا يعنى أنها تستطيع أن تقول ما تشاء، لو فهم النساء هذا لن يضرب أحد.

مالك عنده وظيفة درجة أولى. أتضرع من أجل طفل. أتضرع

أن تغفـر أم مالـك جريمة زواجنا. سـوف يحدث. سـيأتي الوقت الـذي تحبنـي فيه كابنها. لـو أنا مخطئة فهـي أم غير حقيقية. لأن الأم تحـب كل جـزء مـن ابنها. وأنـا الآن جزء منـه. لو كانت أمـي علـى قيد الحياة هل تعتقدين أنها تغفـر هذا الأمر، أبى لا يستطيع أن يغفر؟ مرة أعتقد أنها حقا تفعل ذلك. مرات عديدة أعتقد لا وعندها أنا غاضبة وحزينة أيضا.

أختـي أفكر فيك كل يـوم وأبعث الحب. أبعـث احتراما لزوج. الآن أصبـح لديـك عنوان وسـوف تكتبين وتقولين كل شـيء عن لنـدن. إن الأمر يجعلني أرتجف أنـك بعيدة جدا هكذا تتذكرين هـؤلاء، القصة التي نسـمعها عندما كنا أطفـالا التي تبدأ على هـذا النحو: «ذات يوم كان هناك أميـر يعيش في الأرض البعيدة المعزولـة على مبعدة سـبعة بحور وثلاثة عشـر نهـرا» هكذا أفكر فيك الآن. لكن كأميرة[١١].

نحن يرى بعضنا بعضا منذ وقت طويل مر ونحن بنات صغار من جديد[١٢].

شـــخص ما كان يطرق الباب الأمامي للشـــقة. فتحت نازنين الباب مواربة والسلسلة معلقة ثم أغلقته بينما قامت بنزع السلسلة وفتحته تماما، كانت السـيدة إسلام تخبر راضية إقبال «لا أحد يقول ذلـــك في وجهه. الجميع يقولون ذلك مـــن وراء ظهره. أنا لا أحب هــذا النوع من النميمة». تبادلت نازنين الســلامات مع

(١١) سبعة بحور وثلاثة عشر نهرا يبدو أنها اقتباس من مجموعة «القمر الهلال لطاغور»، كذلك تعد استهلالا لكثير من القصص البنغالية - المترجم.

(١٢) الخطاب من فتاة بنغالية تتحدث الإنجليزية بركاكة، استلزم الأمر ظهور هذا التوتر اللغوي في الترجمة العربية على مدار خطاباتها ـ المترجم.

زائريها وذهبت لإعداد الشاي، طبقت السيدة إسلام مناديل ورق وهى تفرد نفسها من الأريكة إلى الطاولة الخفيضة وطوتها على أكمام سترتها المحبوكة ذات الكرات. قالت راضية «نشر الشائعات هو تسليتنا القومية. هذا لا يعني أنه شيء حسن. غالبا لا يكون فيه مزقة من حقيقة». رمقت بطرفي عينيها نازنين التي كانت تجهز أدوات الشاي. «ما هذا الذي يقولونه هذه المرة؟ لو سمعته من شخص آخر أستطيع أن أطلعهم مباشرة على كل شيء».

قالت السيدة إسلام: حسن، وأسندت ظهرها إلى حشو التنجيد البني. كماها راحا ينتفخان ويفرغان. كانت ترتدي شبشب بيتي على جوارب سوداء. نظرت نازنين من خلال الزجاج إلى مركز الطاولة وشاهدت قدمي السيدة إسلام تتلويان في إثارة لم يبدها وجهها.

«يجب أن تضعي نصب عينيك أنها لم تنجب أطفالا. هذا بعد إحدى عشرة سنة زواجا».

قالت راضية «حقا، ذلك صحيح، هذا أسوأ شيء بالنسبة إلى أي امرأة»، وعلى ارتفاع ستة عشر طابقا، إذا قررت أن تقفزي، تضعين النهاية للأمر، أخرجت السيدة إسلام منديلا ورقيا وجففت قليلا من العرق انساب من منبت شعرها. مجرد النظر إليها كان يجعل نازنين تشعر بحرارة لا تطاق.

«ليست هناك فرصة للقضاء على أبله، إذا قفزت من هذا الارتفاع» وافقت راضية. أخذت فنجانا من نازنين وأمسكته بيديها اللتين لهما حجم يد رجل. كانت ترتدي حذاء برباط كبير ونعل سميك. لم يكن سوى الساري هو الذي يبدو غريبا عليها

«لكن بالطبع كانت مجرد حادثة. لماذا تقول عكس ذلك؟».

قالت السيدة إســلام «حادثة فظيعة، لكن الجميع يتهامسون من وراء ظهر الزوج»

ارتشــفت نازنين شايها، كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق وكل ما فعلته فرم بصلتين. لم تسمع عن الحادثة. لم يذكر شانو شــيئا. أرادت أن تعــرف من هذه المرأة التي ماتت بهذا الشــكل المؤســف. صاغت بعض الأســئلة في ذهنها، صاغتها في كلمات وأعــادت صياغتها. قالــت راضية «إنه عار» ابتســمت لنازنين، اعتقــدت نازنين أن راضيــة لا تبدو كأنها بالفعــل تعتقد ذلك. عندما ابتســمت بدت متسلية بشــدة على الرغم من أن فمها لم يرتفــع إلا قليلا ليــدل على الحزن أكثر مــن الضحك. كان لها أنف طويل وعينان ضيقتان تنظر إليك دائما من طرفيهما، ليس من الأمام مباشــرة. لذا كانت تبــدو على الدوام أنها تقدرك إذا لم تكن تســخر منك. أومأت الســيدة إسلام مشيرة إلى أن ذلك بالفعل عار. أخذت منديل ورق جديدا وتمخطت. بعد فترة صمت مقبولة قالت «هل سمعت عن جورينا؟».

قالــت راضية «أنا أســمع هذا وذاك...». كما لو أنه ليســت هناك أخبار عن جوريـنــا يمكن أن تثير اهتمامها «وما رأيك في ذلك؟».

قالت راضية وهى تخفض عينيها إلى شايها «ذلك يعتمد على أي شيء تقصدينه على وجه التحديد».

«أنا لا أقول شــيئا غير معروف بالفعــل. لا يمكنك أن تبقيه سرا بمجرد خروجك للعمل».

رأت نازنـــين أن راضية رفعت بصرها بوضوح. راضية لم يكن لديها علم بالأشـــياء التي تعرفها الســـيدة إسلام. كانت السيدة إســـلام تعرف كل شيء عن كل شـــخص. لقد استقرت في لندن منـــذ قرابة ثلاثـــين عاما، وإذا كنت بنغاليا هنـــا ماذا يمكنك أن تخفيه عنها. الســـيدة إسلام كانت أول شخص يتردد على نازنين فـــي تلك الأيام القليلة الأولى عندما كانت رأســـها مازالت تدور والنهـــارات جميعها عبارة عن أحـــلام والحياة الحقيقية لا تأتي لها ســـوى ليلا عندما تنام. وصف شـــانو الســـيدة إسلام بأنها محترمـــة. ليس هناك أناس كثيرون محترمون بما يكفي لتتصلي بهم أو تمري عليهم.

قال شـــانو عندما راح يشـــرح ذلك للمرة الأولـــى «أنت ترين معظم ناسنا هنا ســـيلهيتيين[١٣] فهم جميعا ملتصقون معا لأنهم جاءوا من المقاطعة نفسها. يعرف بعضهم بعضا من القرى. وهم يأتـــون إلى تور هامليتس ويعتقدون أنهـــم في القرية من جديد. معظمهم يغادرون من الســـفن. تلك هـــي الطريقة التي يجيئون بها. يحصلون على وظائف حقيرة على السفينة. يقومون بأعمال شـــاقة أو يتخفون عن الأنظار في العنابر مثـــل فئران حقيرة». تنحنح وراح يتحدث إلى خلفية الحجرة. لذا أدارت نازنين رأسها لتـــرى من ذلـــك الذي يخاطبـــه. وعندما يغادرون من الســـفينة ويهرعـــون إلى هنـــا كأنهم في ديارهم. وأنت ترين أننا بالنســـبة إلى أي شخص أبيض جميعنا على الشاكلة نفسها. قرود حقيرة قذرة. جميعنا من عشـــيرة القرود نفســـها، غير أن هؤلاء الناس

(١٣) نسبة إلى سيلهيت، وهي مدينة تقع شمال شرق بنجلاديش ـ المترجم.

فلاحون، غيــر متعلمين، أميون، محدودو الأفق. بلا طموح، عاد وجلس مرة أخرى ومسد بطنه «أنا لا أحتقرهم ولكن ماذا يمكنك أن تفعليه لو أن شــخصا ظل على الدوام يجر عربة جنركشة[١٤] ولم يمسك في يده كتابا قط، فما الذي تتوقعينه منه؟

تعجبت نازنين من السيدة إسلام، فإذا كانت تعرف شؤون كل شخص لترتب على ذلك أنها تخالط كل شخص سواء كان فلاحا أو غيره، ومع ذلك تظل محترمة.

قالت راضية للســيدة إسلام «الخروج للعمل؟ ما الذي حدث لزوج جورينا؟» قالت السيدة إسلام «لم يحدث شيء لزوج جورينا»، كانت نازنين تتعجب من الطريقة التي تخرج بها الكلمات من فمها مثل طلقات. كان قد فات الأوان على السؤال عن المرأة التي هوت من الدور السادس عشر.

«زوجها مازال يعمل» قالت راضية كما لو كانت الشخص الذي يمدهــم بالمعلومات «الزوج يعمل لكنه مازال غير قادر على ســد رمقها. في بنجلاديش مرتب واحد يمكن أن يطعم إحدى عشرة امرأة إلا أنه لا يكفي لسد رمق جورينا».

«أين تذهب، إلى مصنع الملابس؟».

«تخالط كل الأنــواع: أتراك، إنجليز، يهــود، كل الأنواع»، قالت الســيدة إســلام «أنا لســت من الطراز القديم، أنا لا أرتــدي البركا[١٥]. إننــي أفكر في الحجــاب، الذي يعد أهم شــيء. إضافة إلى أنني أرتدي الســترات والبرقات ووشاحا لرأســي. ولكــن إذا خالطت كل هؤلاء النــاس، حتى لو كانوا

(١٤) جنركشة: عربة تستخدم في التنقل يجرها أشخاص ـ المترجم.

(١٥) بركا: رداء نسائي طويل يغطي الجسد كله ـ المترجم.

أناســـاً طيبين عليك أن تتخلى عـــن ثقافتك لتتقبلي ثقافتهم. هكذا هي الحال».

قالت راضية «مســـكينة جورينا، هل تستطيعين أن تتصوري»، قالت لنازنين التي لم تستطع أن تتصور.

واصلن الحديث وقامت نازنين بإعداد مزيد من الشاي وردت على بعض الاستفســـارات عن نفســـها وعن زوجها وكانت تشك طوال الوقت بخصوص العشاء واستحالة ذكر أي شيء لضيفتيها اللتين يجب الترحيب بهما.

أوضح شـــانو لها «الدكتـــور أزاد يعرف الســـيد دالواى، وهو ذو نفوذ. لو أوصى بي ســـتكون الترقية على الفور. هكذا تســـير الأمـــور، تأكدي من أنك طحنت التوابل كما ينبغي وقطعت اللحم قطعا كبيرة. لا أريد قطعا صغيرة هذا المساء».

ســـألت نازنين عن أطفال راضية، ولـــد وبنت، خمس وثلاث ســـنوات، كانـــا يلهوان في منـــزل إحدى العمـــات. قامت ببعض الاستفســـارات عن التهاب المفاصل لدى السيدة إسلام، أشارت السيدة إســـلام لتدل على أن المفصل في الواقع أزعجها بدرجة كبيرة غير أنه لا شـــيء تســـنى لها أن تذكـــره، حيث جعلت من نفسها رواقية، وعندئذ، عندما بدأ قلقها على العشاء.

يقبـــض صدرها، نهضـــت ضيفتاها للانصراف. فأســـرعت نازنين لفتـــح الباب وهى تشـــعر بالوقاحة بينمـــا تقف بجانبه، منتظرة إياهما أن يذهبا.

الفصل الثاني

كان الدكتور أزاد رجلا صغير الحجم ودقيقا، وكان يتحدث على النقيض من العرف البنغالي عند مستوى لا يزيد عن الهمسة سوى بربع ديسبل. كان على أي شخص يرغب في سماع ما يقوله أن ينحني نحوه. لذا كان شانو طيلة المساء يبدي هيئة المتعلق الشديد بكل كلمة يقولها.

قال الدكتور أزاد عندما كانت نازنين تحوم خلف المائدة، مستعدة للقيام على خدمتهما «تعالي، تعالي واجلسي معنا» قال شانو «زوجتي خجولة للغاية!» وأومأ لها بالجلوس. قال الدكتور «هذا الأسبوع رأيت اثنين من شبابنا في حالة مؤسفة للغاية. قلت لهما مباشرة هذا خياركما: كفا عن شرب الكحول على الفور وإلا فبحلول العيد سوف ينتهي أمر كبدكما. منذ عشرة أعوام كان هذا لا يمكن تصوره. اثنان في أسبوع واحد! أما الآن فأطفالنا يقلدون ما يرونه هنا، الذهاب إلى الحانة، أو إلى الملاهي الليلية، أو احتساء الشراب بالمنزل في غرف نومهم حيث يعتقد آباؤهم أنهم في أمان تام. المشكلة تكمن في أن ناسنا ليسوا على دراية كما ينبغي في هذه الأمور» تناول الدكتور أزاد كوبا من الماء في شربة طويلة وصب لنفسه كوبا آخر، «دائما أشرب كوبين قبل أن أبدأ الطعام». شرب الكوب الثاني. «حسن الآن لن أفرط في الطعام» قال شانو «كل! كل! الماء مفيد لتطهير الجهاز، غير أن الطعام ضروري أيضا» راح يغرف لحما وأرزا بأصابعه ويمضغ. وضع قدرا كبيرا في فمه دفعة واحدة، محدثا أصوات مرقة وهو يأكل.

عندما تسنى له أن يتحدث من جديد، قال «أتفق معك فناسنا ليسوا على دراية في هذا، إضافة إلى أشياء كثيرة أيضا. ولكن

من جانبي فأنا لا أخاطر بحدوث تلك الأشـياء لأطفالي. سوف نعود قبل أن يصبحوا فاسدين».

قـال الدكتور هذا مرض آخر نبتلى به، أسـميه مرض العودة إلـى الوطن، هل تعلم ماذا يعنى ذلـك؟ «توجه إلى نازنين». إنها تشعر بحرقان في ظاهر عنقها وتصوغ كلمات لا تغادر فمها.

قال شـانو «هـذا طبيعي فهؤلاء الناس أصـلا فلاحون وهم يفتقـدون الأرض. إن جاذبيـة الأرض أقـوى حتى مـن جاذبية الدم».

«وعندمـا يدخـرون بمـا يكفـي سـوف يسـتقلون طائرة ويرحلون؟»

«إنهم في الواقع لا يغادرون الوطن قط. فأجسامهم هنا ولكن قلوبهـم هناك، وعلـى أي حال انظر إلى طريقة عيشـهم: إنهم يعيدون خلق القرى هنا»

«لكنهـم لن يدخروا قط بما يكفي للعـودة «زود الدكتور أزاد نفسـه بالخضراوات. كان قميصه أبيـض بلا بقع وياقته وربطة العنـق مرتفعتين تحت ذقنه حتى أنـه ليبدو مفتقدا رقبة. لمحت نازنـين بقعة زيتية صفـراء على قميص زوجها حيثما أسـقط الطعام.

واصل الدكتور أزاد «كل سنة يعتقدون، ليس سوى سنة أخرى. ولكن أيا كان ما يدخرونه فليس كافيا ».

قالـت نازنين «لـم نكن نحتاج كثيرا جـدا» نظر كلا الرجلين إليهـا. راحت تتحدث إلى طبقها «أقصد أننا بوسـعنا أن نعيش بطريقة زهيدة للغاية». راح ظاهر عنقها يتحرق.

ملأ شـــانو الصمت بضحكة. «إن زوجتي قد اســـتقرت لتوها هنا». ســـعل واعتدل في كرسيه. «المسألة أنه مع الترقية القادمة ســـوف تبدأ الأمور في التحسن بالنسبة لي. لو أن ترقيتي تثبت، عندها سوف تصبح أشياء كثيرة في عداد الممكن».

قـــال الدكتـــور أزاد «كنت أفكر طيلة الوقت فـــي العودة» كان يتحـــدث بهدوء مما اضطرت نازنين للنظر إليه مباشـــرة، فحتى تســـتوعب جميع الكلمات كان عليها أن تتابع شـــفتيه، حتى «كل ســـنة كنت أفكـــر، ربما هذه الســـنة، وكنت ســـأذهب في زيارة، أشـــتري بعض الأراضي الإضافيـــة، أرى الأقـــارب والأصدقاء وأعقد العزم على العودة دائما، بيد أنه على الدوام كانت تحدث أشياء. فيضان، إعصار يخفق عملية البناء تماما ، انقطاع التيار الكهربائي. شيء بليد من البيروقراطية الحقيرة، قبائل يجب أن تدفـــع لها من الباطن حتى تنجز كل شـــيء. وكنت أفكر، لا بأس ربما ليس هذه السنة، والآن لا أدري. لا أدري بالمرة».

تنحنح شـــانو «بطبيعة الحال لم يعلن عنها بعد. أناس آخرون قدموا طلبات غير أنه بعد سنوات خدمتي... هل تعلم أنني خلال ســـت ســـنوات لم أتأخر في يوم واحد! وليس ســـوى ثلاثة أيام مرضي بالقرحة. بعض زملائي مرضى بشـــدة، دائما يمرضون بهذا أو ذاك. إنه أمر ليس بوســـعي أن أضعه نصب عين السيد دالواي، رغم ذلك أشعر أنه لا بد أن يكون مدركا لهذا.

قال الدكتور أزاد «أتمنى لك التوفيق».

«ثم أن هناك المنظور الأكاديمي، ففي ظرف شـــهور سأصبح أكاديميـــا متطورا تمامـــا بدرجتين علميتين. واحـــدة من جامعة

بريطانية. درجة بكالوريوس الآداب مع مرتبة الشرف».

«إنني متأكد أن أمامك فرصة جيدة»

«هل أخبرك السيد دالواي»

هز الدكتور كتفيه الأنيقتين.

«رئيسي السيد دالواي. أخبرك أن لدي فرصة جيدة؟»

«كلا»

«قال إنني ليس لدي فرصة جيدة؟»

«لم يقل أي شيء قط. فأنا لا أعرف السيد المتحدث عنه».

«إنه أحد مرضاك. لقد حددت سكرتيرته موعدا من أجل أن يعرض نفسه عليك بخصوص التواء كتفه. إنه لاعب اسكواش ورجل نشيط جدا. ذو بنية متوسطة. شعر أحمر يحمل عدسات لاصقة، ربما قمت بفحص عينيه أيضا».

«محتمل أن يكون مريضا. فهناك آلاف كثيرون في القائمة الخاصة بزبائني».

«ما يجب أن أخبرك به على الفور - أن لديه شفة مشقوقة. حسن، إنها أصلحت، غير أنه يمكنك دائما أن تقول هذا. إن ذلك يجب أن يضعك في مواجهته»

ظل الضيف هادئا. سمعت نازنين شانو يكتم تجشؤه. أرادت أن تذهب إليه وتضرب جبهته. أرادت أن تقوم من على المنضدة وتخرج من الباب وألا تراه ثانية.

«ربما يكون مريضا. أنا لا أعرفه «كان هذا بمثابة همس».

قال شانو «كلا، فهمت»

«بيد أنني أتمنى لك التوفيق».

قال شـــانو: إنني في الأربعين من عمري. وراح يتحدث بهدوء مثل الدكتور. من دون شـــيء من ثقته: «لقد مكثت في هذا البلد ســـت عشرة ســـنة. ما يقرب من نصف عمري» قام بغرغرة في حلق جاف. «عندما قدمت كنت شابا. كان لدي طموحات وأحلام كبيرة. عندما استقللت الطائرة كانت شهادتا التخرج في حقيبتي وبضعة جنيهات في محفظتي. اعتقدت أن هناك سجادة حمراء ســـتكون مفروشة لأجلي. كنت أنوي الانضمام إلى الإدارة المدنية وأصبح الســـكرتير الخاص لرئيس الـــوزراء». عندما كان يروي قصته طفق صوته يتنامى حتى ملأ الحجرة. «كانت تلك خطتي. وعندها اكتشفت أن الأشياء مختلفة بعض الشيء. فهؤلاء الناس هنا لا يعرفون الفرق بيني، أنا الذي يستقل طائرة بشهادة علمية، وبين الفلاحين الذين يروغون من الســـفن وليس بحوزتهم سوى القمل فوق رؤوســـهم. ماذا يمكنـــك أن تفعله؟» راح يكوم كرة من الأرز واللحم في أصابعه ويغزلها في الطبق.

«فعلـــت هذا وذاك. كل ما اســـتطعت. عمل شـــاق للغاية. مقابـــل قليل للغاية. أكثر أو أقل الحـــق أقول أنني كنت أطارد جاموســـا بريا. وآكل أرزي الخـــاص. هل تعرف هذا المثل؟ كل خطابات الاستجداء القادمة من الوطن أحرقتها وأخذت على نفسي عهدين. الأول أن أكون ناجحا، مهما كان الأمر. والثاني أن أعود إلى بلادي عندما أصبح ناجحا ولســـوف أفي بهذين العهدين» شـــانو الذي قد ارتفع وارتفع في كرسيه عاد وهبط من جديد.

قال الدكتور أزاد «حسن جدا. حسن جدا» راح يتفقد ساعته.

قال شـــانو «مازالت خطابات الاســـتجداء تفد من الخادمين العجائــز، ومن أطفال الخادمين. أيضـــا من عائلتي، على الرغم من أنهم ليسوا في احتياج. غير أن كل ما يمكنهم أن يفكروا فيه هو النقود. إنهم يعتقدون أن ذهبا ملقى في الشوارع هنا وهناك وأنا فقــط أقوم بادخاره كله في قصري. غيــر أنني لم آت إلى هنا من أجل النقود. هل كنت أتضور جوعا في دكا، لم أكن. هل يســـألون عن دبلوماتي؟ ينظر إلى الحائط حيث تظهر شـــهادات متنوعة في إطارات. إنهم لا يســـألون. ما هو أكثر من ذلك...».

تتحنح شـــانو علـــى الرغم من أن حلقـــه كان بالفعل خاليا. نظر الدكتور أزاد إلى نازنين ومن دون قصد أعادت نظرته، لذا قُبض عليها مشتركة في جريمة النظرات معطاة ومستردة، حيث قالت شيئا عن زوجها ما كان لها أن تقوله.

استمر شانو في الحديث. أنهى الدكتور أزاد الطعام في طبقه. بينما برد طعام شـــانو. راحت نازنين تتأنـــق في طبق القرنبيط بالـــكاري. رفض الدكتور بهزة من الـــرأس بدوره أي زيادة أخرى مـــن الطعام أو أي حلو. جلس ويداه مطويتان على المنضدة بينما شـــانو الذي وصل خطابه إلى النهاية راح يأكل على نحو مزعج. راح يتفقد ساعته من جديد.

في التاســـعة والنصف قال الدكتور أزاد «حسن، أشكرك أنت وزوجتك على أمسية لطيفة للغاية ووجبة ممتعة»

تظاهر شـــانو أن الوقت مازال مبكرا. كان الدكتور حاســـما، «دائما أنام في العاشـــرة والنصف ودائما أقرأ نصف ساعة في السرير قبل ذلك»

قال شــانو «نحــن المفكرين لا بــد أن يتعلــق بعضنا ببعض» واصطحب ضيفه إلى الباب.

لو أخــذت بنصيحتي، من مفكر إلى مفكر. ســوف تأكل في مهــل أكثر وتمضغ جيدا أكثر وتأخــذ نصيبا صغيرا من اللحم. وإلا سوف أراك من جديد في العيادة مصابا بقرحة أخرى.

قال شــانو «فكر فقط إذا لم أصب بالقرحة في المقام الأول ما كان لنا أن نتقابل وما كان لنا أن نتناول هذا العشاء معا». قال الدكتور «فكر فقط». لوح بوهن ثم اختفى خلف الباب.

كان التلفزيــون مفتوحا. كان شــانو يحــب أن يظل متوهجا في المســاءات، مثــل موقد في ركن الحجــرة. أحيانا كان يتقدم منه ويثيره بضغــط الأزرار لكي يتوهج الضــوء وتتغير الألوان. فــي الأغلب كان يتجاهله. حملــت نازنين كومة من آخر الأطباق المتســخة لأخذها إلى المطبخ، غير أن الشاشة استوقفتها. رجل يرتــدي حلة ضيقة للغاية (ضيقة جدا مما جعل أجزاء جســمه الخاصة بادية للعيان) وامرأة ترتدي تنورة لا تغطي حتى مؤخرتها يتشبثان ببعضهما كأن قوة خفية تدفعهما خلال ميدان بيضاوي. كان المتفرجون يصفقون بأيديهم معا ثم توقفوا. عن طريق سحر مــا توقفوا جميعا في الوقت نفســه بالضبط. انفصل الزوجان. تخليا عن بعضهما وبمجرد أن تخليا راح يلتمس كل منهما الآخر. كل حركــة يقومان بها كانت ملحــة وحادة، تمثل إعلانا... رفعت المرأة ســاقا (رأت نازنين الشــريط الرقيــق لأول مرة) ووضعت حذاءها على الفخذ الآخر، صانعة من ساقيها راية مثلثة وراحت تدور حلزونيا حتى أوشكت أن تســقط على نحــو مؤكد إلا أنــها

لم تســـقط. لم تبطئ. توقفت فجأة متجمدة ونشـــرت ذراعيها فوق رأسها بنظرة منتصرة جدا تجعلك تدرك أنها قد قهرت كل شيء: جســمها، قوانين الطبيعة وقلب الرجل ذي الحلة الضيقة الذي انزلق على ركبتيه، متعهدا أن يضحي بحياته من أجلها.

قالت نازنين «ماذا يسمى هذا»

خطف شانو النظر إلى الشاشة، قال بالإنجليزية «Ice Skating»

قالت نازين «Ice e-skating»

قال شانو «Ice skating»

«كلا كلا ليس هناك ice skating - e حاولي من جديد»

ترددت نازنين

«هيا»

«Ice e-skating» قالتها في تروٍ

ابتسم شـــانو «لا تقلقي بشأن ذلك. إنها تعد مشكلة مشتركة للبنغاليين. إن وجود حرفين ســـاكنين معا يســـبب مشـــكلة. لقد تغلبت على هذه المســـألة بعـــد وقت طويل. لكن من غير المحتمل أن تكوني في حاجة إلى هذه الكلمات على أي حال».

قالت نازنين «أود أن أتعلم بعض الإنجليزية»

نفخ شـــانو خديه ولفظ الهواء «فوف» سوف يحدث. لا تقلقي بشـــأن هذا. أين الداعي على أي حـــال؟، راح يطالع كتابه بينما طفقت نازنين تشاهد الشاشة.

«يعتقد أنه سوف يحصل على الترقية لأنه يذهب إلى الحانة مـــع المدير. إنـــه أحمق للغاية فهو حتى لا يـــدرك أن ثمة طريقا آخـــر للحصول على الترقيـــة». المفروض أن شـــانو كان يذاكر.

كتبـــه مفتوحة على المنضدة. بين حين وآخر كان يبحث في كتاب أو يقلـــب صفحة. في أغلب الوقـــت كان يتكلم بوب، بوب، بوب. راحت نازنين تقلب الكلمة في عقلها. قطرة أخرى من الإنجليزية عرفتها. ثمة كلمات أخرى كان شـــانو ينثرها في حديثه، أشـــياء أخرى يمكن أن تقولها لســـيدة الوشـــم. في هذه اللحظة لم يكن بوسعها أن تفكر في أي منها.

«هذا الويلكى – أخبرتك عنه – لقد نال شـــهادتين في الثانوية العامة. كل غذاء يذهب إلى الحانة ويعود بعد نصف ســـاعة. اليوم رأيته يجلس في مكتب الســـيد دالوالي مستخدما التلفون ورجلاه فـــوق المكتـــب. إن الفاكهة المنتظرة مازالت على الشـــجرة غير أنه بالفعل أصبح يضع الزيت في شاربه. لا محالة أنه سوف يترقى».

حدقـــت نازنين في التلفزيون. كانت هناك لقطة قريبة للمرأة ثمـــة نتف متلألئة حول عينيها مثـــل ترتر دقيق ملتصق بوجهها. شعرها كان مسحوبا إلى الوراء ومربوطا من أعلى رأسها بزهور صناعيـــة. كان صدرهـــا يرتفع وينخفض كما لـــو أن قلبها على وشـــك الخروج وكانت تبتسم بصفاء، في ابتهاج ذهبي. اعتقدت نازنين أنها لا بد أن تكون مرعوبة لأن مثل هذه الأشـــياء لا يمكن الإمساك بها ولا يجب التفريط فيها.

قال شـــانو «كلا، ليس لدي أي شـيء أخاف بسببه من ويلكي. لدي شهادة من جامعة دكا في الأدب الإنجليزي. هل يمكن لويلكي أن يستشهد من شوسر أو ديكنز أو هاردي؟»

نازنين، التي خشيت أن زوجها ربما يبدأ واحدا من استشهاداته الطويلـــة، رصت آخر طبـــق وذهبت إلى المطبـــخ. كان يحب أن

يستشـــهد بالإنجليزية ثم يعطيها ترجمـــة، جملة بجملة وحينما يترجمها لم تكن تعني بالنســـبة إليها أكثر مما تعنيه بالإنجليزية، لذا لم تكن تدري بما ترد أو حتى إذا كان ثمة رد مطلوب.

غسلت الأطباق وشطفتها وجاء شانو واستند إلى الخزانة غير المناســـبة وتحدث باستفاضة ما. قال «كما تعلمين» بادئة متكررة رغم أنها في الأغلب لـــم تكن تعلم». إنها الطبقة الدنيا البيضاء من أمثال ويلكي، الذين كثيرا ما يخافون من أناس مثلي. بالنسبة له وللناس على شـــاكلته فنحن نمثل الشـــيء الوحيد الذي يحول بينهم وبين الانزلاق إلى قاع الحضيض. طالما كنا تحتهم فهم فوق شـــيء ما، لو رأونا نرتفع أصبحوا ممتعضـــين لأننا تركنا مكاننا الحقيقي. ذلك هو السبب في أن لديك ظاهرة الجبهة الوطنية(١٦) في استطاعتهم اللعب على هذه المخاوف لخلق توترات عنصرية ومنح هؤلاء الناس عقدة امتياز. الطبقة الوسطى أكثر أمانا ومن ثم أكثر استرخاء. نقر بأصابعه على سطح الفورمايكا.

أخذت نازنين منشفة مطبخ وراحت تجفف الأطباق. تساءلت إذا كانت امرأة الـ Ice e-skating تعود إلى البيت وتغسل وتجفف. كان مـــن الصعب أن تتخيل غيـــر أنه ليس ثمة خدم. فكان عليها أن تتدبر ذلك بنفسها.

واصل شـــانو «ويلكي ليس بالضبط مـــن الطبقة الدنيا. لديه وظيفة من الناحية الفنية كتب سأقول كلا، هو ليس كفئا، بيد أن ذلك هو ضبط العقل. هذا ما أدرسه تحت فصل الجنس والعرق والهوية. علم الاجتماع. بالطبع عندما أحصل على شهادة الجامعة

---

(١٦) الجبهة الوطنية: أقلية تنادى بأحقية البريطانيين للوظائف دون غير البريطانيين - المترجم.

المفتوحة الخاصة بي لن يجرؤ أحد أن يسأل عن أوراق اعتمادي، وعلى الرغم مـن أن جامعة دكا واحدة من أفضل الجامعات في العالم، غير أن هؤلاء الناس هنا بصفة عامة جاهلون ولا يعرفون شيئا عن برونتي أو ثاكراي».

بدأت نازنين وضع الأشياء في مكانها. احتاجت أن تصل إلى داخل الخزانة التي اعترضها شـانو بجسـده. لـم يتحرك على الرغـم من أنها ظلت تنتظر قدامه. في نهاية الأمر تركت المقلاة فوق الموقد ريثما توضع مكانها في الصباح.

قال شـانو «إش» وهو يزفر بحدة «هل أسلت دما؟» نظر عن كثب إلى إصبعه الصغيرة. لم يكن يرتدي سوى سروال البيجامة بينما يجلس على السـرير. كانت نازنين بجانبه تنحني وشـفرة موسى في يدها فقد حان الوقت لنزع الأجزاء المتصلبة في قدم زوجها من جديد. راحت تشـرّح خلال البشـرة شـبه الشفافة، الجـزء الصلب حول القلب الأصفر وتجمع النتف الصغيرة الميتة في راحة يدها.

قال شانو «تمام، ولكن خذي بالك، هه؟»

انتقلت نازنين إلى القدم الأخرى.

قال شـانو عندمـا دخلت نازنين السـرير بجانبه «أعتقد أن الأمر يعد نجاحا هذا المساء».

قالت نازنين «أجل أعتقد ذلك».

«إنـه لا يعرف دالواي بيد أن ذلك ليس مهما. إنه رجل طيب، محترم جدا.»

«محترم. أجل»

«أعتقد أنني متأكد من الترقية على أي حال».
«إنني سعيدة من أجلك».
«هل لنا أن نطفئ النور؟»
«سأقوم بذلك».

بعد دقيقة أو دقيقتين في الظلام، عندما تكيفت عيناها وبدأ الشخير. استدارت على جنبها ونظرت إلى زوجها. راحت تتفحص وجهه، مستدير مثل كرة، الشعر الناحل الكليل أعلى الرأس، والحاجبين الكثيفين الممتدين بعرض جبهته، كان فمه مفتوحا، وقد بدأت في تنظيم تنفسها لكي تتنفس وقتما يتنفس. عندما جانبها التوفيق تسنى لها أن تشم أنفاسه. وراحت تنظر إليه وقتا طويلا. لم يكن وجها وسيما. في الشهر السابق لزواجها عندما نظرت إلى وجهه في الصورة، فكرت أنه قبيح. الآن رأت أنه ليس وسيما. بيد أنه كان طيبا. فمه دائما لا يكل، دائما يتحرك، ذو شفتين ممتلئتين ووافرتين، من دون دلالة على قسوة. عيناه كانتا قلقتين أو بعيدتين جدا أو كليهما. الآن وبما أنهما كانتا مغلقتين استطاعت أن ترى الكيفية التي تتجعد بها البشرة عبر الجفون ثم تنحدر لتقابل ثنايا البشرة في الزوايا. تقلب في نومه وتحرك على بطنه ويداه ممددتان على جانبه ووجهه مهصور على الوسادة. قامت نازنين من السرير وعبرت الصالة. تمكنت من ستارة الخرز التي تفصل بين المطبخ والمدخل الضيق حتى تمنعها من الشخللة، وذهبت إلى الثلاجة. أخرجت أوعية حفظ الطعام الخاصة بالأرز والسمك والدجاج وأخذت ملعقة من الدرج. بينما كانت تأكل واقفة بجانب الحوض تطلعت إلى القمر

المعلق فوق الشـــقق المظلمة التي تقســـمها الأضواء إلى مربعات. كان كبيرا وأبيض وصافيا. راحت تفكر في حســـينة وحاولت أن تتخيـــل ماذا يشـــبه الوقوع في الحب. هل كانت تشـــرع في حب شـــانو أو أنها فقط تعتاد عليه؟ أطلت على الســـاحة. ولدان كانا يتبادلان لكمات صورية، تمويه باليســـار واليمين. بينما ســـجائر مشتعلة في فيهما. فتحت النافذة وانحنت نحو النسيم.

المـــرأة التي ســـقطت، أي رعب جال بخاطرهـــا عندما كانت تهـــوي؟ أي أفكار خطرت على بالها؟ إذا كانت قفزت فأي أفكار خطرت لها؟ هل كان الأمر ســـيصبح سيان؟ في النهاية، هل يهم إذا كانت قفزت أو ســـقطت. وفجأة طفقـــت نازنين متأكدة أنها قفزت. قفزة كبيـــرة، الأقدام أولا وذراعاها منشـــوران، عيناها مفتوحتـــان باتســـاع، صامتة على امتـــداد الطريق إلى أســـفل وشـــعرها غجري ومحلول، وابتسامة كبيرة تقر على وجهها لأنها بهذا الفعل الأبدي الوحيد تحدت كل شـــيء وكل شخص. أغلقت نازنين النافذة وحكت ذراعيها. على البعد كانت ســـيدة الوشـــم ترفع كأسا إلى شفتيها.

الحيـــاة تصنع نفســـها حولها وتحتها وخلالهـــا. كانت نازنين تنظـــف وتطبخ وتغســـل وكانت تعد الفطور لشـــانو وتنظر بينما يأكل، تجمـــع أقلامه وتضعها فـــي حافظة أوراقـــه، تراقبه من النافـــذة بينما يخطـــو مثل قائد فرقة عبر الســـاحة إلى موقف الحافلة في الجانب البعيد للمجمع السكني. ثم تأكل وهى واقفة أمام الحوض بينما تغسل الأطباق. ترتب السرير وتنظف الشقة، تغســـل الجوارب والسراويل الداخلية في الحوض والقطع الأكبر

فــي الحمام. بعد الظهيرة كانت تطبخ وتأكل وهى تطبخ لذا بدأ شــانو يتعجب لماذا قلما تقترب من عشــائها، وكانت تهز كتفيها بطريقة تعني أن الطعام ليس من الأهمية بالنسبة إليها. والنهارات كان يمكن احتمالها، والمســاءات لا يشوبها ما تشكو منه. أحيانا كانت تفتح التلفزيون وتنـقر بالإصـبع خلال القـنوات، باحثة عن الـ Ice e-skating على مدار أسبوع كامل كانوا يعرضونه بعد كل ظهيــرة بينما تجلس نازنين القرفصاء على الأرض. عندما كانت تجلــس كانت تكف عن أن تكون مجموعة مــن الأماني والأفكار العشــوائية وحالات القلق التافهه ورغبات أنانية تلك التي كانت تشــكلها. بل كانت مكتملة ونقية. نازنين القديمة كانت متسامية، أما نازنين الجديدة كانت مفعمة بالنور الأبيض والمجد.

غيــر أنه عندما ينتهي وتغلق التلفزيون، كانت نازنين القديمة تعود. لوهلة كانت أســوأ من نازنين التي من قبل لأنها كانت تكره الجوارب عندما تدعكها بالصابون وتسقط النمر والفيل الفخاريين حينما تنفض الغبــار عنهما. وكانت تصاب بخيبة أمل لأنهما لم ينكسرا. فرحت عندما لم يعد يعرض الـ Ice e-skating بدأت تصلي خمس مرات كل يوم، باســطة ســجادة الصلاة في غرفة الجلوس لتواجه الشــرق. كانت سعيدة للنظام الذي أضفته على يومها وقال شانو «أنه شيء حسن، لكي تذكري» ثم أخرج من فمه قليلا من البلغم الوهمي، «إثارة الرماد على وجهك لا يجعل منك وليّــة. فالله يرى ما بداخل قلبك» وتمنــت نازنين أن يكون ذلك صحيحا. لأن شــانو وفق علمها لــم يكن يصلي، ودون كل الكتب التي أمسكها في يديه لم تره مرة بصحبة القرآن الكريم.

أنزل شـــهاداته المؤطرة وراح يشـــرح لها. «هذه الشـــهادة من مركز التأمل والعلاج في شارع فيكتوريا. تعد في الأساس تأهيلا في الفلســفة المعالية. وهنا الشــهادة من دائــرة الكتاب. كورس بالمراســلة. قدمت طلبا إلى بعض الوظائف كصحفي بعد ذلك. وكتبت بعض القصص القصيرة أيضا. عندي خطاب من بيكثلي هيث أدفرتيذر في مكان ما، ســوف أبحث لــك عنه. يقول «كنا مهتمين كثيرا بقصتك، أمير بين الفلاحين – لكنها لســوء الحظ غير مناســبة لدوريتنا. شــكرا لـك علــى اهتـمامك» – بيكـثلي هيــث – أدفرتيذر. كان خطابا لطيفا، لقد احتفظت به في مكان ما. أما هذا فلا يعد في واقع الأمر شهادة في حد ذاته. إنه من الفصول المســائية بكلية مورلى في الفكر الاقتصادي إبان القرن التاسع عشــر، إنها مجرد توجهات للمدرسة، غير أن ذلك غاية ما يمنحونه. فليس هناك شــهادات. وهنا شهادة المستوى A في الرياضيــات وكانت تلك تمثل صراعا. هذه كفاءة التدوير، وهذا خطــاب قبولي في كورس الاتصالات آي تــي. تمكنت فقط من البدء في فصلين.

كان يتحــدث وهي تصغي. كثيرا ما انتابها شــعور بأنه لم يكن يتحدث إليها، أو بأنها إلى حد ما ليســت ســوى جزء من جمهور أكبر كان حديثه موجها إليه. ابتســم لها غير أن عينيه كانتــا فــي بحث دائم، كأنهــا مجرد وجه في الزحــام لم يتم التركيز عليه ســوى لحظة واحدة. كان صاخبا ، كان يتحدث، كان يمــزح، وكان يغنى أو يدندن. أحيانا كان يقرأ كتابا ويغنـي فــي آن واحد. أو يقرأ، ويشــاهد التلفزيون. فقط عيناه كانتا

حزينتين. كانتا تقولان، ماذا نفعل هنا، ماذا نفعل في هذا الوجه المستدير المبتهج؟

كان من شانو عندما يتحدث عن الترقية أن يصبح جادا. «هذه السيدة تاتشر تحدث مزيدا من الاستقطاعات. استقطاعات صرف عام، استقطاعات صرف عام، ذلك كل ما نسمعه، المجلس يتم اعتصاره. الآن يجب أن ندفع إذا أردنا بسكويتا مع الشاي. إنه أمر سخيف. ويمكن أن يؤثر على ترقيتي». وعندئذ صمت لبرهة، وبدأت نازنين إدخال الترقية في دعواتها، على الرغم من أنها جاءت في المرتبة التالية بعد دعائها لقدوم خطاب آخر من حسينة.

خرجت ذات مرة أو مرتين. طلبت من شانو ساريا جديدا. بحثوا في فتارين المحل في بيثنال جرين رود.

قالت «القرنفلي مع الأصفر جميل جدا. هل تعتقد ذلك؟»

قال شانو «دعيني أفكر» أغمض عينيه. تطلعت نازنين إلى الأبراج الرمادية، جدائل السماء المنسية بينها. شاهدت حركة المرور. كان هناك سيارات أكثر من الناس. جيش معدني جرار يشق المدينة. شاحنات ضخمة تسد عليها مجال الرؤية. بترول على لسانها، محركات في أذنيها. الناس الذين يمرون يسيرون بسرعة، ينظرون قدما إلى لا شيء أو ينظرون إلى الرصيف ليتجنبوا الحصى والفضلات والبراز. المرأة البيضاء كانت ترتدي بنطلونا ضيقا، يشبه رداء محكما بلا أقدام. كانوا يدفعون عربات أطفال وأفواههم تعمل في هلع. أطفالهم يصيحون فيهم وكانوا يردون الصياح. مرت بجوارها امرأتان على نحو مختلف، تنورات

قصيرة مع سترتين متشابهتين. أكتافهما مرتفعتان ومستعرضتان بفعل حشو إسـفنجي. كان بإمكانهما أن تحافظا على اتزان دلو على كل جانب من دون أن تندلق قطرة واحدة. شاهداهما بينما كانتا تنظران وتصفران معا. سارتا وضحكتا، ونظرتا إليهما من فوق أكتافهما المنتفخة.

قال شانو «وفقا لهيوم» آااه. احم

أعـد نفسـه. راح يتحدث بالإنجليزية علـى نحو مفصل، ثم قطب وجهه «ليس من السـهل ترجمتها. دعيني أحاول. كل أمور العقل البشـري أو الاستفسار يمكن بطبيعة الحال تقسيمها إلى قسـمين، ألا وهي علاقات الأفكار وقضايا الواقع» أجل، أعتقد أنها ترجمـة معقولة. راح يمثل من الهندسـة والرياضيات على النوع الأول، أي علاقات الأفكار «ثلاثة أضعاف الخمسة يساوى نصـف الثلاثين هل تفهمين؟» علـى الرغم من أنه لا يوجد قط دائرة أو مثلث في الطبيعة فإن الحقائق التي برهن عليها أقليدس ستظل إلى الأبد التأكيد والدليل عليها هل أنت معي؟»

«لا تقلقـي بخصـوص الدائـرة والمثلث. فهما مـن أمثلته الأخرى. لا تقلقي، سـأصل إلى لـب الموضوع بإيجاز». قضايا الواقـع التي تمثل الأمور الثانية للعقل البشـري لا يتم التحقق منها بالأسلوب نفسه ولا دليلنا على حقيقتها ذو طبيعة مشابهة على الرغم من ضخامته». هذا ما راح يشـرحه على نحو ذكي وفق رأيي «على الرغم من أن الشـمس لن تشـرق غدا لا يعد افتراضـا أقل وضوحا ولا يتضمن تعارضـا أكثر من الإثبات، فإنها سوف تشرق».

«هل ترين؟ سببان مناسبان للسؤال الإنساني. وأنت تسألينني إذا كان الوردي مع الأصفر جميلا؟ ماذا عساي أن أقول؟ يمكنني القــول بأنه جميل أو ليس جميلا، وكيف يتســنى لي أن أخطئ» توقف وابتسم لنازنين. رأت أنه كان ينتظر ردا.

«أعتقد أنه جميل، غير أنني لا أمانع».

ضحك ودخل المحل. عاد بقطعة القماش. قواعد الفلســفة الحديثــة: مقرر مثيــر للغاية. ها هو ســاريك . في تلك الليلة عندمــا اضطجعت مســتيقظة بجــوار زوجها دائم الشــخير، تســاءلت نازنين أي نوع من الوظائف كانت تلك التي يحظى بها عندما يكون شروق الشــمس أو عدم شروق الشمس موضوعا لمناقشــة جادة. إذا كانت تلك هي الأشــياء التي اســتوجب أن يتعلمها ليؤهل نفســه ترى ماذا عســاه يعمــل؟ كان يعمل لدى المجلــس المحلي هــذا كانت تتفهمه جيدا. لكــن دائما لما كانت تسأله ماذا يعمل، كان يرد بإجابة مطولة تتوه فيها. وعلى الرغم من أنها كانت تفهم الكلمات إلا أنهما كانا يصلان معا إلى هذه الحــال التي تعني أن معناها غير واضــح أو أنها، أي الكلمات، كانت تشوشها.

تذكرت كلمات شــانو عن الشمس وتعجبت ماذا كان يقصد. إذا لم تشرق الشمس غدا لتعذر ذلك على فهم كل شخص سوى الله، وأن تقول بأنها لن تشــرق ثم تشــرق يصبح ذلك تعارضا على نحو مؤكد. بالتأكيد نفسه عندما أقول أن السرير لين جدا ثــم أتقلب على الرغم من ذلك وأضطرب طوال الليل، وشــانو يقول أنه ليس لينا جدا ثم يروح في النوم على الفور.

غيـــر أن كلينا يمكن أن يكون محقا في تصوره عن الســـرير، ليس عن الشـــمس مـــن ناحية أخرى ما المغـــزى من الاضطجاع مستيقظا والتفكير في هذا؟ خليني أنام، خليني أنام.

ثم تتنقـــل حيثما تريد فـــي جوريبور، مقتفيـــة الفضلات في القمامـــة بعصا. بينما ترقص حســـينة على أقدام السادســـة من العمر. في جوريبور، في أحلامها، كانت دائما فتاة وحسينة دائما في السادســـة. آما كانت توبخ وتعانـــق، ويضوع منها عرق برائحة البشـــرة على اللبن عندما كان يغلي طوال اليوم بالســـكر. كان آبا يجلس على تشـــوكي، يغني ويصفق. ينادي عليهما ويأخذهما في حضنه، ويخليهما بقبلة خشنة على الخد. ثم تتمشيان حول البحيرة لتشاهدا الصيادين يسحبون السمك في شباك كثيرة من الفضة، وتريـــان العضلات المعقودة علـــى أذرعهم وأرجلهـــم وصدورهم. عندما تســـتيقظ تفكر «أعرف ما كنت سأتمناه» لكنها أدركت الآن أن مـــا تريد الذهاب إليه لم يكـــن مكانا مختلفا، بل زمنا مختلفا. كانت حرة في أن تتمنى ذلك غير أنه لا يمكن له أن يتحقق.

لم تكن في الغالب تخرج، قال شانو: «لماذا يجب أن تخرجي؟ إذا خرجت، ســـيقول عشرة أشخاص: رأيناها تسير في الشارع. وســـوف أبدو أحمقا . أنا شـــخصيا لا أمانع إذا خرجت غير أن هؤلاء الناس جاهلون على هذا النحو. ماذا بوســـعك أن تفعليه؟» لم تقل أي شيء ردا على هذا.

«إلى جانب أنني أحضر لك كل شيء تحتاجين إليه من المحال. أي شـــيء تريدينه ليس عليك إلا أن تطلبي. لم تقل أي شيء ردا على ذلك».

«أنا لا أمنعك من عمل أي شـــيء. فقد أصبحت الآن غريبا. من حســـن حظك أنك تزوجت من رجــل متعلم. كان ذلك بمثابة ضربة حظ» واصلت مهامها الروتينية.

«وعلى أي حـــال، لو كنت في بنجلاديش مـــا كنت لتخرجي. بقدومك إلى هنا لن ينقصك أي شيء، اللهم إلا سعة الأفق ».

راحـــت تزيل الجلد الميت حـــول أصابعه. لم تجعل الشـــفرة تزل. كانت الأيام تمر بســـهولة أكثر مما فـــي بادئ الأمر. كانت مسألة صبر كما كانت تقول آما دائما. لقد انتظرت والآن راحت تمر بســـهولة أكثر. لو لم يكن الأمر مرتبطا بالقلق على حســـينة لاستطاعت أن تسمي نفسها هادئة «فقط انتظري وشاهدي، ذلك كل ما نســـتطيع فعله ». كم ســـمعت مرارا هذه الكلمات. عندما جاء الحصاد شـــحيحا، عندما مرضت أمها، عندما كانت تهدد الفيضانات، عندما اختفى آبا وظل بعيدا لأيام في فترة ما. بكت لأن الأمر استلزم البكاء. غير أنها كانت تتقبل الأمر. أيا كان. قال آبا» مثل ولية «وعندئذ ماتت وفي الموت اتضح أن الحياة لا يمكن التنبؤ بها ولا يمكن الســـيطرة عليها. وجدتها ممتاز منكفئة على أجولة الأرز في الشـــونة وقد نفذ رمح من صدرها. قالت ممتاز» لقد ســـقطت وكان الرمح هو الشيء الوحيد الذي أمسكها. كان الأمر يبدو... كان الأمر يبدو وكأنها مازالت تسقط». في الجنازة قالت ممتاز «أمك كانت ترتدي أجمل ســـاري عندها. أعتقد أن ذلك جميل، أليس كذلك؟»

بعد فترة الحـــداد. اتخـذ أبي زوجة لـــه. ظهـرت فجـأة من لا مـــكان وقال آبا «هذه أمك الجديدة» بعد أربعة أســـابيع وعلى

نحو مفاجئ أيضا اختفت. لم تُذكر مرة ثانية. قالت ممتاز «أمك كانت ترتدي أجمل ســاري عندها. كان أمرا غريبا، فلم يكن ثمة يوم خاص، في نهاية الأمر» لم تتحدث إلى آبا قط فيما بعد. ولم تر نازنين ذلك. كانت دائما تحتفظ بقطع اللحم المفضلة لنازنين وحسينة. كانت تقبلهما طيلة الوقت، رغم أنهما كانتا في الرابعة عشرة والحادية عشرة.

وكانت ممتاز تتحدث عن آما مرارا وتكرارا كأنه باستطاعتك أن تغير شــيئا ما بالكلام عنه «لا أعرف سبب وجود هذه الرماح في الشونة ومشرعة هكذا. بهذه الخطورة»

كانت حســينة تهــرب دائــما عـندما تخــــاف، أما نازنين بقيت وأصغت.

انتقلت راضية إلى مجمع روزميد السكني، أسفل سيدة الوشم بدورين. البقاء في العمارة نفسها لا يعد خروجا منها.

أثناء رحلتها القصيرة المتكررة من دار سيسولتر اكتسبت نازنين معارف. كانت تومئ للرجل المهتاج المرتدي صدرية وشورت والذي يفتح البـــاب فجأة كلما مرت به في الطرقـــة ذات الإضاءة غير الســـائغة. كانت تبتسم للبنات البنغال اللواتي يثرثرن عن الأولاد بصوت عال على الســـلم إلا أنهـــن يصمتن عند مرورها. عرفتها راضيـــة بزوجات بنغاليات أخريات في المجمع الســـكني. أحيانا كن يمررن عليها ويتناولن معها الشـــاي. كانت تستمتع بالصحبة إلا أنها في أغلب الوقت لم تذكر ذلك لشـــانو، لم تكن تنظر إلى شـــلة الشـــباب البنغال الذين يقفون في أسفل السلم، يمشطون شعرهم ويدخنون أو يتصايحون، أو يحدثون استهزاءات مفاجئة

حتى أن أصواتهم كانت تتقافز حول القشـــرة الخرسانية للمبنى وتهــوي فوقها مثل مفرقعات نارية. في مســـاءات الصيف كانوا يقفــون في الخارج بجــوار الصناديق المعدنيـــة الكبيرة ويلعبون بالمصاريـــع الحديدية حيث يجب أن تظـــل الصناديق بعيدا عن الرؤيـــة. يجعلونها تصلصل بتحريكها لأعلى وأســـفل أو يركلون عليها، ويبدو أنهم يجدون متعة في هذه الأنشـــطة البسيطة. لم تنظر نازنين إليهم مباشـــرة، غير أنهم كانـــوا يلتزمون الاحترام عندما تمر، منتحين جانبا، وملقين السلام.

كانت تســـتمتع بزيارة راضية أكثر من أي شيء آخر. فقد كان لـــدى راضية دائما حكايات ترويها. كانت محاكية. مهرجة كبيرة نافـــرة العظام ولم يكن بها ما يضـــر. كان تبدو مضحكة وتنظر إليـــك باعتبارك مضحكا أيضا، ولكنها كانـــت طيبة القلب. كان ذهنها ينصرف عن حســـينة عندما تذهب لزيـــارة راضية. آخر خطاب وصلها من حسينة كان من حوالي ستة شهور. كان قصيرا ومكتوبا في عجالة وليس بخط يدها الدقيق المعتاد.

أختـاه وصلني خطابك. الأمر يعنى لي الكثير جدا أن اعرف أنـك في حالة جيـدة والزوج أيضا. الحب ينمو بينكما أشـعر به وأنـك زوجة صالحة. ربما أنا زوجة ليسـت صالحـة ولكني هكذا أحـاول دائمـا. فقط إنه عسـير أحيانـا. الزوج يبلى بلاء حسـنا فـي عملـه لقد حصل بالفعل على ترقيـة. هو رجل طيب وصبور للغايـة. أحيانـا أضطـره لفقـد حلمـه دون أن أقصـد. إنـه يعود بسرعة للمنزل. وأنا استعد له الآن باركك الله، حسينة.

كتبت نازنين ثلاث مرات أخرى غير أنه لم يرد شيء.

قال شانو «إنه النظام البريدى، ربما لم تصلها خطاباتك هي أيضــا». كان هذا يشــرع في قلقها. كانت راضية بمثابة ســلوى جيدة «تعرفين الشــخص ذا مقدمة الشــعر المنتفخة التي تجيء على جانب هكذا» قامت راضية بنظرة كاسحة عبر جبهتها بيدها العظمية الكبيرة. إنه يتســكع على الســلم في مجمعك السكني، مــع أنه مفترض أن يكون بالجامعة «توقفت فجأة لتضرب طارق بخفة على مؤخرة رأسه بسبب شده لشعر أخته، ثم راحت تضرب شيفالي بسبب محاولتها مسك فنجان شايها. فر الطفلان يواسي كل منهما الآخر.

«أبوه رآه في حانة مع فتاة بيضاء. كان يذرع الشــارع وهناك كانا فــي النافذة، يشــربان وكل شــيء على مرأى تام. ســوف تتعرفــين على الولد في المــرة القادمة التي ترينــه فيها. إن له عينين سوداوين». قالت نازنين «هؤلاء الصبيان» ابتسمت راضية ثم نظرت إليها نظرة جانبية بعينيها الضيقتين. أحســت نازنين أن عنقها يتحرق. فالأولاد محتمل أن يكونوا في مثل ســنها ربما أصغر بسنة أو سنتين.

«حســن، إن ابن جورينا في ورطة. سمعت أنه يشرب الكحول يوميا حتى على الإفطار. فهو لا يســتطيع أن ينهض من السرير من دون أن يحظى بشــراب أولا. ثــم بعدها يصبح عديم النفع» هزت راضية كتفيها العريضتين العظميين.

«إن الأمر يجعلني أخشى على أطفالي»

«غير أن جورينا تخرج إلى العمل، وأنت تبقين في المنزل. على أي حال، طارق وشيفالى مهذبان ومازالا طفلين»

«حقا. لكنهما يكبران بسرعة شديدة. هل رأيت بنطلون طارق، لقد ارتفع عن كاحليه».

«جورينا عندها بنت أيضا، أعتقد؟»

قالت راضيـــة «آااه» لمعت عيناها. وضعت كاحلا فوق الآخر، كلا الساقين ملتصقتان وممددتان أمامها على الأرض.

راحت تسوي ثنايا ساريها. لم تكن الثنايا أبدا مضبوطة. فهي إما مضمومة جدا. أو فضفاضة جدا أو بعيدة جدا ناحية الجنب أو منخفضة جدا أو مرتفعة جدا. راضية كان شـــكلها أفضل في المريول. المريول يناسب حذاءها الكبير.

«لديها بالفعل ابنة لقد قابلتها. كانت هنا عندما جئت يوما ما. كانت ترتدي زيها المدرســـي - كنزة حمراء داكنة وتنورة رمادية. هل تتذكرين؟ لكنها لن تأتي بعد الآن. لقد أعادوها».

«لتتزوج؟»

«طبعا، لتتزوج وتعيش في القرية»

«أخرجوها من المدرسة؟»

«إنها في السادسة عشرة. راحت تستعطفهم أن يدعوها حتى تنهي امتحاناتها.»... هدأت راضيـــة، نقرت فردتي حذائها معا قالت بانتعاش «على أي حال. لقد فسد الأخ وأرادوا أن يحافظوا علـــى الفتاة. هكـــذا يرون الأمر. الآن لن تســـتطيع أن تهرب مع شخص تحبه» وضعت نازنين يدها على المسخن. كان مغلقا. رغم أن ثمة بـــوادر تلجيه على النافذة. كانـــت الحجرة تقريبا مربعة مثل حجـــرة الجلوس خاصتهـــا، بباب يؤدي إلـــى المدخل وآخر يؤدي إلى الحمام. نصف الحيز كان مشغولا بحاجيات الأطفال.

لعب بلاستيكية، مجموعات من الدمى الممزقة، دراجة صغيرة وصدئة. كرسي مرتفع مطوي على الحائط، كومتين مرتبتين من ملابس الأطفال. حشد من كرات القدم في حالات تفريغ متفاوتة، منضدة أطفال مغطاة بشخبطات ألوان الشمع. سرير مفرد منصوب أمام أحد الحوائط والأثاث الآخر مكدس معا تحت النافذة، حتى أن أذرع الكراسي والأريكة تلامس بعضها البعض. طارق ينام على السرير المفرد، أما شيفالي فكانت لاتزال تنام مع والديها. كان ثمة فراغ يتزايد.

كل ٣ أو ٥ أشخاص في غرفة واحدة، تلك إحصائية المجلس. أخبر شانو نازنين «الجميع مكدسون معا. ليس بوسعهم أن يكفوا عن إنجاب الأطفال أو أنهم يحضرون دائما كل أقاربهم ويرجعونهم فيما يشبه سمكة صغيرة في علبة سردين. إنها إحصائية رسمية لتورهامليتس ٣ أو ٥ بنغاليين في الغرفة الواحدة»

«انخفضت التدفئة فاتصل زوجي بالمجلس لكن لم يأت أحد» هزت راضية كتفيها وأشارت إلى المسخن ذي القطب المزدوج في الزاوية «هذا يفي بالغرض في الوقت الحالي».

«أختي تزوجت من حبيبها». نظرت نازنين إلى البخار المسامي على الزجاج قالت راضية، بينما نهضت على قدميها «انتظري. دعيني أتفقد الأطفال، أريد أن أسمع كل شيء. حينما أرجع يمكنك أن تبدأي من الأول». أخبرتها نازنين بكل شيء. عن حسينة ووجهها الذي له شكل القلب وشفتيها بلون القرنفل الرماني وعينيها الصافيتين. كيف أن كل شخص كان يحدق فيها، نساء ورجال وأطفال. وكيف أن النساء العجائز بدأن يقلن حتى

قبل أن تبلغ الحادية عشـــرة إن مثل هذا الجمال لا يمكن أن يكون له أغراض دنيوية سوى إثارة المشاكل. كانت آما تبكي وتقول إنه لم يكن خطأها. بدا أبي متجهما وقال إن ذلك صحيح بالتأكيد. حيث جعلهـــا تبكي بمرارة أكثر. وعلى أي حـــال، كان ذلك يمثل حقيقة مفادهـــا أن تكون جميلا، فهذا أمر يجلب الأذى، رغم أن أحدا لم يكن ليعتقد هذا. وكان من حســـن الحظ أن الزواج حالفه التوفيق «زوجها حصل على وظيفة درجة أولى بشركة السكة الحديد».

«هل من أطفال؟»

تـــرددت نازنين. ربمـــا كان هناك طفل. ذلك الســـبب في أن حسينة كانت مشغولة عن الكتابة. ربما أرسلت خطابا آخر يقول بأنها كانت تنتظر والخطاب ضل طريقة ومن ثم لم يتح لها وقت للكتابة من جديد. قالـــت «أجل، ذلك ممكن» وأرادت أن تضيف شيئا آخر، غير أنها لم تفعل.

لـــم تكن راضية تصغـــي في واقـــع الأمر. تنهـــدت «إن هذا رومانتيكي للغاية» شـــدت ظهرها، ثم تظاهرت أنها تنقب في كم سترتها المحبوكة وتمخطت. قالت «لكنني عندما كنت فتاة صغيرة» بينما راحت تشد من صوتها وتضخ الكلمات مثل سهام تخرج من قصبة نفخ، «لم يكن عندنا شـــيء من هذا الكلام الفارغ... تركت حـــي عائلتنا مع أمـــي. ركبنا في محفة. أربعـــة حمالين حملونا إلى منزل والد أمي. كانت رحلة ســـبع ساعات. لو تجرأ أحدهم على رفع الســـتارة واسترق نظرة، ذلك الرجل... صاحت راضية صيحة مخنوقة وحزت بإصبعها عبر حنجرتها ». ضحكت نازنين «مسكينة يا سيدة إسلام. لا يجب أن نقوم بالمزاح».

قالت راضية «مسكينة يا سيدة إسلام، لا شيء». وهي تربت على عينيها. منتهى الرومانتيكية. قامت لأن ابنتها كانت تنادي من حجرة النوم. «لكن شيفالي لن تتزوج عشيقها إلا على جثتي»

صلوات منتظمة، شغل بيت منتظم. زيارات منتظمة مع راضية. كانت توحي لبالها أن يهدأ. كانت تقول لقلبها ألا يدق بالخوف، لا يدق بالرغبة. أحيانا كانت تتحكم فيه، عندما كفت عن التفكير في أختها. إذا أرادت شيئا، كانت تطلبه من زوجها. غير أنها كانت مختلفة عنه، على هذا النحو:

«السرير لين جدا . هل يؤلم ظهرك؟»

«كلا».

«أليس لينا جدا بالنسبة إليك؟»

«كلا».

«حسن».

«إنني أقوم برسم تخطيطي».

«دعني أرى ما هذا».

«تخطيط للمنزل الذي سوف أشيده في دكا. ما رأيك فيه؟»

«ماذا عساي أن أقول؟ إنني مجرد فتاة قادمة من الريف ولا أعرف شيئا عن المنازل الكبيرة».

«هل تعتقدين أنه كبير جدا».

«أنا لا أعرف شيئا عن المنازل والأسرة».

«ما دخل السرير؟ هل هو لين جدا؟»

«لا يهم».

«ألا يمكنك أن تقولي لي شيئا؟»

«أنا لا أعبأ، يمكنني أن أنام على الأرض».

«ها أنت تصبحين سخيفة».

«سأعد فرشة. ذلك ما اعتادت عليه فتيات القرية. طبعا عندما يولد طفلنا سوف ينام على الأرض مع أمه».

«ماذا؟ هل أنت...؟»

«.........».

«أنت.........؟»

«أجل».

«لماذا لم تقولي؟»

«ها أنا أقول».

«هل الأمر مؤكد؟»

«ذهبت لاستشارة الدكتور آزاد. أخذتني السيدة إسلام».

«ها. ها حسن ها».

«سوف أضع الفرشة في حجرة الجلوس. لا يوجد مكان لها في حجرة النوم».

«هراء. عما تتحدثين. فرشة، سوف أحضر ملاءة جديدة وأملأها بالأحجار إذا شئت».

«حسن، لست في حاجة إلى أي شيء. إذا أردت إحضارها لا أمانع».

«حسم الأمر إذن. ما رأيك في بحيرة هنا - فقط سأرسمها بالداخل وضيف بنغالي في الساحة المحيطة».

لعق طرف قلمه الرصاص وراح يرسم «الآن يجب أن أحصل على الترقية. لا يمكنهم أن يظلوا يؤجلونها. سوف أخبرهم،

سوف أقول للسـيد دالواي. انظر هنا، إنني على وشك أن أرزق بطفل. إنني بصدد أن أصبح أبا. أعطني وظيفة مناسبة. مناسبة لرجـل حقيقي، أب، وإذا لم يفعل ذلك سـوف أخبره بأن يذهب إلى الجحيم».

بعد ذلك بأسـبوع وصل الخطاب... رفع قلبها عاليا ثم هوى به على صخرة. لم تحاول أن تهدئ نفسها.

أبيض

الفصل الثالث

أبيض

ناولتــه غداءه، بقايا كاري بين شــريحتي خبز أبيض فوضعه في حافظة أوراقه. أغلق سوســتة سترته ثم شد القلنسوة. كانت القلنســوة عميقة بكســوة فروية بيضاء، وجهه من الجانب غير مرئي، أما من الأمام مباشرة فكان يبدو مثل سلحفاة الكاشوجا. شــاهدته من النافذة، صدفة خضراء، رجلان سوداوان تعدوان خلال العزبة.

كانت ســيدة الوشــم لاتزال تلبس قميص نومهــا. من عقب ســيجارتها أشــعلت ســيجارة جديدة، محتفظة باللهب المقدس مشــتعلا. كانت بدينة مثــل رضيع. ذراعاها مكســوتان باللحم ويداهــا تبدوان صغيرتين للغاية. هذه المرأة كانت بدينة وفقيرة. بالنسبة إلى نازنين كان أمرا يصعب فهمه. ففي بنجلاديش، كونك فقيــرا وبدينا لم يكن أكثر احتمالا من كونك ثريا وجائعا. لوّحت نازنين. ثم ارتدت سترتها، أخذت مفاتيحها وغادرت الشقة.

سارت في الطرقة على مهلها وهي تنظر إلى الأبواب الأمامية. كانت جميعها بالشكل نفسه. الطلاء الأحمر المتقشر الذي يظهر شظايا الخشــب المتهرئ، لوحة الزجاج المستطيلة ذات الأسلاك المعشــقة مدلاة من الداخل. ثقوب المفاتيح ذات الإطار الذهبي، المصاريع السوداء المتجهمة. همت في السير. انفتح أحد الأبواب وبــرز رأس فجأة أمامهــا، كان أصلع أحمر بهيــاج غير مفهوم. أومــأت لكنه اليوم لم يتقبلها. مرت نازنين وعيناها محولتان إلى الحائط. وصلت إلى بئر الســلم وأســرعت. كان الضوء العلوي قويا فتســنى لها أن تشــعر بحرارته الواهنة، بمجرد أن تسللت برودة الخرســانة إلى قدميها، كان السلم تفوح منه رائحة البول.

لمت أطراف ســـاريها بإحدى يديها وراحت تنزل الدرجات اثنتين مرة واحدة حتى فقــدت الإفريز ووقعت على كاحلها فوق حرف صلب. أمسكت بالدرابزين ولم تقع لكنها تعلقت بالجانب هنيهة، ثــم واصلت النــزول، راحت تدوس بقوة كما لو أن الألم بســبب تشنج يزول بعد حين. ثمة قطع صغيرة من الضباب كانت تتحدى أعمــدة الإنارة. راحت عصبة من حمام تتحلق على العشــب في دوائر مضجرة مثل ســجناء في ســاحة تدريب. أسرعت امرأة حذوها وفــي ذراعيها طفل صغيــر. كان الطفل يصرخ ويرفس بقدميه. شــخللت المرأة بخشخيشــة بلاســتيك لتسكت بها فم ضحيتها.

ســحبت نازنين طرف ســاريها على شــعرها. عند الطريق الرئيســي نظرت في الاتجاهين، ثم سارت يســارا. ثمة رجلان كانــا يجران أثاثا من محل خــردة ليعرضاه على الرصيف. دخل أحدهما وعاد بكرســي بعجلات. شــد حوله سلســلة وأغلقها بقفل مع كرســي بذراعين كما لو كان إعداد ســباق لأثاث بثلاث أرجل. غيرت نازنين رأيها واســتدارت. ظلت تسير حتى وصلت إلى تقاطع الطريق الكبير وانتظرت عند الحاجز الحجري بينما كانت حركة المرور تزأر من أحد الاتجاهات ثم من الاتجاه الآخر. وضعت رجلها في الطريق مرتين ثم تراجعت ثانية. الوصول إلى الجانب الآخر من الطريق من دون أن تصدمك ســيارة كان مثل الســير في عباب رياح موسمية وتأمل أن تتفادى قطرات المطر. انفتــح أمامها فراغ. قالت نازنين «ربنــا كبير» راحت تعدو. دوى بــوق مثل مؤذن عجوز يصرخ في ألم، فاردا حباله الصوتية على

آخرها. توقفت فانحرفت السيارة. سيارة أخرى انزلقت مفرملة أمامها فبرز السائق وشرع يصيح.

جرت من جديد وتحولت من شـــارع جانبي، ثم انحرفت مرة ثانية إلى اليمين في شـــارع بريك لين. لقد جاءت هنا مع شـــانو عـــدة مرات. آخرها عندما كانت المطاعـــم تفوح منها رائحة أرز مطبوخ حديثا ولحم وشـــحم مقلي، والندلاء ببنطالاتهم السوداء الضيقة يقفون في المداخل، يقدمون قوائم الطعام ويبتســـمون. لكـــن الندلاء الآن فـــي المنزل نائمون أو مســـتيقظون. تقوم على خدمتهم زوجاتهم اللواتي يقمن فقط بالخدمة ولا يقوم أحد على خدمتهن في المقابل، اللهم إلا في الإقامة الكاملة ورعاية الأطفال الذين هم أيضا بطبيعة الحال يقام على خدمتهم. والشوارع كانت تعج بمملكات كاملة من النفايـــة التي ارتفعـت عاليا مثـل قـلاع بلا مناوشات ســـوى من العبوات البلاســـتيكية وأوراق الكرتون المبقعة للفصل بينها.

ثمة رجل كان يتطلع إلى بعض السقالات بملامح تصميم شبه متقدة كما لو أن حبيبته ربما كانت في الأعلى، كان مرتعشا على الألواح العالية أو الســـطح الإردوازي. اثنان من أطفال المدرسة، شـــاحبان كالأرز، مرتفعان كطواويس قطعا الطريق واندفعا في شارع جانبي يعدوان من الفرحة أو ربما من الرعب.

ولولا هذا لكان بريك لين خاليا. توقفت نازنين أمام أفيشـــات فيلم ملصقة في شكل أمواج على لوح جداري معدني. كان البطل والبطلـــة يحدقان بعضهما في بعض في جوع ملحمي. كان اللون القرمزي لشفتيها يحاكي المنديل المزركش المعصوب حول جبهته.

ثمة نثار من عرق كان يظهر حدود عضلات ذراعيه، بينما الكحل في عينيها جعلهما يحترقان من الهيام. ثمة قوة خفية أبقتهما على مبعدة (مجرد بوصات)، كانت الكتابة أسفل الملصق تقول: ليس في وسع العالم أن يمنع حبهما.

سارت نازنين حتى نهاية شارع بريك لين وانعطفت يمينا. بعد أربع وحدات سكنية عبرت الطريق (انتظرت بجانب امرأة وخطت معها مثل عجل مع أمه) وسلكت شارعا جانبيا. انعطفت أولا ناحية اليسار ثم سارت إلى اليمين. من هناك راحت تلتفت يمنة ويسرة حتى أدركت أنها كانت تترك لنفسها أثرا. عندئذ انحرفت بشكل عشوائي وبدأت في العدو. تمهلت هنيهة لتخفف عن كاحلها واعتقدت أنها دارت في دائرة، فالبنايات كانت تبدو مألوفة. أدركت أكثر مما رأت لأنها لم تهتم بالملاحظة. لكنها الآن تريثت وراحت تلتفت حولها. بينما كانت تمر تطلعت إلى إحدى البنايات. لقد شيدت تقريبا كلها بالزجاج وقليل من مسامير البرشام لتثبيتها معا. كان المدخل يشبه مروحة زجاجية تدور رويدا، تجتر الناس إلى الداخل وتدفع آخرين إلى الخارج. في الداخل وعلى منصة بارزة ثمة امرأة كانت تجلس خلف مكتب تعقد ساقيها النحيلتين وتفكهما. كانت تدس سماعة تلفون بين أذنها وكتفها وتعض على أظفرها. أمالت نازنين رأسها إلى الخلف ورأت أن الزجاج من فوق كان مظلما مثل بحيرة ليلية. كان المبنى ممتدا بلا نهاية. فوق في مكان ما كان يخترق السحاب. المبنى المقابل والمبنى المجاور عبارة عن قصور للهو مبنية بأحجار بيضاء. ثمة درجات تؤدي إلى المداخل وصفوف

فـــي المقدمة. الرجـــال ذوو الحلل القاتمة كانـــوا يهرولون بخفة صاعدين ونازلين الســـلم مثنى أو ثلاث. كانوا يصيحون بعضهم فـــي بعض ويومئون بكآبة. أحيانا يربت شـــخص بيده على كتف رفيقـــه، ورأت نازنـــين أن هذا لم يكن من دواعـــي الاطمئنان بل التشـــديد. كل شخص مر بجوارها على الرصيف. كل ظهر رأته كان في مهمة خاصة وحماسية. لتنفيذ خطة دقيقة وملحة: لنيل ترقية اليوم، للتواجد بالضبط في الوقت المحدد للموعد، لشراء جريدة بالعملة المطلوبة. لذا كان التبادل سريعا ومحكما. السير مـــن دون إهدار ثانية واحدة والوصول إلى جانب الطريق بمجرد أن تصبح الإشارة حمراء.

بينما كانت نازنين تعرج وتتعثر بدأت تنتبه إلى نفســـها. لقد كانت من دون معطـــف ومن دون حلة ومن دون وجه أبيض ومن دون وجهة. ســـرت رفة من خوف أو إثارة في ساقيها. بيد أنهم كانوا غير منتبهين لوجودها. شـــعرت بذلك في اللحظة التالية. لم يكن في وســـعهم أن يروها أكثر مما في وسعها هي أن ترى. كانوا يعرفون أنها موجودة (تماما كما تعرف هي أن الله موجود) ولكن إذا لم تقترف شيئا، تلوح بمسدس، تربك حركة المرور. ما كان لهم أن يروها. اســـتمتعت بتلك الفكرة. بدأت تدقق النظر. راحت تحملق في الوجوه المستطيلة النحيلة والذقون المستدقة. النســـاء لهن شعر غريب. كان يعلو ويهبط حول رؤوسهن منتفخا مثـــل غماء حية. كن يضغطن شـــفاههن بعضها إلى بعض بينما يضيقن عيونهن كأنهن غاضبات من شـــيء سمعنه أو من الريح التي أفســـدت شـــعورهن. توقفت امرأة ترتـــدي معطفا أحمر

طويـــلا وتناولت نوتة من حقيبتها. حذاؤهـــا الأبيض اللامع له إبزيمات كبيرة مذهبة. ملابسها أنيقة بلون واحد. كانت بمنزلة درع وأصابعها المزودة بالخواتم أســـلحة. شدت نازنين سترتها. كانت بردانة. أطراف أصابعها يلسعها البرد. تطلعت المرأة ورأت نازنين تحملق. ابتسمت كأنها كانت تبتسم لشخص حاول وأخفق تماما في اســـتيعاب حقيقة ما يجري. أســـرعت نازنين وهي لم تعـــد غير مرئيـــة وكانت تنظر إلى ما يجـــب أن تراه فقط حتى يتسنى لها أن تسير من دون أن تقع أو تتصادم. عرض على بالها أنها قارنت نفســـها بالله من دون قصد. هـــذه الفكرة أزعجتها كثيـــرا حتى أن الدموع انبجســـت من عينيهـــا وارتطمت برجل كانت حافظة أوراقه تتأرجح أمام ركبتها مثل مضرب. قرأت في رأسها سورتها التي تحبها.

«والضحى والليل إذا ســـجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خيـــر لك من الأولى ولســـوف يعطيك ربـــك فترضى ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى».

بيد أن الألم في ركبتها ويديها وكاحلها شتت الآيات.

«أقري بألوهية ربك، أقري بألوهية ربك».

ثمة رقعة من الخضرة محاطة بســـياج أســـود وفي الوســـط مقعدان من خشـــب. في هذه المدينة قليل من العشب يعتبر شيئا جديرا بالحراســـة وجديرا بأن تلفه بسور كما لو أن هناك حفنة من زمرد منثورة بين الحشـــائش. وجدت نازنين البوابة وجلست وحدها على مقعد. زوجة مهراجا في حديقتها المســـيجة. أطلت الشمس من خلف سحابة داكنة ولمعت هنيهة في ناظريها قبل أن

تختفـــي من جديد تحت دثارها وقـــد خاب أملها بما رأته. كانت بردانـــة ومتعبة وتعاني من الألم وكانت جائعة وتائهة. لقد توهت نفســـها لأن حســـينة قد تاهت. والآن فقط هل أدركت كم كانت حمقاء. كانت حســـينة في دكا. امرأة وحدها في المدينة من دون زوج أو أســـرة أو أصدقاء ومن دون حماية. كتبت حسينة خطابا قبل أن ترحل:

أختاه لا أعرف ماذا أقول وهذا سبب عدم إرسال خطابات قبل ذلك. الآن لدي أخبار. في الصباح بمجرد أن يخرج زوجي للعمل أسـافر إلى دكا. المالكة السـيدة كاشم هي الشخص الوحيد الذي يعـرف بهـذا الأمر. تقول إنه ليس قرارا حكيما غير أنها تسـاعد علـى أي حال. فهي تقول يفضل أن تضـرب المرأة من زوجها، عن الضـرب مـن غريـب. لكن هـؤلاء الغربـاء لا يقولون فـي الوقت ذاتـه هم يحبونني. إذا قامـوا بالضرب فهم يقومون به على نحو مستحق.

السـيدة كاشـم لديها عـم في دكا وأخو زوجة هـذا العم يؤجر أمـلاكا. ادخـر مـن العنايـة بالمنـازل، تتذكريـن آما دائمـا تقول حفنـة مـن الأرز كل يوم. إنني تمكنت من ذلك وأكثر من ذلك هل تعتقدين أن آما تدخر، لماذا لم تكن آما تدخر؟

كل مسـاء أصعـد إلى السـطح. هنـاك امرأة متسـولة تربض في ركن بالشـارع. الجسـد ينصفق. إذا جلسـت لا يمكنها النظر سوى إلى الأرض. إنها مثل وحش كبير يرتكز على ظهره. عندما تريد النظر إلى أعلى تتدحرج على جنبها. تسير إلى الأمام وهي تجرجر نفسها مستخدمة اليدين كمجداف. عندما يدخل الليل

يأتي رجل يضعها على عربة يد ويأخذها إلى مكان ما.

تجيء في مرة ولا تريد أن تذهب. شرعت تتزحزح للوراء مبتعدة وتصيح طفقت بعيدة جدا عند بائع جوز الهند في الركن الآخر.

أحب أن أشهد هذه المرأة. فهي لديها شجاعة. عندما يصبح لي عنوان سأكتب مرة ثانية.

ثمة شاب طويل يشبه رجلا بطوالة خشبية بمشيته نفسها بالأرجل الجاسئة، جاء وجلس على المقعد المقابل. وضع خوذة دراجته البخارية على الأرض. أتى على ساندويتش في أربع قضمات كبيرة. في سترته شيء ما يئز مثل مذياع. تحدث فيه وبدا أنه يرد عليه. لبس خوذته ومضى. احتاجت نازنين إلى حمام. فالجنين يجعلها تتبول نحو تسع أو عشر مرات في النهار ومرتين أو ثلاثا ليلا. كان الوقت بعد الظهر وطوال الصباح لم تفكر مرة واحدة في الحمام.

كانت ستضطر إلى التبول على الحشائش مثل كلب، أو تفعلها على نفسها وتعود إلى البيت بملابس مبللة. ولكن كيف ستعود؟

هذه هي المشكلة في كونك تائها. هي مثل حسينة لا يمكنها ببساطة أن تعود للبيت. باتت الاثنتان تائهتين في مدن لم تكن لتتردد حتى في هز كتفيها. مسكينة يا حسينة. بكت نازنين ولكن بمجرد أن انبجست الدموع أدركت أنها تبكي بسبب حماقتها أكثر مما هو بسبب أختها. ما الذي اضطرها إلى ذرع كل هذه الشوارع؟ أي يد كانت تدفعها في ظهرها؟ لا يمكن أن يعين حسينة كون نازنين تائهة. ولا يمكن أن يعطي حسينة أي فكرة

عما تعانيه نازنين. كانت تشاهد رؤوسا من فوق السياج. الأناس الذين ينظرون إلى الداخل يشيحون برؤوسهم مرة ثانية. ليس ببطء ولا بسرعة. ولكن من دون اكتراث أو عزم.

كانت راضية دائما تقول «إذا خرجت لتتسوقي اذهبي إلى محلاتساينسبري. فالبريطانيون لا ينظرون إليك مرتين. ولكن إذا ذهبت إلى محلاتنا سوف يضع الرجال البنغاليون الأشياء نصب عينيك. تعرفين كيف يتحدثون. وفي إحدى المرات سوف يتحدثون عنك. هذه هي الحال. ليس بوسعك أن تفعلي شيئا».

سوف يتحدث الناس عن حسينة.

فرض الجنين سيطرته على مثانتها. لم يكن الجنين أكبر من ثمرة ليتشي غير أنه كان مسؤولا عن كل أعضائها الداخلية. وعلى وجه الخصوص مثانتها. قامت نازنين وبدأت تسير من جديد. كانت الشمس قد اختفت في مكان ما. لم تعد تبزغ من وقت إلى آخر من وراء السحاب. اندفعت السحب عند البنايات في هياج فتاك كأنها سوف تخنقها. وقفت البنايات مكانها بلا حراك وسلبية كأنها بقرات وفي الثواني الأخيرة استحالت إلى قطع صغيرة.

تساءلت نازنين إذا كان شانو يعمل في بناية تشبه هذه البنايات. تخيلته في مكتب زجاجي، محاطا بأكوام من الورق ويتحدث بصوت جهوري إلى زملائه الذين يجيئون مسرعين ويروحون مسرعين ويواصلون مهماتهم بينما هو يتحدث ويتحدث. كان وقت الغداء، والشوارع مزدحمة. الناس يحملون أكياسا ورقية بيضاء تبرز منها ساندويتشات. البعض كان يأكل وهو يمشي

ليوفر الوقت. احتمال أن ترى شانو، فربما كان يعمل هنا تحديدا، في هذا المبنى أو ذاك. كانت هذه بنايات لها شـأن. فهي فخورة بمـا هي عليه. يمكـن أن تكون بنايات خاصـة بالحكومة. ربما كان شـانو يسير باتجاهها الآن. يمكن أن يكون خلفها. استدارت واصطدمت بشخص يحمل كوب بلاستيك به شاي ساخن اندلق على ذراعها. استدارت عائدة وسارت مسرعة، تدوس بقوة على كاحلها الأيسـر الملتوي لكي تصرف الانتباه عن الألم في ذراعها ولكي تعاقب نفسها لكونها بهذا القدر من الحماقة.

شـخص ما ربت على كتفها. فوثبت مثل كلب يفر من لسـعة حية. اسـتدار واثبا أمامهـا، رجل ذو وجه بنـي يرتدي معطفا وربطـة عنق داكنين، بمنديل ورقي مطوي على هيئة وردة غريبة في جيبه العلوي ونظارة بعدسات غليظة مثل الكوارتز. قال شيئا ما. عرفت نازنين اللغة الهندية لما سـمعتها، غير أنه لم يكن في وسعها أن تفهمها. أعاد الكرة باللغة الأردية. كانت نازنين تتحدث قليـلا من الأردية غيـر أن لهجة الرجل كانت قويـة للغاية فلم تتمكن من فهمه هذه المرة أيضا. هزت رأسها فراح يتحدث هذه المرة بالإنجليزية. بدت عيناه هائلتين من خلف العدسات كأنهما انتزعتا من مخلوق آخر أكبر بكثير.

هزت رأسـها من جديـد وقالت «آسـفة» وأومـأ برزانة ثم انصـرف. بدأت السـماء تمطر. عندئذ وعلـى الرغم من نزول المطـر وهبوب الريـاح التي راحت تضرب به فـي وجهها وعلى الرغـم من الألم في كاحلها وذراعيهـا ومثانتها وعلى الرغم من حقيقة أنها كانت تائهة وبردانة وحمقاء، بدأ يداخلها شـيء من

السرور. فلقد تحدثت بالإنجليزية إلى شخص غريب وحدث أن فهمها وامتن لها. كان ذلك قليلا للغاية غير أنه يمثل شـيئا ما. عادت إلى البيت قبل زوجها بثلث سـاعة، غسلت الأرز وجهزته للطبـخ، وراحت تنقي ملء كوب عدس من الحصوات التي يمكن أن تهشم أسنانك، ثم وضعته في غلاية مع الماء ولكن من دون ملح ووضعت الغلاية على الموقـد. خلعت حذاءها وتفقدت قروحها. ارتدت ملابس داخلية جديدة وساريا. وغسلت الساري المبلل من المطـر بالصابون. عندما عصرته تركته فـي الحمام مثل ثعبان قرمزي كبير نائم.

كانت تزيل الرغوة البنية مـن العدس عندما دخل. قال «كما تريـن» كأن المحادثة لم يفـت عليها نهار كامـل، «هناك القليل أسـتطيع أن أفعله على أي حال. إن ما فعلته أختك لا يمكن أن أفعله أو يفعله شخص آخر. إذا قررت أختك الرجوع إليه، فذلك ما سـتفعله. وإذا قـررت البقاء في دكا فليكن ذلك. ما سـوف يحدث سوف يحدث».

مالت إلى الخزانة. كانت قلنسـوته لاتزال فوق رأسـه بينما يلبس قفازات. طوى ذراعيه فاستقرتا على بطنه.

كان في وسـعها أن تسـمعه يتنفس، وبعد ذلـك بدأ يدندن. كانت نغمـة خاصة بأغنية أطفال. أغنية سـخيفة عن الذهاب إلى منزل العم طلبا للأرز واللبن والإصابة بخيبة الرجاء. كل ذرة على سـطح جسمها كانت يوخزها شيء أكثر من الاشمئزاز. هو الشعور نفسه الذي انتابها عندما كانت تسبح في البحيرة وتخرج بطفيلي عالق بساقها أو بطنها.

قالت «هل آخذ معطفك؟ هل تحب أن تذهب وتجلس؟»

قـــال «أوه. المعطف» وواصـــل الدندنة... «عندمـــا يولد ابني سوف أعلمه بعض الأغاني. هل تعرفين أن الطفل في استطاعته أن يسمع حتى وهو في رحم أمه؟ إذا غنيت له الآن لتسنى له أن يتعرف على النغمات عندما يولد».

جثـــا على ركبتيه ولف ذراعه حول خصر نازنين وشـــرع يغني لبطنها. كانت تمسك بمغرفة مملوءة بماء مغلي مزبد فوق رأسه. صبتها بعناية بالغة في سلطانية.

«يمكنك أن تذهب هناك» انفجرت الكلمات ســـريعة وساخنة كالغليان.

«أين؟» أنزل قلنسوته وغمز لها.

«أين؟ إلى دكا. يمكنك أن تعثر عليها».

نهض على قدميه وتنحنح. قلب العدس في شرود ورفع الغطاء عن الأرز فانطلق البخار، لذا لن يكون مطهوا كما ينبغي.

قال «حســـن. حقا يمكنني أن أذهب. يمكنني أن أذهب وألف وأدور في الشـــوارع وأســـأل عنها. هل رأيتم أخت زوجتي؟ إنها هربت فقط من زوجها. وأرسلت لنا هذا العنوان: دكا، إنني على يقين أن الأمر لن يستغرق طويلا حتى أعثر عليها. ربما عمرا أو عمرين. وعلى أي حال ليس أمامي سوى أشياء قليلة للغاية أفعلها هنا. ليس لدي سوى درجة علمية أكملها وترقية أحظى بها وابن قادم في الطريق. هل أحزم حقيبتي؟ ربما قمت بتجهيز حقيبة. يجـــب أن أذهب إلى دكا وأنتزعها من الشـــوارع فورا وأعود بها لتعيش معنا. يمكنني أن ألتقط في الطريق بقية عائلتك ويمكننا

أن نقيم هنا جوريبور صغيرة. هل هذا ما تفكرين فيه؟»

كل شـــيء ممكن. أرادت أن تصرخ. هل تعرف ما فعلته اليوم؟ دخلت حانة لكي أســتعمل الحمام. هل تعتقد أنه بوسعي القيام بذلك؟ مشيت ميلا وراء ميل ربما حول لندن برمتها، على الرغم من أنني لم أر نهايتها. وحتى تتســنى لي العودة من جديد ذهبت إلى مطعم. وجدت مطعما بنغاليا. وسألت عن الاتجاهات. أرأيت ما أستطيع أن أفعله!

قالت «الأمر يرجع إليك. كنت أقترح فقط» خلع شانو معطفه. بــدأ يضغط بيده على وجهه ونظر إلى قفازاته وخلع هذه أيضا. أنت قلقة. دعيني أقل لك شــيئا ما. أحيانا لا يكون لنا سوى أن ننتظر ونرى. أحيانا يصبح هذا غاية ما نستطيع أن نفعله».

«سمعت ذلك. أعرف ذلك». وضعت قليلا من الملح في الأكل، أصبحــت الحبيبات لينة بما يكفي لهرســها. قلبت فيها الفلفل والكمون والكركم وشــرائح الزنجبيل. أصبــح الخليط الذهبي غليظا مشــبعا بالفقاقيع. ذاقت نازنين الخليــط بطرف ملعقة فألهبت لسانها، غير أن قلبها هو الذي كان ملتهبا بالتمرد.

أســقطت نازنين الترقية من دعواتها. فـــي اليوم التالي خرطت قرنين مــن الفلفل الأحمر الحار ودســتهما مثل قنابــل يدوية في ســاندويتش شانو. لم تقم بغسل الجوارب التي تجمعت مثنى مثنى وأعادتها إلى درجه. زلت الشفرة عندما كانت تزيل الأجزاء المتصلبة في قدمه. اختلطت ملفاته عندما كانت ترتب المنزل. أعمالها اليومية والفلاحــون في مملكته الأميريــة كل راح يثور تباعــا. عصيانات مسلحة بسيطة عقدت العزم على تدمير الدولة من داخلها.

اصطحبتها السيدة إسلام لزيارة الدكتور أزاد. غرفة الانتظار كريهة الرائحة كأنها ترشح المرض من أجساد المرضى. ثمة عجوز بأنف ذي بثور كان يجلس في الزاوية بينما يتجرع في أسى من كأس بها شيء ما. أسرة كبيرة من الأفارقة بلون حصوات النهر المنداة وبأعناق طويلة وجميلة وعيون منحدرة، تناثروا كمروحة على المقاعد الأمامية. كان الأطفال يجلسون على أيديهم ويهمسون بعضهم إلى بعض. البالغون منهم التزموا الصمت. وجوههم لم تكن تعبر عن شيء سوى القدرة على الانتظار. فالانتظار كان مهنتهم. مصمصت السيدة إسلام شفتيها. زحزحت قدميها تحت كرسيها وحكت كعبها الأيمن بمقدمة شبشبها الأيسر. من حقيبتها الكبيرة السوداء (تشبه حقيبة طبيب غير أنها تفوح برائحة النعناع، كما أن الإبزيم مزين بزجاج لامع) أخرجت عبوة بلاستيك من مناديل الورق. قالت «تفضل أيها الطفل. خذها إنها لك».

قالت نازنين «جميل جدا. لطيف للغاية».

أصدرت السيدة إسلام صوتا كالشخير «شخص ما أعطاني إياها. المناديل التي أستعملها على جودة عالية. إذا كانت هذه تروق لك سوف أجلب لك المزيد».

اعترضت نازنين «كلا، لا تجلبي المزيد».

رفت يدها لتتفادى الاستنكار. «أعطها لزوجك». كان الثقب على جانب أنفها محاطا بثلاث شعرات قصيرة غلظت بفعل النتف. كيف تسير الأمور مع زوجك؟ «نظرت نازنين بعيدا» هو بخير. بغض النظر عن الأجزاء المتصلبة في قدمه واضطراب بسيط في المعدة أحيانا»

لمحت بطرف عينها رفيقتها وهي تهز رأسها وتزم شفتيها. ثمة فترة صمت. في نهاية الأمر قالت السيدة إسلام. «لست في حاجة إلى أن تخبريني فأنا اعتدت على معرفة هذه الأشياء».

حدقت نازنين في اللوحة المعلقة على الحائط ومكتوب عليها بخمس لغات «جميع الشباب الذين يأتون لي. كل شخص يعلم أن ما يقوله لي يظل طي الكتمان ولكن إذا لم ترغب في التحدث فأنا لا أرغب في الاستماع». اللوحة الثانية تقول «ممنوع التدخين، ممنوع الأكل، ممنوع الشرب». فكرت نازنين أن الإشارات جميعها تخبرك فقط بما لا يجب عليك أن تفعله.

«سأقول لك شيئا بدلا من ذلك». أخذت السيدة إسلام معصم نازنين. كانت يدها ساخنة جافة. الجلد هش كأنه على وشك أن يذوب في الماء.

«لما كنت فتاة. كان أقرب بئر للقرية على مسيرة ميلين. كانت هناك بئر في القرية غير أن ماءها فسد بسبب لعنة، وماء البحيرة أصبح بدوره مسمما. ميلان شاقان في الذهاب وميلان أشق في الإياب، والنساء طفح كيلهن فلقد كن يقمن بجلب الماء وحمله. وعندما شكون إلى أزواجهن ماذا كانت النتيجة. لم تكن هناك نتيجة لأنه لم يكن هناك محرك للرجال فهم لا يعانون من شيء. فلماذا ينبغي عليهم أن يستجيبوا؟ وهنا اجتمع نساء القرية ليناقشن الأمر.

بادئ ذي بدء تقاسمن شكواهن. ثم راحت كل واحدة تتعاطف مع الأخرى. بعد ذلك وبخن رجالهن.

في إحدى المرات التي حدثت فيها هذه الأمور انتقلن ليقررن ماذا يستوجب عليهن فعله.

قالت امرأة، أعتقد أنها كانت ربا، خياطة «أخواتي واضح أن المفروض علينا أن نجعل الرجال يعانون من أجل أن يشرعوا في مساعدتنا وحفر بئر جديدة. كل ما يجب علينا فعله أن نتخلى عن مهمتنا. سنقوم بعمل إضراب. إذا أرادوا الماء فليحضروه لأنفسهم». لاقى هذا الاقتراح بعض الاستحسان وجرت مناقشته فظهرت من ناحية أخرى الثغرات. هل يمكن أن يكون الرجال محل ثقة في إحضار ما يكفي من الماء لأسرهم؟ هل يمكن للنساء ألا يحضرن سوى حصتهن من الماء وألا يقتسمنها مع الرجال؟ هل سيكون الأطفال هم الأفراد الذين عليهم أن يعانوا أكثر؟ هل سيرى الرجال دافعا ويبدأون في الحفر، أم سيلجأون إلى العنف؟ كان هذا إلى أن تحدثت شيناز. كانت شيناز تجلس خارج الحلقة. حتى هذه اللحظة كانت صامتة. بعد زواجها انتقلت شيناز إلى المدينة غير أن زوجها هجرها هناك. ثم أصبحت فتاة «جاترا» ، فتاة راقصة. ولما رجعت إلى القرية كان يجب عليها أن تكافح للعيش عن طريق بيع الشيء الوحيد الذي كان عليها أن تبيعه. من أجل ذلك كانت تجلس خارج الحلقة. على أي حال قالت شيناز: ثمة نوع آخر من المهام نؤديه ولو تخلينا عنه لن يمثل مشقة إلا للرجال، استدار الجميع لينظرن إليها على الرغم من أنه لم يكن في وسعها أن تنظر إلا للأرض. فقد كانت مصرة على مواصلة وجهة نظرها. الرجل لا يستطيع أن يعيش من دون ماء. غير أنه يمكن أن يتحمل فكرة عدم وجود

ماء. الرجل يستطيع أن يعيش من دون جنس. يستطيع أن يعيش من دونه غير أنه لا يمكن أن يتحمل فكرة عدم وجود جنس. هذا هو اقتراحي. وكانت هذه هي الطريقة التي اســتطاع بها النساء في قريتي الحصول لأنفسهن على بئر جديدة. لو فكرت أنك بلا حيلة فأنت كذلك. كل شـــيء موجود بداخلك حيث أحله الله. إذا لم يفعــل زوجك ما هو مطلوب منه فكري فيما نســيت أنت أن تفعليه.

أطلقت الســيدة إســلام معصم نازنين. تناولت منديلا ورقيا ونشفت فمها كما لو كانت تخلي الطريق للحكاية التالية. عيناها كانتا قويتين وصغيرتين مثل عيني طائر، شــعرها الأبيض يبدو أنه ســيتقصف تحت وطأة مشــط. على وجهها ارتسمت ملامح العظمة والضجــر والمعرفة التي مهما حدث ســوف تصبح هي التي تتولى الإشــراف عليها. نادت موظفة الاستقبال التي دست ســيجارة خلف أذنها على اسم نازنين «مدام أحمد » وهي تتكئ على الطاولة؟

قامــت نازنــين غير أنها تــرددت فلم تكن متأكــدة إذا كانت ستدخل بمفردها أم بصحبة رفيقتها.

قالت السيدة إسلام «اذهبي! اذهبي» وراحت تحدق في نهدي الموظفة التي ردتهما على الفور.

كان الدكتــور أزاد يجلــس وقدمــاه جنبا إلى جنــب، ركبتاه مضمومتــان إحداهما إلى الأخرى. وعلى الرغم من أن كرســيه كبير وذو حشو جيد فإنه لم يستند إليه وأبقى ظهره منتصبا، لذا كان يبدو كدمية بمفاصل موضوعة على نحو ثابت في مقعد.

كان يجلس أمام مكتبه في شكل زاوية قائمة، مواجها نازنين. على المكتب دفتر مسطر وقلم وملف صغير أصفر وصف من مجسمات. تعرفت نازنين على العواصف الثلجية في زيارتها الأولى للدكتور أزاد. كانت مدهشة تلك المدن النائمة تحت الماء. عندما تهزها ترب بانفجار أبيض. عندها يمكنك أن تتخيل الحياة بداخلها. يقول الدكتور أزاد إنها أشياء خاصة بالأطفال. لكنه لم يفسر سبب وجودها على مكتبه.

- أي اضطرابات، أي ألم، أي فقدان للدم؟

قالت نازنين «كلا. كل شيء تمام».

- شهيتك جيدة؟

«نعم»

- إذن أتوقع أن الأمور ستسير في انتظام وسوف تحظين بطفل موفور الصحة ولسوف يعتني بك في شيخوختك.

ابتسم الدكتور. كانت ابتسامته أكثر ابتسامة لها خصوصية. ترتفع ذقنه وينزل طرفي ذقنه. وعلى الرغم من ذلك تظل ابتسامة. يمكنك القول من خلال الطريقة التي كان يرتفع بها حاجباه إنه كان يقصد نوعا ما من المرح.

«كل ما يجب عليّ فعله الآن أن أقيس لك الضغط. وأحدد لك موعدا بالمستشفى. هل عندك أي استفسارات؟»

كان صوته هادئا، الكلمات تتفتح كأزهار على شفتيه ومع ذلك كانت له سلطة. شانو يتحدث بصوت مرتفع. يزن كلماته كالذهب ويلقيها حوله كالمجنون.

قالــت شــيئا واحدا زوجــي يــود أن تزورنا مــرة ثانية على الغداء.

أخرج الدكتور أزاد رباط ضغط أســود من الدرج وتوجه إلى نازنين ليشمر كمها. راقبت وجهه، محاولة قراءة إجابته. لاحظت أن أنفه ارتفع، دليل على الضعف لدى الرجل، وفقما كانت تقول آما. لم يبد الدكتور ضعيفا. شعره كان يشبه خوذة لامعة، حليقا ومســوى من المقدمة ومطبوعا بدائرة ضوء مــن المصباح الذي فوق رأســه. البشــرة حول عينيه بدت منتفخة ورمادية والعينان نفســهما ليســتا ثاقبتين ولا آمرتــين. غير أن فمــه كان حازما ووضعه منتصبا. كان يتمالك نفسه كرجل يعلم مكانته في العالم ويعلم أن العالم بدوره على علم بها.

«الضغط على ما يرام. حســن. حســن». أعاد رباط الضغط والأنبوب الصغير مع مضخة الهواء إلى الدرج.

قــال «نعم أوافــق على الرحب. ثمة حــوار علينا أن نواصله، أنا وزوجك. لقد قاطعنا المرضى كثيرا بطريقة ســخيفة. كما أن عنــدي بعض الكتب يجب أن أعيدها. هناك واحد مازلت أقرأه. إنــه معي في حقيبتــي. هل تعتقدين أنه مســموح لي أن أؤخره قليلا؟»

لم تعرف نازنين بأمر الحوارات المقطوعة والكتب المســتعارة. كان ظهرها يؤلمها. حتى الاضطجاع مستوية على الفراش الناشف الجديــد لم يكن مريحا. كانــت تحتاج إلى أن تتبول وعندها كان يعتريهــا حرقان. في بقية الوقت يدفعها للحك. ولكن ماذا يمكن أن يقال عن هذا للدكتور أزاد؟ كل شيء تمام؟ لقد أخبرته بذلك.

يمكنها أن تذكر الظهر ولكن أي شيء آخر يمكن أن تذكره امرأة حامل إذا لم تكن هناك آلام في الظهر؟

«أجـل لقــد جـاء لزيــارتي مـرة أو مـرتين». ســكت برهة. «كلا ثــلاث أو أربــع. لقد تذوقت كبابك اللذيذ. ووقعت لشــانو عريضة التماسه. لقد اســتعرت كتبا وانهمكت في نقاش أدبي. هذه تعد أشــياء جميلة. ولكن كل شيء في مكانه المناسب يجب أن أقوم، دعيني أقوم بزيارة منزلية».

عريضة التمــاس؟ أي عريضة التماس تلك؟ لم تر نازنين أي عريضة التماس. عادت إلى الســيدة إســلام التــي كانت غافية في كرســيها ورأســها يميل إلى الوراء. لذا كانت تبدو مستغرقة في النوم باســتثناء حقيقة أن عينيهــا مفتوحتان. فكرت نازنين أنهــا ربما كانت تنام وعيناها مفتوحتان. بهذه الطريقة لا يفوتها شــاردة ولا واردة وتعرف كل شــيء. مع ذلك لابد أن راضية هي التي حدثتها عن شانو وحسينة ومشاكلها. ابتسمت قليلا عندما تصورت راضية وهي تثني ســاقيها الطويلتين وتفيض بالنميمة من شدقي فمها الذي بحجم فم رجل.

كانت جاثية على ركبتيها ويداها مبســوطتان على السجادة. صلاة الظهر. كل شــيء لابد أن يظل صافيا الآن. كل الشــكوى، كل أنواع القلق والقوائم التي شكلت حياتها يجب أن تنحى جانبا. يمكنها أن تكون شــاكرة. باستطاعتها أن تنشط جسدها وعقلها بالشكر. لا ينبغي أن يكون هناك مجال لأفكار أخرى على الرغم من اســتطاعتها أن تفكر في اللــه وكلمات الصلاة، العظمة لله. الأعلــى، الله أعظم من كل شــيء، وتتذكر الطفل أيضا لأن الله

لا يريدها أن تنسى ذلك. أيضا حسينة لأنها كانت ممتنة لأمانها وللخطاب الذي وصل بسلام. لم يكن في وسعها أن تنسى الطفل لأنه كان يتدافع في بطنها، باحثا عن موطئ قدم. بالضبط تحت ضلوعها.

لم تستطع أن تخفض جبهتها على السجادة. كان غير ممكن. ثمة نظام ديني معين للمرأة الحامل. إذا أحبت لأمكنها أن تقوم بالصلاة من كرسيها. لقد جربتها مرة غير أنها أصابتها بالكسل.

لكن من الجميل أن الأئمة فكروا في ذلك. كان هذا يمثل عطف وشفقة الإسلام على النساء. مع العلم لو أن أحدا من الأئمة حمل مرة هل كانوا جعلوا الجلوس غير إلزامي، وهكذا لم يستطع أن يشعر أحدهم بأنه يؤدي للكسل. كيف حدث لي أن أصبح بهذا الحمق، فكرت نازنين. ما الذي أصاب عقلي حتى أشرع في الكلام عن الأئمة الحوامل؟ في بعض الأحيان لا يبدو أنه ينتمي لي، فأحيانا يتجرد ويضع إبهامه على أنفه تهكما مثل جوكر حقيقي. كانت نصف منزعجة ونصف مرتاحة عند سماعها طرق راضية وهي تنادي عليها «أختاه إنه أنا فقط. لقد أحضرت لك دواء».

كانت راضية ترتدي قبعة صوفية تغوص لتغطي أذنيها. مضبوطة في خط واحد مع حاجبيها. على السلوار كاميز[١٧] كانت تلبس كنزة فضفاضة بحياكة في مقدمتها حيوان ما (غزال؟ عنزة؟) حذاؤها ضخم مثل شاحنة مضروبة بعدد لا يحصى من التصادمات. أبقت القبعة على رأسها ونازنين كانت دائما على شفا توضيح هذا.

---

(١٧) سلوار كاميز: بنطلون يرتديه النساء في الهند ـ المترجم.

«ذوّبي الأكياس في الماء وخذي منها مرتين في اليوم. سوف يعالج مشكلتك. لن يعود هناك حرقان».

قالت نازنين «سأفعل ذلك، عندي شيء يجب أن أطلعك عليه».

كان الخطاب هذه المرة طويلا، مزودا بعنوان. تحدثت حسينة عن المالك السيد شودري، وعن وظيفة بصدد أن يجدها لها في مصنع ملابس. وعن مؤسسة الآيس كريم في نهاية الطريق. كانت تبدو مغرمة وخصوصا بنكهة الفستق والملاعق البلاستيك. يظهر أنها لم يكن عندها أدنى فكرة عن الخطر المحدق بها (وكان يحدق بها الخطر، فتاة شابة جميلة. وحدها في دكا)، غير أن نازنين أملت أن يأخذ السيد شودهري باله منها.

قال شانو إن السيد شودهري سيكون مسؤولا. فأي رجل صاحب أملاك سيكون محترما وستكون في حمايته.

قالت راضية «أنا سعيدة لأجلك وأظن أن زوجك سعيد أيضا».

«لم يكن يريد أن يفعل شيئا والآن لم يعد عليه أن يفعل شيئا».

«الرجال يحبون أن يظهروا أنهم كانوا على حق. يجب أن نخرج عن مسارنا لنريهم إلى أي مدى هم على حق. إن زوجي من العينة نفسها».

«لما قرأ الخطاب قال «ماذا قلت لك، أحيانا لابد أن نجلس وننتظر».

«هل مط شـــفتيه وهز رأسه هكذا؟» زمت راضية شفتيها زمة كبيرة وأوسعت عينيها.

لم تنته نازنين «إنه لا يتقبل شيئا واحدا في حياته سوى هذا: يجب أن تترك أختي لنصيبها. أي شـــيء آخر يمكن تغييره ولكن ليس ذلك الشيء»

فـــردت راضيـــة ظهرها علـــى الأريكة. جعلـــت الأريكة تبدو صغيرة وأوقعت أحد مســـاند الرأس البلاســـتيك على الأرض. «ماذا نستطيع أن ندين به القدر؟»

«أنـــا لا أديـــن القدر بأي شـــيء». فكـــرت نازنـــين برهة أن تروي حكايـــة (كيف تركت لقدرك) غير أنهـــا كانت طويلة على الخـــوض فيها الآن. «إنني فقط... غاضبة على شـــانو ولكن مم بالضبط؟»

«إنك مشـــغولة فقط على أختك. شيء طبيعي. وفي ظروفك تصبح الأمور أكثر من مجرد انشـــغال. يجـب أن تأخـذي بالـك ولا تبالغي في الأمور. هل علمت أن ناظمة رزقت بطفلها الثالث يوم الســـبت وجاء مبكرا شهرين؟ لا أدري إذا كان ذلك صحيحا، ولكن ســـوروبة تقـــول ذلك حدث لأن زوجها لـــم يكن يتركها في حالها وهذا جعل الطفل يولد قبل أن يكون مكتملا».

قالـــت نازنين «إش» بينما ضيقت عينيها عند ســـماع الفكرة. راحت تمســـد بطنها وتضغط عليه بقوة لتتحسس استدارة رأس الطفل أو مؤخرته. وضعت قدميها على مسند قدم.

أصبح هناك ثلاثة مساند للقدم وكرسي إضافي (هذا الكرسي تتراكم فوقه أشياء، خيوط رمادية، أغراض قليلة القيمة غير أن

شانو قال إنها قيمة، وعندما أصلحها كان ينوي بيعها من جديد) أصبح من الصعب عليها أن تختار الأثاث الآن. كان كلاهما آخذا في النمو، نازنين والأثاث.

«علــى أي حال كانت هذه ولادة قصيرة، ليس كولادتها الأولى التي اســتغرقت ستا وثلاثين ساعة. ولادتي أنا استغرقت ثماني وعشرين ساعة.

«عندمــا ولدت فكرت آما أنه عســر هضــم. قالت إن بعض النساء يثرن جلبة كبيرة».

قالت راضية «هاه» تناولت أحد كتب شــانو من تحت قدميها ووضعته على الطاولة الواطئة.

«إنه شيء طبيعي يحدث لكل النساء».

قالــت راضية «هاه، ســوف أجيء معك إلى المستشــفى. في المرة القادمة ســأجيء وأجهــز معك حقيبة اســتعدادا للحدث الكبير...».

«لــم تصدر آما صوتا واحــدا عندما ولــدتُ». قالت راضية «مممم» راحت تتطلع حولها في الغرفة كأنها أول مرة تدخلها.

تطلعت نازنين حولها هي الأخرى. ثمة قطعة من ورق الحائط تجعدت بجــوار النافذة تماما والســتائر الرمادية الرقيقة بدت كأنها ضمادات كبيرة مســتعملة. كان الوقت بعد الظهر غير أن الضوء قد انســل بعيدا ورمادية الستائر بدت تلقي بظلالها على كل شيء.

«هل علمت بأمر أمينة؟»

لم تعلم نازنين.

«إنها تطلب الطلاق. ســمعت ذلك من ناظمة التي سمعته من سوروبة. أخبرتها بهذا هانوفا، وهي سمعته مباشرة من صاحبة الشأن».

«رأيتها بشفة مشقوقة وفي إحدى المرات كانت ذراعها مربوطة في علاقة. لابد أنه تجاوز الحد هذه المرة».

قالت راضية «ليــس ذلك فقط». نظرت إلى نازنين من تحت رموشها المجعدة فعرفت نازنين أنها تستمتع باللحظة.

«إن له زوجة أخرى نسي أن يذكرها على مدار الإحدى عشرة سنة الماضية».

«اللهــم ارحمنا من هؤلاء الرجال الأوغاد ومن أنفســنا أيضا لأنه ينبغي أننا نستمتع بتلك الأشياء».

«علــى أي حال إن زوجك لن يجعلك زوجة ثانية. إنك تحظين بشــيء يجب أن تكوني ممتنة لأجله». ابتســمت راضية. لم يكن ثمة شــيء أنثوي في وجهها. فهي بشــعرها المحشور في قبعتها يمكن أن تكون عاملا أو صيادا ولكن عندما تبتســم يفقد وجهها خبثــه، نظرة جانبية، وأنفها يبــدو أصغر. «هل هناك أخبار عن الترقية؟»

«زوجــي يقول إنهم عنصريــون. وخصوصا الســيد دالواي. يرى أنه ســيحصل على الترقية لكن الأمر ســوف يستغرق منه وقتا أطول من أي رجل أبيض. يقول إنه إذا طلى بشــرته باللون الرمادي والأبيض فلن تصبح هناك مشكلة».

لاحظــت أن شــانو بدأ كلامه يقــل عن الترقيــة ويزيد عن العنصريــة. لقد حذرها من أن تقيــم صداقات معهم، كأن ذلك

فـــي الإمكان. فهم طوال الوقت مهذبون، يبتســـمون. يقولون من فضلك لهذا وشـــكرا لذاك. لا يخطئون في هـــذا، يصافحونك باليد اليمنى وباليسرى يطعنونك في الظهر.

قالت راضية «لا بأس. يمكن أن يكون ذلك صحيحا».

رددت نازنين الكلمات «يمكن أن يكون ذلك صحيحا. انتظرت إضافة. كانت راضية تنزع خيطا من كنزتها.

قالت نازنين «زوجي يقول إن هذا تعصب».

«اســـأليه إذن في هذا: هل ذلك أفضـــل من العيش في بلدنا الأم أم أســـوأ؟ إذا كان أســـوأ فلماذا هو موجـــود هنا؟ وإذا كان أفضل فلم يشكو؟ »

كانت هذه أســـئلة لم تســـألها ولم تفكر أن تسألها. لقد حلت في هذه البلاد لأن ذلك ما حدث لها. ومن ثم فأي شـــخص آخر كان هنا للسبب نفسه.

وجدت نفســـها تقول «لا أعرف إذا كان يشـــكو، إنه يحب أن يتحدث فقط في أمور. إنه يقول إن تلك العنصرية مرســـخة في بنية النظام. لا أدري أي نظام يقصده بالضبط».

«معلمة ابني معلمة جيدة، تســـاعدنا كثيرا وهو يحبها. زوجي لديـــه زميل عمل يمنحنا أشـــياء: ملابس صغـــرت على أطفاله، ماكينة لتجفيف الشـــعر. راديو. سلم نقالي. أشياء من كل صنف ولون. هناك أشياء صالحة وأشياء تالفة. إنه يحبنا فقط. فالبعض منهم يمكنك أن تكوني ودودة معه والبعض لا يكونون ودودين إلى هذا الحد. لكنهم يتركوننا وشـــأننا ونحن نتركهم وشأنهم. ذلك يكفي بالنسبة إلي».

«غير أن الأشــخاص في الشــغل مع زوجي يمكــن أن يكونوا الأشخاص السيئين».

«هناك شــيء آخر إذا لم تحصلي علــى وظيفة هنا يعطونك نقودا. هل علمت بذلك؟ في اســتطاعتك أن تعيشي في مكان ما من غير إيجار. أطفالك يمكن أن يلتحقوا بالمدرســة. وفوق ذلك كله، يعطونك نقودا. كيف كانت ســتصبح الحال في الوطن؟ هل يمكنك أن تأكلي من دون عمل؟ هل يمكن أن يكون لديك ســقف فوق رأسك؟ «خلعت راضية قبعتها. طقطقت نازنين بجسدها.

قالــت راضية «لقد قصصت شــعري. ســئمت منــه. كل ذلك التمشــيط تلو التمشــيط. مررت يدها على شعرها وشدت خصلة حــول وجهها. لم تصــل حتى إلى فمها. قرأت مــا كانت تفكر فيه نازنين.

«لقــد نظر إليه فقط هكذا «تركت فمها يعلق مفتوحا ومررت عينيهــا. ضحكتها مثل قدر وقع علــى أرضية بلاط. فانطلاقها كان يجعلك تثب.

«ولم يغضب؟» زوج راضية بالنسبة إلى نازنين كان يبدو غاضبا على الدوام. لقد رأته في شــقتهما عــدة مرات، ومرة أو مرتين في الســاحة. كان يعمل في مصنع للدمى البلاستيك. مثل هذا الرجل الضخم يصنع دمى صغيرة. كانت هناك سيقان في خزانة المطبخ ورؤوس على عتبة النافذة وجذوع تحت الأريكة. فإما أنه كان لا يحضر إلى البيت سوى الأجزاء أو أن طارق وشيفالي كانا مغرمين بنزع الأوصال.

لم تســمعه قط يتحدث إلى راضية إلا مــن وراء باب مغــلق.

لذا لم يتسن لها أن تفسر الكلمات. على الرغم من أنه كان صامتا فإن ثمة رعدا كان في حاجبيه وفمه، لديه أداة فتاكة. مختلف جدا عن زوجها هي. حتى عندما كان شانو يعنفها كان يبدو مستأنسا بالكلمات أكثر منه محتدما.

قالت راضية «دعيه يغضب» كما لو كان أمرا ليس من شأنها.

«هل سيعيد هذا شعري؟ يجب أن أنصرف الآن. لا تنسي الدواء. علي أن أنصرف الآن لأنني سأذهب إلى الكلية. سوف أتعلم الإنجليزية».

جاهدت نازنين للوقوف على قدميها. ذكرت راضية بأن تأخذ قبعتها. فجأة داخلتها صورة لحسينة بشعر قصير وهي تتسكع مرتدية بنطلونا رجاليا وتدخن سيجارة بشفتين لامعتين مطليتين. قالت راضية في أثناء انصرافها «هل تعلمين لماذا أنوي تعلم الإنجليزية؟ حتى عندما يشرع أطفالي في قول النكات البذيئة من وراء ظهري أتمكن من جلد ظهورهم».

كان شانو جالسا القرفصاء على السرير. ركبتاه عاريتان مشرعتان في بلادة نحو الجدران. البطن يكبر فوق أعضائه الخاصة بفعل تضخم الغدة الدرقية. اليدان تندسان تحت طيات البطن تستكشفان وتزنان. ذراعان سمراوان نحيلان، ثمة عنقود من البثرات فوق المرفق الأيمن. كتفاه نحيلتان، متماسكتان جيدا، جميلتان إلى حد ما. ومن فوقهما وجه مستدير وممتلئ. مثل هذا الوجه على رجل آخر كان سيبدو سعيدا. كان شانو يفكر. فمه يرف. تحرك ناحية اليسار ثم عاد إلى اليمين، ثم إلى أعلى هذه

المــرة، رافعا خده. بينما يلوي ثقب أنفــه، مغمضا العين. هدأت الشــفاه هنيهة. ثم انفرجتا ثم تمطتا ولفظتا كلمة. تولت العينان الأمر. ضاقتا في تمحيص وانفتحتا في دهشــة وأغمضتا نصف إغماضة في تقديــر. جعلتا الحاجبين يعملان، وجمعا الخطوط السائرة في الصدغين لتؤدي دورها. إذا كان شانو مستيقظا فهو يفكــر وأفكاره مكتوبة على وجهه. تخيلــت نازنين أنه مثل طفل تعلم القراءة ولابد له أن ينطق الكلمات.

«أرأيت...». فكر مليا للحظة كما لو كان يتذوق أفكاره. تنحنح. أخــرج يديه من تحت بطنه. «أرأيت. كان أزاد يلمح إلى خداعي، واحتيال علي. نعم بالتأكيد كان يلمح بأن سوء التصرف قد بدأ، وذلك ليس حاصلا. إنه لم يحصل».

ناولته نازنين بيجامة. علقت بنطلونه على شــماعة، من دون أن تطويه جيدا، ثم وضعته داخل الدولاب. لم ينتبه إلى الجوارب المتســخة والبنطلون المكســر. لقد مرت عصياناتها من دون أن يلحظها. كانت مغتاظة من قلة اهتمامه وســعيدة بمهارتها. نظر شــانو إلى بيجامته كما لو أن ثمة شــيئا مدهشا أو غير مألوف فــي القماش المزهر. لكن الغرض مــن الفقرة المدرجة كما ترين لا يعتبر مخادعة بل هو توضيح. في الواقع ســأكون مسؤولا عن إدارة المكتبة المتنقلة. من غيري ســيفعل ذلك؟ لقد كانت فكرتي ومطلبي، ابني إذا جاز التعبير. ليس ثمة شــخص يمكن أن يكون أفضل مناســبة مني لجلب عالم الآداب العظيمة إلى هذا المكان الوضيــع. بالطبع ليس هنــاك الكثير لكي نبدأ بــه فيما يتعلق بالكتــب البنغالية. لكنني يمكن أن أســافر إلــى دكا. إلى كالكتا

لأســـجل أكشـــاك الكتب التي توجد حول الجامعة. أعتقد فيما يشبه مهمة أدبية.

أصـــدر صوتا راضيا كأنما فرغ من فوره من الطعام. ثم طفق وجهه يتحرك مـــن جديد. رفع صوته وإصبعه. غير أن أزاد قال وليس بكلمات كثيرة إنني فعلت شيئا في دهاء. قلت له يا أزاد (لقد كنـــتُ هناك! ألا تتذكر؟ كنتُ هنـــاك وكنتَ تناديه دائما بدكتور)، طلبت منـــك أن توقع على عريضة التمـــاس وأنت وقعت. فأنت موافق على فكرة مكتبة متنقلة للعمارة: أعتقد أنك اســـتخدمت كلمة «رائعة»، هل تقول لي الآن إنني لو أصبحت المســـؤول عنها ســـوف تتحول من رائعة إلى ســـيئة؟ (كلا لم تقل، لم تقل ذلك) إنني في حاجة ماسة إلى أن أوضح لك أن تعديل صياغة عريضة التماس مجرد فعل تصحيح وليس إفســـادا». وظل صامتا. لبس شانو سترة بيجامته. ابتسم «أعتقد أن ذلك يشي بالكثير».

«متى ستحصل عليها، المكتبة؟»

«آهـــا إنها بالطبع مســـألة اعتمادات مالية. تكلفة شـــاحنة. والكتب والوقود. كل هذه الأشـــياء. على أي حال لم أنته بعد من جمع التوقيعات».

كم توقيعا لديك؟

أجرى شانو بعض الحسابات وهو يميل رأسه في هذا الاتجاه وذاك.

«أقول إجمالا سبعة أو ثمانية. غير أنني أطمح في المزيد. هل تعتقدين أن أزاد سوف ينشر هذه النسخة في مكتبه؟

قالت نازنين «لا أعرف، ربما» نظرت إلى الرجل الذي يرتدي

سترة البيجامة الصفراء المزهرة، بركبتيه العاريتين المفتوحتين على مفرش السرير الوردي. تطلعت إلى دولاب الملابس الأسود اللامع الضخم والرسم الذهبي المزجزج الذي يمكنك انتزاعه بأظفر الإصبع. نظرت إلى السجادة البنية والرقعة البالية في شبكة البلاستيك التي تمسكها بعضها ببعض. نظرت إلى مصباح السقف الذي يظهر الغبار في الظل ويلقي الظلال على الحوائط. نظرت إلى بطنها الذي يخفي قدميها ويجبرها على الميل إلى الوراء لتواجه وزنها. نظرت ورأت أنها محبوسة داخل هذا الجسد، داخل هذه الحجرة، وداخل هذه الشقة، داخل هذه الفجوة الخرسانية للإنسانية المدفونة. لم تكن لهذه الأشياء صلة بها. أغمضت عينيها ثانيتين وراحت تشم الياسمين الذي كان ينبت بجانب البئر وتسمع الدجاج وهو ينبش في الأرض الدافئة، وتشعر بضوء الشمس الذي ألهب خديها وراح يصنع أشكالا راقصة على رموش عينيها.

قال شانو «ربما، ربما. ربما لا ينبغي عليّ أن أورطه. الله يعلم سوف يتهمني بأي شيء في المرة القادمة. فالرجل الأصلع لا يمشي تحت شجرة أجراس مرتين «ضحك» على الرغم من أنني لم أصبح أصلع صلعا تاما بعد». جاهد في لبس سروال بيجامته من دون أن يترك السرير، ثم انقلب على بطنه وتناول كتابا من الأرض. «هذا كتاب جيد جدا. الإحساس وقابلية الإحساس» قالها بالإنجليزية.

«من الصعب ترجمتها. دعيني أفكر فيها».

«سوف تذهب راضية إلى الجامعة لتتعلم الإنجليزية».

«آه، حسن».

«ربما يتسنى لي أن أذهب معها».

«حسن ربما». لم يحرك عينيه من كتابه.

«يمكنني أن أذهب إذن؟»

«كما تعرفين المفروض أنني أقرأ الآن في السياسة. انتخابات القرن التاسع عشر. لكنهم يجعلونها جافة جدا. يمكنك أن تتعلمي كثيرا من الروايات أيضا. كل أنواع الأشياء يمكنك أن تكتسبيها عن المجتمع والسياسة واستصلاح الأراضي والتوزيع الاجتماعي. وذلك ليس بطريقة جافة».

هل سترضى أن أذهب؟

«أين؟» انقلب على ظهره لينظر إليها. كان بطنه مكشوفا.

«إلى الكلية مع راضية».

«لِمَ » «من أجل دروس الإنجليزية».

«إنك ستصبحين أما».

رفعت نازنين كوبا من حافة النافذة. حقا كانت بصدد أن تصبح أما.

«ألن يجعلك ذلك مشغولة بما يكفي؟ كما أنه لا يمكنك أن تأخذي آما إلى الكلية. فالأطفال يجب إرضاعهم ويجب تنظيف مؤخراتهم. ليس الأمر بهذه السهولة. مجرد أن تذهبي هكذا إلى الكلية».

قالت نازنين «أجل أرى أن ذلك لن يجعلني مشغولة».

«حسن، دعيني أقرأ الآن. كل هذا الكلام تلو الكلام». ثم انقلب ثانية.

كانت الثلاجة تطن مثل ذبابة عملاقة. على البعد كانت حركة المرور تدمدم. لم تشعل نازنين المصباح. كان ثمة نصف قمر يشع هذه الليلة بالسماء المعتمة. أخذت علبة زبادي من الثلاجة ورشته بالسكر. استندت إلى المنضدة وراحت تأكل. كان زوجها يقول لها في أثناء الوجبات «كلي، كلي» ولكن لم تكن تأكل من أجله. كانت تبدي تمالكها لنفسها بهذه الطريقة. أرادت أن تجعل إنكارها لذاتها أمرا مرئيا. لقد أصبحت عادة أو متعة أن تجعل سلواها في هذه الوجبات في منتصف الليل. كانت آما تصنع اللبن الرائب سميكا وحلوا ودافئا. لا يشبه هذه القدور البلاستيك القادمة من البقرات الإنجليزية. غير أنه مازال به سكر يهبط في القاع. وكان مناسبا جدا. عندما فكرت في جوريبور الآن كانت تفكر في عدم ملاءمة العيش من دون مرحاض يتدفق منه الماء لينظف تلقائياً. أن تهجر حوضيها (المطبخ والحمام) أن تصنع نارا للفرن بدلا من أن تفتح زرا. هل كانت هذه المساومات تستحق الإقرار بها؟ حاولت أن تتخيل شانو سائرا إلى المرحاض وفي يده كتاب ثقيل. كان يحب أن يقرأ أحيانا لمدة نصف ساعة أو أكثر وهو يجلس على المرحاض. كان الذباب يرافقه إلى الحمام.

راح شانو في النوم ووجهه في الكتاب. كانت الصفحة موسومة بالرذاذ. لم تكن كل هذه القراءة مفيدة له. فهي تجعل عقله يغلي. يمكن أن ينتهي به الأمر كما انتهى بماكو باجلا.

لقد مر وقت طويل منذ أن خطر على بالها ماكو باجلا. ولكن عندما كانت صغيرة اعتادت أن تمشي وراءه هنا وهناك. كانت حسينة ونازنين تسيران خلفه وهما تشبكان يدا بيد وتطوحان

باليد الأخرى الطليقة. صاحت حسـينة «يي ياو، أعطنا مظلتك يا ماكو باجلا، هيا لأنها تمطر».

كان الناس يقولون إنه ضعيف العقل لأنه كان يقرأ باستمرار. لقد حطمته الكتب. وكلما كان أكثر تحطيما كانت الكتب التي قرأها أكثر. ومن هنا اكتسب اسمه ماكو باجلا. أو ماكو المعتوه. كانت حسينة هي التي أغرقت مظلته في البئر. تصليحات كثيرة على مر السنوات ورقع من كل لون جعلت منها مظلة شهيرة. ولم يكن ماكو يخطو خطوة واحدة من دونها. صرخت حسـينة وهي تجري عائدة على البيت «قتل نفسـه، ماكو باجلا قتل نفسه في البئر».

راحـت آما على الفور تدعو بدعواتهـا بينما التقط آبا حبلا وانطلق يعدو. تقدمت حسينة ونازنين على ساقين مرتعشتين.

علـى الرغم من أن رائحة نتنة كانت تنبعث من البئر القديمة منذ بضعة أيام فإن أحدا لم يعتقد أنها لافتة. بدأ الناس يلقون فيها بالنفاية. غير أن مظلة ماكو كانت هناك ولم يكن من المعقول سـوى افتراض أنـه كان معها. تجمهر الناس بسـرعة. كان كل شخص له رأي، غير أن أحدا لم يرغب في النزول إلى قاع البئر لانتشال الجثة.

في نهاية المطاف انسـحب مجلس القريـة إلى منزل نازنين. تولى آبا رئاسة الاجتماع. سمعته نازنين وحسينة وهما ينتظران بالخارج يقول، «لقد لاقى ميتة مهينة، فلنمنحه على الأقل جنازة مهيبة». رددوا الكلمات بعضهم لبعض، بينما يهمسـون من وراء أيديهـم في الآذان. بعد ذلك وجدوا هدهـدا مقلوبا على ظهره

يســتحيل إلى قشــور. وقالوا الكلمات مرة ثانيــة وحفروا قبرا ضحلا. لقد أصبحت لعبة مارسوها مرارا وتكرارا. نازنين حزينة كغراب وحسينة تتظاهر. عندما اجتمع المجلس كان قد تم تقديم العرض: ستون روبية إضافة إلى مصاريف قطعة صابون شمسي كبيــرة وزجاجة عطر لأول رجل يتطوع. تقدم عامل للأمام وكان مســرورا. تجرد إلى ننجيتيه[١٨] وصــاح في زوجته لتحضر زيت الخردل الذي دلك به جســمه. تم تجهيز العدة. ســلة كبيرة من الخيزران وحبال سميكة وبلطتا حديد لتنظيف النفاية.

عندما أنزلوا العامل إلــى الأرض صاح يعلق على عمله «لقد أحكمت ماكو» كان صوته مشوها ويتردد كالصدى. فارتفع هتاف آخر من المتجمهرين. بدأ المساعدون في رفع الجثة. قال الصوت من داخل البئر «رويدا رويدا هل تريدون أن تفصلوا رأســه؟» تم إنزال جســد ماكو العاري بحرص على الأرض. كان أبيض تماما وكانت ثمة ثقوب حيثما ارتطم الجسد. عندما تم رفع العامل من البئر، كان يحمل معه ذراعا وضعها برفق فوق صدر ماكو.

أمســكت حســينة ونازنين إحداهما بالأخرى. قالت حسينة «لقد نسوا مظلته». قالت نازنين، «لا يجب أن نغضبه». في المساء كانت آما لاتزال تبكي. كان أنفها أحمر وعيناها داميتين. أحيانا كانــت تطلق صرخة حــادة مثل قرد مذعور. كانــت ترفع يدها لتغطي فمها لأنها كانت تســتحيي من أســنانها التي تشبه بذور البطيخ.

كان آبا يدخن غليونه ويجلس على عجيزته.

---

(١٨) ننجيتي: لباس داخلي يشبه الصدرية. المترجم.

قالت حسينة، «لا تبكي يا آما». وقبلتها بشفتين رمانيتين. قال آبا «أمك ولية لا تنســي ذلك. إنها تتحدر من عائلة أولياء». قام وســار مبتعدا وتمالك نفسه أكثر من أي رجل. لم يعد لمدة ثلاثة أيام.

سألت نازنين «أين يذهب آبا؟»

تطلعــت آما نحو الســماء «انظــر! طفلتي الآن تســأل أين يذهب».

تطلعت نازنــين إلى أعلى هي الأخرى. كانت الســماء مثقلة بأجنحة بنيــة خفاقة. كان البط يتوافد فقد حان الموســم. راح يتوافد في أســراب بينما يلقي بظلال هائلة على الأنهار ويتوعد الشمس.

ضمتهــا آما بشــدة. أخذت وجه نازنين الكبيــر بين راحتيها وقالــت لها «لو كان الله يريد لنا أن نســأل أســئلة لكان خلقنا رجالا».

الفصل الرابع

أبيض

كان الرضيع مدهشا. له أذنان خرقاوان صغيرتان، لينتان كالقطط. حرارة بطنه المستدير في إمكانها أن تدفئ العالم. رأسه يضوع برائحة زهرة. وقبضتاه تحظيان بكرات صغيرة غامضة من الزغب لا يطيق الابتعاد عنها.

التفتت نازنين حوله على السرير. رفعت ذراعا وصلت إلى منتصف المسافة إلى رأسه ثم أنزلتها ثانية. كان يبدو أن عبث هذا التمرين يغضبه. انهار وجهه في فوضى أرجوانية. وراح يحدث جلبة مثل ألف جرو مضروب.

قال شانو، «كما ترين، كان يجلس على كرسي محشور بين السرير والحائط. ركبتاه في مواجهة مفرش السرير». بنت عم جدتي كانت صافية البشرة. وكانت مثالا للجمال إلى درجة أنها تسببت في معارك. ثمة رجل قتل أيضا. لكم كان يستعد للذهاب من أجل أن يحظى بيدها متزوجا إياها. رجل آخر، مجرد عامل بلا فرصة سلبه حياته. على أي حال هذا ما سمعته. لم أرها بنفسي قط إلا عندما كانت عجوزا وتشبه الخنفساء.

جلست نازنين قبالة بعض الوسادات ورفعت الرضيع إلى صدرها. مسحت على ظهره. كانت يدها مملوءة بالسحر. راح الرضيع يمص عنقها بهدوء.

«من هنا اكتسب روكو بشرته الصافية». اسم الرضيع محمد رقيب غير أن شانو كان يناديه بروكو. بشرة رقيب تشبه بشرة خالته. كانت حسينة شاحبة مثل سلحفاة الماء. رقيب كان يشبه الشوندش[١٩]، قشدي وحلو المذاق.

---

(١٩) شوندش: نوع من الحلو. المترجم.

«السيدة إسلام ستأتي مرة ثانية اليوم. لو نعست لا توقظيني».

السيدة إسلام على يقين أن لديها نصائح أكثر بخصوص الرضيع.

تزحزح شانو في مقعده. كان المقعد آخر مقتنياته. وهو مصنوع من الأنابيب المعدنية والكنفا. المعدن كان صدئا والكنفا ممزقا. أوضح شانو أنه موضة قديمة وعصرية في آن واحد ويستحق تجديده. رفضت نازنين أن تجلس عليه. حتى عندما قال لها بألا تصبح امرأة مخبولة وتجربه. رفضت فقط بلا سبب.

قال شانو: «إنها تتحدر من عائلة طيبة، خلفية جيدة. متعلمة ومحترمة جدا. أما زوجها فصاحب أعمال كبيرة: تصدير واستيراد. لقد ذهبت إليه باقتراح». كان فكها يعمل في صمت لبرهة كأنه يقضم على خيط غير مرئي. منتجات الخيش - المشايات - مؤشرات الكتب، أشياء من هذا القبيل. كان مهتما جدا ولكن بعدها أصبح مريضا. كان مجرد سوء توقيت. لقد احتفظت بالاقتراح في مكان مع أوراقي. ربما يستحق البحث عنه. كل الأرقام موجودة: التكاليف والدخول الإجمالية والأرباح مكتوبة بوضوح تام. لكنه في الواقع مات. ولم يتوافر لدي قط رأس مال. ماذا يمكن أن تفعليه من دون رأس مال؟

حاول رقيب أن يرفع رأسه عن كتف نازنين كأنه يعرف إجابة هذا السؤال الصعب. منهمكا بحمل معرفته، غلبه النعاس.

بعين نصف مغمضة نظرت نازنين إلى أنفه ذي الشهر الواحد، إلى استدارة خده المنعمة، إلى عينيه العتيقتين المغمضتين بإحكام. أغمضت عينيها هي وتمنت أن يتركهما شانو وحدهما.

«إنه نائم. لم لا تضعيه؟ في وسعهم أن يناموا أربع عشرة أو ست عشرة ساعة يوميا. أما روكو فلا ينام هذا الوقت الطويل. أعتقد شخصيا أنها مسألة ذكاء. كلما كان الرضيع ذكيا كان أكثر استيقاظا. وكلما طال وقت يقظته كان لديه تحفيز أكبر وأصبح أكثر ذكاء. إنها دائرة مطردة».

ظلت نازنين هادئة. أحشاؤها توخزها وجبهتها تضيق. كل ما يستطيع فعله هو الكلام. ولم يكن الرضيع سوى موضوع آخر يتحدث فيه. بالنسبة إلى نازنين كانت حياته أكثر حقيقية من حياتها هي. فحياته مملوءة بالحاجات: حاجات ملحة وواقعية يمكن أن توفرها له. ما الذي تمثله حياتها في المقابل سوى سلسلة من التآكلات غير محددة جيدا ومن المستحيل تبريرها.

وشانو كان فقط يتحدث. بالنسبة إليه كان الرضيع عبارة عن مجموعة من الأسئلة، عدد من الاحتمالات. شرارة لاندلاع النقاش والتأمل. كان يفكر في رقيب ويتفحص تقدمه من بعد ويرسم خططا لمستقبله. لقد فتح الرضيع آفاقا جديدة وأغلق آفاقا أخرى. فلقد زوده بتلسكوب ومرآة. ماذا رأى شانو عندما نظر إلى ابنه؟ وعاء فارغ يجب ملؤه بالأفكار. آخذ بالثأر: بارز ونام. شريك عمل مستقبلي. أستاذ جامعة: من أبناء الوطن. شانو آخر: ولكن هذه المرة بفرص منتهزة لا ضائعة.

تركت نازنين شفتيها تنفرجان وتنفست بعمق أكثر.

قال شـــانو: «لا بأس نامي الآن. لو جاءت السيدة إسلام سوف أوقظك». سمعت صوته وهو يخرج الصرير الخافت الذي يحدثه برئتيه وليس بعظامه عندما يقف. كان في استطاعتها حتى وعيناها مغمضتان أن تراه، يداه على ركبتيه. عيناه تتفحصان وتتفحصان. الشعر أعلى رأسه قصير منتصب، خصلاته تهتز. رجل تمر حياته على حين غرة. لم يتحرك. «السيدة إسلام من النوع الذي تسميه محترمـــا». راضية في المقابل.« ... تتحنح ورفع صوته» راضية في المقابـــل لم أكن لأســـميها من النوع المحترم. أنا لا أدينها بشـــيء. ولكن ما هي خلفيتها؟ زوجها يزاول عملا من نوع حقير. وهو غير متعلم. محتمل أنه أمي. ربما يمكنه كتابة اسمه. لو لم يستطع كتابة اسمه سوف يتظاهر. أما راضية فتقص شعرها مثل عاهرة. ربما تســـمي هذا موضة. لا أدري. ابنها يتســـكع في أنحاء العزبة مثل متشرد وهو يلقي الطوب (وماذا لديك). عندما تحدثت إليه وضع أصابعـــه في أنفه هكذا وقطب جبينه هكذا. قاومت نازنين إغراء النظر إليه «لا بأس إنه ولد صغير. ماذا يعني؟» هنا سـعل شـــانو بطريقة توحي لنازنين بأن خطابه ســـوف يصل إلى ذروة. «سأقول لـــك ماذا يعني. الولد لن يظل ولـــدا صغيرا لوقت طويل. وعندما يكبر ســـوف تكبر معه قلة الاحترام نفســـها. يكبـــر الطفل وتكبر قلة الاحترام. ســـاعتها يصبحون عصاة. ويشـــرعون في تخريب الممتلكات والشجار والشرب ومطاردة النساء والمقامرة. يمكنك أن تري أين ينتهي الأمر وكيف يبدأ؟» نهض أخيرا. «فقط ضعي ذلك نصـــب عينيك. أنا لا أمنعك من زيارة راضية ولكن أطلب إليك أن تضعي ذلك نصب عينيك».

فردت السـيدة إسلام ساقي الرضيع إلى أعلى حتى لامست قدماه أذنيه. شـدت ذراعيه لأسـفل ثم إلـى الجانبين ثم عبر جسـمه. أخذت الساق اليسـرى وجعلتها على شكل مضخة لذا انضغطت على صدره ثم رفست في الهواء. عدت السيدة إسلام حتى الرقم عشرة ثم بدأت من جديد مع القدم اليسرى. حومت نازنين إلى الجانب مثل كناس. رفت ابتسامة حول محياها.

أقدمت مرتين، ومرتين تراجعت.

قالت السـيدة إسـلام: «لابد أن تدلكي الطفـل كل يوم وإلا ستضمر أطرافه. علام تترددين هناك؟ اجلسي أو اذهبي وأعدي بعض الشاي».

«أنـت لا تفعلين ذلك بقوة كما ينبغي. انظري! هو يحب ذلك. ذلك بدوره مهم لدورتهم الدموية».

ابتسم الطفل. وجهه كله يشـبه العجينة. راح يخفق بذراعيه مثل فرخ طائر والسيدة إسلام كبيرة كغراب، تنحني فوقه وتدغدغ إبطه. غمغم الطفل واحتج. تشكلت الفقاعات على شفتيه. قالت السيدة إسـلام: اللعنة، راحت تدغدغه أكثر. فراح الطفل يدير رأسـه من جانب إلى جانب وأحدث جلبة إلـى درجة أن نازنين خشـيت أن يكون على وشـك الإصابة بنوبة مرضية. وراح يلهث بشـدة كأنه يغرق. «سأعد الشـاي» قالتها من دون أن تنظر إلى زائرتها.

بدأت نازنين تشـمئز من هـذه الزيارات. بلغ رقيب الشـهر الخامس وما زالت السـيدة إسـلام لم تنفق كل نصائحها. ترى كم نصيحة أخرى يمكن أن تقدمها السـيدة إسلام. وكم نصيحة

أخرى يمكن أن تأخذ بها نازنين؟ بدأت السيدة إسلام بالأشياء الواضحة. يجب أن تحلق رأس الطفل. فالشعر المولود به لا يكون نظيفا. لابد أن يحظى بمسحة سميكة سوداء من الكحل حول عينيه. لأن الشيطان لا يتمكن سوى من الأطفال الجميلة. (لكنه مع ذلك كان جميلا) ويجب أن يدلك بانتظام بالزيت ويوضع في الشمس ليمتص فائدتها. كأن نازنين لا تعرف هذه الأشياء. ثم كانت هناك الأشياء الخاصة التي أخذتها السيدة إسلام عن أمها. ضعي إصبعا على مؤخرة الطفل مرة كل أسبوع كي تسهلي نظامه، امتصي ثقبي أنفه للتخلص من المخاط. أديري الحلمة بين أصابعك قبل الرضاعة كي يتحضر اللبن. اتركيه على بطنه ساعة كل يوم حتى يقوى عنقه وصدره. أعدي وسادة صغيرة من الريش. استفيدي من الأوراق وفصوص الثوم للمساعدة على النوم. يفضل ريش الببغاء. أضيفي بعض الزبد إلى ماء حمامه لتظل بشرته ناعمة. أعدي لصقة من الكركم وبذور اليانسون على صدره لعلاج السعال. دلكي قدميه بزيت جوز الهند لإزالة البرد. لا تقلبيه قط على رأسه.

ملأت نازنين الغلاية. رفعت الوليد. قالت «جي - جي - جو- جي» اهتز الطفل في حدس. قالت «جا!، جي - جا، - جي - جا، - جي - جا» مال رقيب للخلف، مرتابا. علق تجويف مؤخرته. أعلنت بوادر اللعاب عن تملقه. هدهدته نازنين. فوق وتحت. لفظ الرضيع «داه» ورفس بساقيه البدينتين. راح يحدق في وجهها كأنه أعجوبة، كأنه يشاهد فيه فتنة. عيناه تفتقتا عن الحكمة القديمة التي جلباها من الرحم، حيث العوالم الرحيبة تتلألأ كالنجوم. وضعته

علـــى مجموعة من الوســـادات قادمة من حجـــرة الجلوس. أصبح محطما. تمـــت خيانته. فراح يولول مثل أرملة. ابتســـمت نازنين. صبت الماء المغلي على أكياس الشـــاي وأحدثت تكتكة بلســـانها. ثم حملته من جديـــد. «هل تبكي من أجلي؟ هل هو أنا؟ هل تبكي من أجلي؟» وبهذه الكلمات عوضت خسارته.

قالت الســـيدة إسلام: «سوف آخذه معي بعد الظهر، لتقومي فلتبقـــي هنا ببعض شـــغل البيت». ثم لفت إصبعهـــا في الهواء. عيناها الصغيرتان الســـوداوان ثمنتا الحجرة. «بنت أختي قادمة وهي تحب اللعب مع الأطفال». قالت نازنين لنفســـها كان هناك أحد عشر كرسيا في الحجرة من دون حساب الكرسي ذي مسند الذراعين الذي بلون روث الماشـــية والذي يتماشـــى مع الأريكة. كيف يفترض أن ترتب المنزل؟ لم يكن هناك متســـع تضع فيه أي شيء. بينما كتب شانو وأوراقه تنمو كالطحالب. والغبار كان يأتي من لا مكان مثل طاعون ويستحيل علاجه.

قالت نازنين «إنه صغير على هذا. أرسلي بنت أختك لي».

«كلام فارغ سوف آخذه» وراحت السيدة إسلام ترشف شايها. كانت الشـــعيرات المنتصبة حول ثقب أنفهـــا طويلة اليوم. قريبا ســـيتم نتفها. شغلت نازنين نفســـها برقيب. راحت تداعب ذقنه بمنديل ورق. تفحصت أظافـــره. وضعته على كتفها وربتت على ظهره لطرد بعـــض الرياح. أحدث ضوضاء، نوع صوت تجريبي. انتهزت الأمر باعتباره كربا وتوجهت به إلى النافذة. قالت «هناك. هنـــاك. لا عليك. انظر، انظر، انظر». غير أنها كانت تبقيه أمام كتفها لذا كانت هي ما يطل عليه.

الشـــمس كبيـــرة وواهنة. تعرق بمشـــقة في ســـماء مضببة. محشـــورة بين فجوات المباني الخرســـانية. ثمة سماء تتسع لها بالـــكاد. صناديق القمامة العامة تحوط الســـاحة مثل محاربين من المعدن، جاثمين، متنافسين في الجرم. آملين في الاستراحة. أحدهما انقلب ولفظ أحشاءه. ثمة فأر راح يرف خروجا ودخولا فيها. ثمة ولد في السادســـة عشـــرة أو الســـابعة عشـــرة يسير بالجـــوار ويجرب كتفيـــه بهذه الطريقة وتلك. كانت رأســـه تبرز وتدخل مثل دجاجة، في اختيال. كان يمســـك ســـيجارة في يده وفي اليد الأخرى راديو أو مســـجل جيب. أصدقاؤه ينادون عليه من المســـكن بجوار مدخل روزميد الذي يعد مركز قيادتهم. لقد تم دفـــع الصناديق. كانـــت لعبتهم بهانجـــرا[٢٠]، أخبرتها راضية بذلك. بهانجرا وشاكين ســـتيفنز. طوال ساعات النهار. وبعضا من الليـــل. إن الآباء يخرج المر من أيديهم. ولكن بعضا منها إلى حد ما مفيد - تنزلق عيناها لليسار وتضيقان لتصبحا شظيتين لامعتين - وخصوصا لعبة شاكين ستيفنز.

مجمع روزميد الســـكني يواجهها من دون أن تطرف له عين. ثمة إطارات معدنية على النوافذ. تألقت وأزت على مدار أسبوع واحد. لقـــد وعدت بكثير. لكم تغنت بكم كانت نظيفة وكم كانت جديدة. ثم طفقت تتمشـــى مع البقية. طوال الليل. وفي الصباح التالـــي كانت خاضعة. لـــم يعد يتلاعب بها الضـــوء. لقد فعلت الأحجار ذات اللون الأحمـــر الباهت فعلتها. أصبحت الإطارات متسخة وكئيبة مثل مضيفيها.

---

(٢٠) بهانجرا: رقصة حصاد نشأت من البنجاب. المترجم.

يمكنــك أن تنشــر روحك فوق حقل قمــح، يمكنك أن تهمس لشــجرة مانجو، يمكن أن تعرف الأرض تحت قدميك وتعرف أن هذا هو المكان حيث تبدأ الأشياء وتنتهي. ولكن ما الذي تستطيع أن تقوله لكومة من الأحجار. لن تتزحزح الأحجار.

ثمــة هوائي تلفزيون يتدلى من نافــذة كأنه منتحر. كومة من صناديق تســد نافذة أخرى. شــقة راضية مزودة بالستائر. ثمة مؤخرة رأس تهتز هنا وهناك خلف الســتارة. شــيفالي أو طارق تختبئ من طارق أو شــيفالي. سيدة الوشم تميل إلى أمام بينما تطل على الساحة وتشرب. شعرها ينزلق على جانبي رأسها مثل بقعــة زيتية. لقــد صبغته لكنه يظل بلا غســل. إنها ترتدي بزة رجالية. تنقل كأســها من يد إلى أخرى وترجعه من جديد. كيف يتســنى لها أن تجلس وتجلس فقــط؟ ما الذي تنتظره؟ ما الذي هناك لتراه؟

«يمكنــك أن تأخذيــه خــلال ســاعتين. أعطــه رضعة الآن وســنذهب». أعاد صوت الســيدة إســلام نازنين. كلماتها كانت حــادة مثل حفنة رمل. لــم ترفع صوتها قط فلقــد كان من نوع ليس في حاجة إلى رفعه. كان يقسم الكلمات إلى وحدات دقيقة ويطلقها بحماس.

قالت نازنين «كلا سوف يرضع فيما بعد».

تناولت الســيدة إســلام منديل ورق من كمها. فردته وراحت تنشــف على امتداد مفرق شــعرها. صيف شــتاء كانت ترتدي الشيء نفسه: سترة فوق الساري، جورب أسود، شبشب بيتي. لم تكن تتغير تبع الفصول.

«يستحسن أن تفعلي ذلك الآن. إنني على وشك الانصراف».
قالت نازنين «سوف يبقى هنا، معي».

نظرت ضيفتها إليها. لم تستطع ملامحها أن تتسع للدهشة، غير أن حاجبيها هبطا، مقتربين أحدهما من الآخر. لاحظت نازنين للمرة الأولى كم كانا داكنين، غير متأثرة بالبياض الذي يرشح به شعرها. ما هذا؟ «ارتعشت نازنين غير أن دفء جسد رقيب قبالة صدرها شحذ قرارها». سوف يبقى هنا. «لم تستطع أن تضيف شيئا ما للتلطيف. شيئا ما لتبدي احترامها. كان يمكنها أن تقول: سوف أحضره فيما بعد. إنه ليس في حالة جيدة اليوم. سوف أحضره يوما آخر. سيكون في أيد أمينة معك. كل ما قالته هو «سوف يبقى هنا».

لملمت السيدة إسلام نفسها. التقطت حقيبة يدها وجلست وهي مفتوحة على حجرها. لوهلة تخيلتها نازنين وهي تنتزع رقيب وتدسه في جلد الحقيبة الأسود المسامي. لكن السيدة إسلام أغلقتها فقط ومسحت الإبزيم الزجاجي بإبهامها وقامت. قالت: «الناس البيض يفعلون دائما ما يريدون. فذلك ليس من شأن أحد. لو ثمة طفل يصرخ من الضرب، لا يقومون سوى بإغلاق الباب والنوافذ. ربما يتذمرون من الضوضاء. أما الطفل فليس من شأنهم. حتى لو كان يضرب حتى الموت».

«إنهم يفعلون ما يشاءون فهي مسألة خاصة. كل شيء يعتبر مسألة خاصة. هكذا يعيش الناس البيض».

توجهت نحو الباب ونازنين تتبعها وهي تراقب التمايل غير المنتظم لمشيتها.

مررت السـيدة إسـلام يدها الخفيفة على وجه الطفل. مد الطفل نفسه إليها وانحنى بينهما غير أن نازنين أمسكته بحزم.

كان السـؤال الخـاص بالدكتور أزاد يعكر صفو شـانو. كان السـؤال هو: هـل هـو عداء أو إهـمال هذا الـذي جعل الدكتور لا يـرد الاسـتضافة؟ أو كان هذا. هل هي مسـألة إعداد، لذا فعشاء آخر سـوف يضمن دعوة؟ أو احتمال كان هذا، هل كانت الأمـور تتغير لو أن الدعوات بقيت من جانب واحد. كانت كثيراً كذلك: أي نوع من التعالي هذا يا أزاد؟

«هو يأكل طعامي ويقرأ كتبي. ربنا وحده يعلم أين يجد أيضا أي تحفيز فكري وأي رفيق فكر. هل لي أن أسأله عندما نذهب إلى منزله؟ يمكنني أن أسـأل هكذا». هرش شانو مؤخرة رأسه ونقر مسـند كرسيه وراح يتحدث مع إيحاء بتثاؤب. إذن ما الذي تخبئه في منزلك يا أزاد؟ هل سـنزورك ونعرف؟ جعل كرسـيه يخمد من جديد.

كانت تطعم الطفل تفاحا بملعقة. قبض على الملعقة وأرسـلها طائرة. ضحك وهو يرشها بالرذاذ. كانت مندهشة من أنها جاءت بهذا المخلوق، امتداد لجسدها. عندما تتذكر أن شانو قد جاء به هو الآخر كانت تصعق.

واصل شـانو «ربما لم يفكر قط في ذلك. إنه في حاجة إلى قليـل من الحـث أو يمكن أن يكون الموضوع أنـه لا يعتبرني من جماعته. فالطبيب أفضل اجتماعيا. ولكن ماذا تعني كلمة دكتور في واقع الأمر، عندما نفكر فيها؟ إنه يسـتوضح كل شـيء من الكتب. كسـر الساق. أنواع البرد. والفيروسات والأكزيما والربو

والروماتيــزم والتهاب المفاصل، البثــرات والنتوءات. إنه يحفظ هذا تماما. الأعــراض والعلاج. قلما توجد محاولة فكرية. كلا. إنه مجرد إصبع انتفخ في حجم موزة. دعيه يحرس منزله ويلفه ببعض الأسلاك الشائكة أيضا. فأنا لا آبه».

وضعت نازنــين الرضيع بينما راحت تبحث عن الملعقة. تحت الطاولة كانت الملفات والأوراق تتناســل وتتزاوج. بكرات الخيط وعلب الدبابيس. بكرات التكت وسلاســل المشــاجب. ســروال داخلي يســتلقي مجهدا في شكل كومة. ثمة جورب يقر متحجرا في الغبار. لم تجد الملعقة. حبا الرضيع تحت الطاولة معها وشد شــعرها. في هذا الشــهر الأخير تحول وجهه من المرعوب إلى المازح. ملامحه لم ترتســم كلها، غيــر أنها كانت أكثر من مجرد تخطيط. عندما كان ينظر إليها ســاعتها كان دائما على شفا أن يســأل ســؤالا. ووراء الســؤال كانت ثمة دعابة كبيرة جدا وكان يبدو أنه ســيوقعها فيهــا. قالت له «نحن هنــا! إنني أبحث عن ملعقتك».

تابع شــانو الحديث: «ربما لــو حصلت علــى الترقية وقتها ســيكون أكثر رغبة في عرض اســتضافته لنــا. ربما كانت تلك نوعية الرجل التي هو عليها».

نهضت نازنــين. أخذت الرضيع تحت ذراع واحدة. تفحصت وجه شــانو لترى إذا كان يتطلب أي اســتجابة من جانبها. كان يمعــن التفكير فــي كلماته، يلوكها في هذا الاتجــاه وذاك، إلى جبين متجعد وخد مشــدود. عيناه كانتا تبدوان في مكان بعيد للغاية. لم تكن في حاجة. أخذت الرضيع إلى المطبخ وأحضرت

ملعقـــة أخرى. راح يتحدث هـــذه الأيام عن «لـــو» كانت تصبح «متى». متى تخرج الترقية سالمة. وكان لا يتحدث قط عن ويلكي أو خليفته جيرارد أو هاوارد اللذين يشـــبهانه. لكنه كان يتحدث أكثر عن الاستقالة.

كانوا ســـيخرجون صباح الأحد للتجول علـــى الفور، بالقرب من شـــارع بريك لين. ســـيدفع شـــانو عربة الطفل بينما تمشي هـــي خلفه بخطوة. عندما يســـتوقفه الناس في الشـــارع ليبدوا إعجابهـــم برقيب، ليمنحـــوه قبلة أو مداعبة، كان شـــانو يرتفع بوصتين. وإذا لم يســـتوقفه الناس اســـتوقفهم هو. انظر كم هو نبيه. لاحظ الحجم الكبير لرأســـه. كلمـــا زاد حجم الرأس زاد حجم المخ. تعتقد أنني أمزح؟ كم كان حجم رؤوس الدناصير؟ وهل تتعجب لماذا انقرضت؟ وكان الشخص يبتسم في غموض ويبتعد. في المحلات كان شـــانو يشـــتري الخضراوات. اليقطين، القرع، الســـبانخ، البامية، باذنجان. أيما كان في الموسم. سوف يشتري التوابل والأرز والعدس وأحيانا حلويات: عبوة راز مالي[21] باللبن، جولاب جامون البنية اللزجة[22]، دوارة الجيلابي[23] الذهبية. لن يقطعها بفظاظة. لن يذل نفســـه أو يتصرف مثل إنسان بدائي. راح يكســـر قطع الجيلابي ويطعمها لرقيب ويلعق أصابعه حيث انساب السائل السكري.

قبـــل أن يخرجـــوا اليوم كان المفروض أن تقص شـــعره. فهي دائمـــا كانت تزيل أجزاء منه. البشـــرة الميتة حول قدميه. أظافر

---

(٢١) راز مالي: طبق حلوى معروف في شبه القارة الهندية ـ المترجم.

(٢٢) جولاب جامون: نوع من الحلوى. المترجم.

(٢٣) جيلابي: نوع من الحلوى. المترجم.

إصبع القدم. أظافر يده اليمنى لأن يده اليسرى يمكنها أن تقوم بالمهمـــة كما ينبغي. وأظافر يده اليســـرى لأنها ربما تقوم بذلك أيضا مادام المقص بحوذتها. الشـــعر الناتئ الذي كان ينبت أعلى أذنيه. والشـــعر في رأسه مرة كل ســـتة أسابيع عندما كان شانو يقول: «يستحسن أن تؤنقيني قليلا».

أحكمـــت حول الطفل حزام مقعـــده وأعطته قطعة من الخبز ليمضغها. كان شـــانو يجلس إلى الطاولة بكتـــاب مفتوح ويضع خطوطا تحت بعض المقطوعات بينما كانت تشـــذب الشعر حول قفاه. لن يستطيع أن يستكمل كورس الشهادة. تساءلت نازنين إذا كان قد حصل بالفعل على شـــهادة من جامعة دكا. ربما كان من عادته أن ينجز الأشياء في تلك الأيام.

قال شـــانو كأنه يقـــرأ أفكارها لقد طفح كيلـــي من الجامعة المفتوحة، إنهم يرســـلون إليك كثيرا من الهـــراء لتقرئيه. ها أنا أعـــود إلى عشـــقي الأول. عرض كتابـــه «الأدب الإنجليزي لدى أعظم كتابه» لقد ســـمعت عن وليم شكســـبير. أجل حتى البنت القادمة من قرية جوريبور سمعت عن شكسبير.

أجابت نازنين: «ذلك صحيح » كلا لن ينتهي من الشـــهادة ولن يحصل على الترقية ولن يســـتقيل من الوظيفة. ولن يتم تجديد الأثاث. ولن يتم بناء البيت الذي في دكا. ولن تبدأ أعمال الخيش. حتى المكتبة المتنقلة التي من أجلها طاف شانو من باب إلى باب، ستصبح في طي النسيان.

قام شـــانو ببعض التحضيرات في مؤخرة حلقة «هل سمعت عـــن الملك ريتشـــارد الثاني؟ ليس من الســـهل هكـــذا ترجمتها.

أمهليني دقيقة واحدة إنها مقطوعة رائعة». «لو ذهبت إلى الكلية مع راضية، سيتسنى لك أن تقول بالإنجليزية».

«لفهم شكسبير؟ بالضبط على هذا النحو! هل ذلك ما تتعلمه راضية؟»

«أزالت نازنين بعض الشعر بالفرشاة من على كتفيه ولفته في قطعة من ورق التواليت.

أوه! هكذا كنت عظيما مثل حزني

أو أقل شأنا من اسمي

أو أنه يمكنني نسيان ما كنت عليه

أو عدم تذكر ما لا بد أن أكونه الآن

كلا لن يستطيع أن ينسى المكتبة. سيتذكرها دائما مع البقية. ستظل على القائمة ولن يكون لها أن تنسى.

عيناي ممتلئتان بالدموع، ليس بوسعي أن أرى

ومع ذلك فالماء المالح لا يعميهما كلية

بوسعهما أن تريا ما يشبه الخونة هنا

والأنكى أنني لو حولت عيني على نفسي

لوجدت نفسي خائنا مع البقية.

أغمض شانو عينيه. بدأ يغمغم. راح ينقر على الطاولة كأنها طبلة. كان رأسه يتمايل مع الإيقاع، لذا اضطرت نازنين إلى أن تتوقف عن القص. عندما فتح عينيه نفض نفسه مثل كلب مبلل.

قال « إذن فلنواصل».

أسقط الرضيع خبزه وشرع يبكي. قال شانو: «انظري كم هو سريع الإحباط».

اعتقدت نازنين أنه يستطيع أن يرى. يستطيع أن يعلق. لكن ليس في وسعه أن يتصرف. ذهبت لتلتقط الخبز. مضغه الرضيع وهدأ. هدأ شانو. اهتاج المقص واهتاج. كانت تسمع الهواء وهو يدخل أنفها ويخرج منه. معدتها كانت تتذمر لأنه في أيام الآحاد. ومع وجود شانو بالقرب منها لم تكن تأكل كثيرا.

لقد فاتتها صلاة الصبح ثانية هذا اليوم. بالأمس فاتتها صلاتا الفجر والظهر. لكن رقيب كان في حاجة إليها. أما اليوم الذي قبله فكان نائما وكانت هي تتصفح مجلة. لم يكن ثمة عذر لهذا اليوم. غير أن عقلها أحيانا كان يتجول على هواه. كانت تتصفح في مجلة، مجلة إنجليزية تركها شانو. ثمة صورة لاثنين متزلجين على الجليد. كانت المرأة تقف على ساق واحدة. جسمها والساق الأخرى في وضع أفقي. ذراعاها ممدودتان وممسكتان بيد الرجل، لكنها كانت تتطلع وتبتسم في وجه نازنين. كان وجهها موشى بالترتر، ذا لون فضي وأزرق، وساقاها طويلتين كالبادما[٢٤]. كانت مخلوقا يشبه الحوريات، إلهة هندية. دخلت نازنين الصورة وأمسكت بيد الرجل. كانت مصعوقة أن تجد نفسها تتنقل على الجليد بساق واحدة، وفي سرعة مروعة. كان الرجل يبتسم ويقول: تشبثي جيدا. ثمة حلي صغيرة خضراء كانت تتلألأ في حلته السوداء. اعتصرت نازنين يده. راحت تشعر باندفاع الرياح على خدها. والعضلات في فخذيها تتلوى. كان للجليد رائحة الزيزفون والهواء البارد جعلها تتدفق بالدفء القادم من قرارة نفسها. ثمة تصفيق. لم يكن في استطاعتها أن

(٢٤) بادما: قناة من نهر جانجز بشمالي الهند.

ترى الجمهور غير أنها كانت تسمعه والرجل ترك يدها لكنها لم تخف. أنزلت ساقها وراحت تواصل التزحلق. إلى أن استيقظ رقيب ونظر إليها في ارتياب. قالت له «أجل، أمك امرأة حمقاء». لكنها سارت إلى المرآة وراحت تحدق في وجهها الصارم والخدين العريضين والجبهة الكبيرة والعينين المطبقتين ذواتي الرموش المتنتفة. وتعجبت هنيهة مما رأته. لم يكن عقلها مستقرا. كان يحاول انتزاعها من هنا وهناك.

كلما تلقت خطابا من حسينة، كانت تتخيل نفسها على مدار اليومين التاليين امرأة مستقلة هي الأخرى. كانت الخطابات طويلة ومفصلة. كانت نازنين تنقح وتعيد تنقيح ردودها إلى أن يصبح الأسلوب مقنعا. جميع الأخطاء تحذف مع أي إشارة ضرورية. أما حسينة فكانت تركل جانبا كل هذه الالتزامات: خطاباتها كانت تعج بالأخطاء وتفيض بالحياة. أما هي فكانت تخلل نفسها بين الكلمات وتتركها تلفها عبر سبعة بحور إلى دكا حيث تعمل بجانب أختها. رقيب كان يأتي أيضا. أحيانا، آخر النهار كانت تفاجأ بعودة شانو إلى البيت. عندئذ أخذت على عاتقها عهودا، صلاة منتظمة، شغل بيت منتظم، ستكف عن الأحلام. أرسلت خطابات سريعة ووافية إلى حسينة. كانت تقول لآما التي كانت دائما تلاحظها: «انظري كم أصبحت جيدة».

لقد انتهت من قص الشعر. ثمة ثلم طفيف في أحد الجانبين غير أن شانو لم يكن ليتفحصه. قال: «انفخي في قفاي». نفخت ونفضت الشعر بأظافرها. قال: «لن نتعطل هنا مزيدا من

الوقت»، بينما هز إصبعا. حبست أنفاسها. سنخرج في جولة. اذهبي وافردي عربة الطفل.

كانت لاتزال ترى راضية. شيفالي كانت تحب اللعب مع الرضيع. أعطته مجموعة دمى ورؤوس وراح يقرص في كل واحدة تباعا. كان طارق أكثر أو أقل صمتا هذه الأيام. نسخة ثماني سنوات من أبيه. قالت راضية: «يجب أن أحلق شعره من جديد». كان طارق يهرش في شعره الخشن. «إنهم يلتقطون القمل قي المدرسة».

قال طارق «هل لي في بعض النقود؟» ثم رفس أخته خلسة.

«ليس معي أي نقود. دع أختك وشأنها».

«أريد خمسة جنيهات».

«ماذا؟ اذهب والعب بعيدا. اركض بعيداً».

«أريد خمسة جنيهات».

«لماذا؟»

تنهدت راضية وأشارت إلى الرضيع «إنهم أهون بكثير عند ذلك العمر».

«أريد كرة».

«عندك كرة».

«أريد كرة حقيقية». كان هذا أكثر ما سمعته نازنين يقوله على مدار فترة طويلة. كان يبدو أنه في نوبة حراسة، حاسما إلى درجة أنه يكاد يعتبر مفاجأة أن تسمع صوت ابنها.

كرر: «أريد كرة». منتحبا هذه المرة.

«أريد خمســـة جنيهات» قلدته راضية وقد تمكنت من صوته بالضبط.

«أريد خمسة جنيهات». انضمت شيفالي. رفسها طارق ثانية وشرعت تصرخ.

صاحت راضية. «اخرجا. أنتمـــا الاثنان. خذ أختك يا طارق وامـــش والعـــب فـــي الطرقة. لو ســـمعتها تصرخ ســـوف أجلد ظهرك».

خرجا وشـــرعا يتشـــاجران وراء الباب. جلست راضية على الأرض وحملـــت رقيب على حجرها. فرد نفســـه وقرص أنفها. احولت عيناه وهو ينظر إليها. قالت راضية ســـوف أخنق هؤلاء الأطفال. لقد طفح كيلي منهم».

كانت نازنين تعلم أنها لم تكن لتتحدث عن رقيب بتلك الطريقة. «ولســـوف أشـــنق زوجي هو الآخر. إنه يمكث طـــوال النهار في المصنع ويرجع إلى البيت من أجل أن يأكل وينام ساعتين أو ثلاثا ثم يخرج مرة ثانية طوال الليل».

قالت نازنين: «لماذا، أين يذهب».

«إنه يقود شـــاحنات. يســـلم اللحم إلى جزاري الذبح الحلال الموجوديـــن هنا. عندمـــا يدخل تفوح منه رائحـــة نتنة. الوظيفة الجيدة لا يمكث فيهـــا طويلا». وضعت يدها في جيب بنطلونها وأخرجت مصاصة. صعق الرضيع. كل ما تسنى له أن يفعله كان مضحكا. أزالت راضية غلاف الحلوى وأعادته إلى جيبها. كانت ترتدي ثوبا تسميه بزة سباق. فهي لن ترتدي أبدا الساري ثانية، هكذا قالت. لقد سئمت من السير بخطوات فرخ صغير.

«مــن الجميل للرجل أن يعمل. لا مانع لدي. دعيه يعمل أربعا وعشرين ساعة يوميا».

راحت راضية تلوح بالمصاصة أمــام وجه رقيب. راح يراقبها فــي وله. لقــد أصبح تابعا لهــا. من أجلها ســوف يضحي بكل شــيء. «لكننا لا نرى بنســا واحدا زيادة. ذلك وجه اعتراضي. إنه يرســلها كلها. إنه أبخل البخــلاء. أبخل البخلاء الأوغاد. لو احتاج الأطفال إلى فرشاة أسنان، يجب علي أن أتوسل. يجب أن أحصل على كل شيء مستعمل. هل يتوقع أن أطفاله لديهم فرش أسنان مستعملة؟ ليس في وسعي أن أمنحهم كل شيء».

وضعت المصاصة إلى شفتي الطفل. راح يهدل برفق فوقها.

«كل النقــود تعود إلى الوطن. لا أدري مــن يعتني بها. أخوه، أغلــب الظن. وأغلب الظن أن أخاه وغد ســارق. أعتقد أننا لن نرى أبدا هذه النقود مرة ثانية».

نظــرت نازنــين حولها. كانت الحجــرة تعج بأشــياء. أثاث، ســرير طارق، دراجات، ملابس، ســلم نقالي، علب بلاســتيك، لعب، أحذية، علب طلاء، رصات ألواح خشــبية، ســخانات غاز، سخانات كهربائية، ســجادات، حقائب لنقل الأغراض. مخزون احتياطــي من الأرز، هرم من الطعــام المعلب. كان هذا أكثر مما يحتــاج إليه قروي عــادي طوال حياته. كان طفــل القرية يعتبر محظوظــا أن يكون لديه كرة. وأن يكــون لديه كرة ودراجة فهذه رفاهيــة. أما أن يكون لديه كرة ودراجة وكومة من اللعب بجانبها فهذا أمر لم يســمع عنه. ومع ذلك لم تتذكر نازنين أن الأطفال يشكون، لم تستطع أن تتذكر هي نفسها تشكو.

أردفت راضية «قلت له صراحة، افتح كيسك يا ابن ... وإلا». كان السـباب جديدا أو أن راضية كانت مرتاحة معها في ما يكفي لكي لا تتراجع. إن الراشدين كانوا يتذمرون بالطبع من وقت إلى آخر. فالنجار في حاجة إلى منشار حديد وصانع الأحذية في حاجة إلى زبائن جدد. (كل هؤلاء الأطفال يعدون هنا وهناك حفاة!) الحلواني يشكو من سعر الفستق. غير أنهم لو حظوا بكرسي وطاولة وطعام يأكلونه كل يوم ساعتها سوف يحمدون الله.

«سأحصل بنفسي على وظيفة. لقد أخبرته صراحة». نظرت راضية إلى نازنين ليس من زاوية ولا في ارتياب بل وجها لوجه.

قالت نازنين: «أي نوع من الوظائف؟» ففي جوريبور الحلواني حلوانـي وصانع الأحذية صانع أحذيـة. والنجار نجار. وهم لم يرغبوا في أن يكونوا مدرسـين أو أمنـاء مكتبات. لم يكونوا في انتظار ترقيات. لم يتعسوا أنفسهم.

«لقد تحدثـت مع جورينا. هناك وظائف تتـاح في المصنع». قالت نازنين «أوه، السيدة إسلام تقول إن جورينا لحق بها العار. زوجها يرافق نساء أخريات. بدأت العمل والجميع يقول: إنه غير قادر على إطعامها. على الرغم من أنه كان نفسه يعمل فإنه كان يخجل وبسبب ذلك أصبح طائشا وبدأ يرافق نساء أخريات».

أصدرت راضية صوتا كالشـخير: «هل هذا ما تقوله السيدة إسلام؟ دعيها تقل ما تشاء. فلن يمنعني».

«ماذا عن المجتمع؟ إنها ليست الشخص الوحيد».

«هل سـيطعمني المجتمع؟ هل سيشـتري كرات قدم لابني؟ دعي المجتمع يقل ما يقوله فأنا أقول هذا للمجتمع». وطرقعت أصابعها.

«ماذا يقول زوجك؟»

ضيقت راضية عينيها وأخفضتهما على امتداد أنفها المستقيم الطويل إلى الطفل. «السيدة إسلام شخص يتكلم. إنها شخص مناسب للكلام».

«السيدة إسلام؟»

ابتسمت راضية لأول مرة. «إنها صاحبة ألف منديل ورقي».

ضحكت نازنين. «علام كل هذه المناديل؟»

«أولم تسمعي قط؟ أولم ينكشف لك سر المناديل؟»

ضحكة راضية تذبذبت على صوتها العالي المعدني.

«أختاه هل رغت فقط من السفينة؟ فلنر. بعض الناس يقولون إنها كانت مدركة لأنفها. تعرفين أن لديها ثقبا. يقولون إنها بدأت في استخدام المناديل لإخفائه كلما اعتقدت أن شخصا ما يحدق. ولكن من الذي يجرؤ على التحديق في ثقب ساحرة عجوز؟ أقسم إنها كانت ساحرة عجوزا حتى وهي بنت. نظرية أخرى تقول إنه كان لديها عاشق فيما مضى قدم لها هدية من المناديل المسامية، وهي تحتفظ بذاكرة حية الآن خلال مجموعتها. يا له من هراء! أناس آخرون يقولون إنها خرافة. فقد نصح درويش أمها بأن تحبس أنفاسها في قماشة وتنفضها على مبعدة ذراع لأنها كانت ستجلب الحظ العاثر. بعض الناس حمقى إلى هذا الحد».

أعادت راضية رقيب إلى نازنين. كان يمص مصاصته في خبل. قامت راضية وتمطت. انتفخت ركبتي بزة ساقيها. قالت نازنين. «فما هو الأمر إذن. ما هو السبب الحقيقي؟»

«إنه عبارة عن طريقة. هكذا بدا الأمر على أي حال. كان زوجها رجلا ذا شأن يدير أعمالا، كوّن وفرة من المال. كان لديهما منازل يؤجرونها في مختلف الأرجاء. ولديهما في دكا شقتان ومنزل كبير في القرية بأعمدة خرسانية. ومع ذلك لم يكن الزوج سوى الرجل الذي في الواجهة. العقل المدبر كان يخص السيدة إسلام. إنها لم تحتفظ قط بالحجاب. تقول إنها متوافقة الآن إذ يجب أن تسير بالخارج لأنها أرملة. حتى عندما تظل بالبيت لا ترتدي الحجاب. زوجها كان يحضر زملاءه إلى البيت وكانوا يعقدون صفقاتهم هناك. السيدة إسلام كانت دائما موجودة. كانت تظل في الخلفية، تقوم على الخدمة وترتيب المكان. لكنها كانت على علم بالموضوع الذي يجيئون كي يتحدثوا فيه وكانت تتحكم في الخيوط. وكانت المناديل هي الطريقة التي تؤدي بها ذلك. فكانت تعطي إشارة باستخدامها. المنديل المنقط يعني لا. المنديل الأبيض يعني نعم. المنديل ذو الأطراف المسامية لعقد بسنة واحدة.. المنديل القطني السادة لسنتين. تلك هي حقيقة الأمر على أي حال».

هدهدت نازنين رقيب على ركبتيها. التفت كأنه يقول: هل عندك مانع؟

هل أصبحت الآن مجرد عادة درجت عليها؟

قالت راضية: «نعم ولا. مازال ثمة عمل آخر تعكف عليه مع أولادها هذه المرة».

قالت نازنين: «تصدير - استيراد».

هزت راضية رأسها بالنفي. انتظرت نازنين. بدت صديقتها بعيدة. سألت نازنين «ماذا إذن؟»

لست متأكدة مائة بالمائة».

«ماذا تعتقدين؟ »

«لا أريد أن أنام».

كان هذا يمثل أخبارا. «عم؟».

«لا أدري لقد سمعت شيئا من قبل ولكنني لم أصدقه. تكلمت معها في الأسبوع الماضي وأعتقد أنني أصدقه الآن. لكنني لا أريد أن أقول أي شيء؟».

لماذا اضطرت إذن؟ قالت نازنين «لا بأس يفضل أن يظل من دون أن يقال:

استقلوا الحافلة في ميل إند رود. كان الكمساري أفريقيا. همس شانو «انظري كم هو بدين. ضخم جدا وقوي جدا. كما ترين». صمت برهة. انكمشت نازنين في مقعدها. التفت الرضيع دونما تعليق. «إنهم يتناسلون من أجل هذا. العبودية». همس شانو بالكلمة فالتفت الاثنان الجالسان أمامهما. قال شانو متخليا عن همسه: «تلك سلسلة أنسابهم». بدأت الحافلة تتحرك. حالت ضوضاء المحرك بينه وبين مخاطبة جميع الركاب. «الأقوياء فقط يبقون على قيد الحياة. الأشخاص الأقوياء فقط هم المطلوبون، فهم يحققون أعلى الأسعار. التجارة والانتخاب الطبيعي يعملان يدا بيد».

لم تعلم نازنين عما كان يتحدث. بدأت في الرد عليه هكذا «إذا قلت ذلك يا زوجي». كانت تقصد أن تقول شيئا آخر بهذا. أحيانا تقصد أنها لا تتفق معه وأحيانا أنها لا تفهم أو أن ما يقوله كلام فارغ، أحيانا تقصد أنه مجنون. لكنه كان يسمع ذلك فقط في عبارة «إذا قلت ذلك».

اســتقر شانو في مقعده. كان كوعه مغروزا في جنبها لكنه لم ينتبه. قــال «آه، إنه اليوم». علت وجهــه علامات الحيرة. «ماذا عساي أن أقول عندما يفتح الباب؟».

جاء دور نازنين لتتحير. حتى زوجها كان عليه أن يتدبر ذلك. تجرأت «سلام عليكم؟» ضحكت وزم الرضيع شفتيه.

بدا شانو مثل رجل فزع من نومه «ها؟ أوه، ها! أجل سلام وما شابه. ماذا عساي أن أقول؟» راح يلوك شفتيه.

هزت نازنين كتفيها بينها وبين نفسها. راحت تراجع حقيبتها وأن معها كل ما يلزمها للأمســية: مناشــف، أطباق مسطحة، خشخيشــة. قماش الموصلــين. موز، ملعقــة، أغطية، بيجامة لرقيب. سوف تغير له ملابســه في منزل الدكتور آزاد وتتركه ينام على كتفها في طريق العودة. أوقفت الرضيع على ركبتيها فتســنى له أن ينظر خارج النافذة معها. كان الوقت ليلا ودافئا بفعــل أعمدة الإنارة. الناس محشــورون فــي معاطف كبيرة، وينفســون البخار وهم يســيرون. الأضواء الأمامية والأضواء الخلفيــة الحمراء حولــت الطريق إلى كرنفــال زاحف. كانت الحافلة تعلــو وتهبط على امتداد الطريــق. والمحلات لاتزال مضاءة. محلات جلود، محلات ملابس، محلات ساري، محلات تبيع السمك والبطاطا والساموســا[٢٥] والبيتزا ونزر يسير من كل شيء من مختلف أنحاء العالم. محال بيع الجرائد، محلات خردوات، بقالات، محلات تبيع الكحوليات، محلات فاترنياتها مكدســة بمقاعد وشباشب وأشرطة كاسيت وتبدو أنها لا تبيع

(٢٥) ساموسا: فطيرة هندية مثلثة الشكل تحشى بالبطاطس أو الخضراوات. المترجم.

شــيئا ولكنها دائما مكتظة بالرجال الذيــن يرتدون البيجامة البنجابيــة بينما يدخنون ويداعبون لحاهم. بين الأضواء كانت ثمة قــطع ســوداء حيــث ظلــلت الفاترينات بألــواح خشــبية. أو حيث علقت علامة «للبيع». ثمة امرأة ترتدي معطفا برتقاليا ضخما شــدت زمامه حتى مقلتي عينيهــا، كانت تمرق داخل وخارج الزحام. بينما تلم ساريها بيد وتضع يدها الأخرى على صدرها. كانت أبواق الســيارات تعمل معا مســتحثة إياها بأن تســرع. قال شــانو «أنا فقط لا أدري، أعتقد أنني سأقول له مباشرة: لقد أحضرت علبة كالوجام[٢٦]».

قالــت نازنين: «إذا قلت ذلك يا زوجــي» لقد تخلت عن ردود أفعالها الأسرية التي لمحاربي العصابات. فهي لم تكن تزعج أحدا سواها إضافة إلى أن الشــقة أصبحت مكدسة بأشياء مركونة، والرضيع يســتهلك وقتا طويلا جدا إلى حد أن ذلك يصعب معه إمكان أن تتدبر أمرها لتظل برأســها فوق ســطح الماء. لم يكن لديها وقت للتخبط.

«سيكون هذا حسنا، إنني أتطلع إلى هذا». ابتسم في ارتياب كأنه يجرب ابتسامة للمرة الأولى. كان يرتدي سترته الخضراء. السترة بالقلنسوة. بنطلونه كان باهتا على الركبتين. ونعل إحدى فردتي الحذاء انفكت خياطته (لاحظت ذلك في موقف الحافلة) عندمــا تزوجا للوهلة الأولى إن لم يكن وســيما، كان على الأقل ذكيا. كان يؤنف نفســه قبــل الذهاب إلى العمــل ويضع قلمين جافــين وقلما رصاصا في جيبــه العلوي. كان يلمع حذاءه ويلمع

---

(٢٦) كالوجام: طبق حلو يعتمد بشكل أساسي على اللبن في إعداده. المترجم.

حافظة أوراقه. تلك الأيام التي كان يتحدث فيها عن «متى». متى ستأتي الترقية.

«يمكنني القول إننا كنا فقط مارين».

نغز رقيب أنف أبيه. استسلم شانو وترك أنفه يقرص وشعره يشد. كان الرضيع يرتدي جاكتا أزرق مزودا بطبقات كثيرة تحته على حد أن ذراعيه كانتا مرفوعتين في الهواء، كان سميكا بما يكفي ليرتكزا عليه. أظهر أسنانه، جميع الرقاقات العاجية الأربع، ثم نخر. استوعبت نازنين ببطء الكلمات. فقط مارين. بعد كل محاولات شانو لم يكونا حتى مدعوين. لماذا زوجها أبوها من هذا الرجل.

لقد أراد أن يتخلص مني فقط. لقد أراد أن أبتعد حتى لا أمثل له أي مشكلة. لم يكن يأبه بمن يقتلعني من يديه. لو كنت أعلم ما سيكون عليه هذا الزواج، ما سيكون عليه هذا الزوج...! ماذا؟ ماذا إذن؟ يجب علي أن أهرب مثل حسينة؟ يجب علي أن أهرب مع الكناس؟ هاه. لقد بكيت في يوم زفافي بكيت بالفعل. ولكن أي فائدة عاد بها هذا؟

أمسكت رقيب في حجرها وراحت تهدهده إلى الأمام والخلف. على الرغم من أنه لم يكن نعسا. ثمة رائحة حادة وساخنة قدمت من الخلف. بمجرد أن جلس راكب جديد بوجبة ملفوفة بالورق. كان الضوء داخل الحافلة منتشراً. راح يطن ويطقطق ويرشح بتلوث أصفر. حتى وجه رقيب كان يبدو معتلا في هذا الضوء. دق الجرس مرتين بسرعة وبراعة وبدا مستعجلا على السير. كانت الحافلة تصطك على امتداد الطريق والمقاعد تتذبذب

بجهامــة كأن إعصــارا مر للتو خارج النطــاق. كانت مهمتها أن تجلس وتنتظر، حتى لو كان هناك إعصار يتجه نحوها. بالنسبة إليها لم يكن ثمة شيء تفعله. لا شيء آخر يريد الله أن تقوم به. أحيانــا كانت تريد أن تصحو وتهرب. فــي أغلب الوقت لم تكن ترغــب في الهروب ولا هي مع ذلك كانــت ترغب في أن تجلس ســاكنة. كم كانت صعبة مســألة أن تجلس ساكنة. ولكن لم يكن ثمة شــيء في واقع الأمر تشــكو منه. فهناك شــانو الذي كان عطوفا ولم يضربها قط. وهناك رقيب وهناك ذلك الشيء الذي ليس له شــكل ولا اســم والذي يزحف عبر كتفيها ويعشش في شعرها. ويسمم رئتيها ويجعل منها كسولة وضجرة. سألته ماذا تريــد مني؟ ماذا تريد؟ همس مســتهجنا. طلبت إليه أن يتركها وشــأنها غير أنه لم يكن ليفعل. تظاهرت بأنها لا تســمعه غير أنه طفــق أعلى صوتا. عقدت صفقات معه. ســأكف عن الأكل منتصف الليل سأكف عن الحلم بالجليد والألواح والترتر. سأكف عن إضاعة الصلوات. سأكف عن النميمة. سأكف عن الاستهزاء بزوجي. قدمت له كل هذه الأشياء لقاء أن يتركها وشأنها. أصغى في هدوء ثم راح يتوغل في أعضائها الداخلية. ربما خلصت إلى الاعتقاد بأن كل شخص لديه واحد وتتمثل الخدعة في تجاهله. أعطه ظهرك. مثلما قالت آما: «لا أريد شيئا من هذه الحياة. لا أبتغي شــيئا ولا أنتظر شيئا» وأثبت حسينة عند سماع ذلك. «لو لم تبتغ شيئا ربما لا تحصلين على شيء!» غير أنها أثبتت غاية أمها. كيف يتســنى لي أن أكون مخيبــة الرجاء؟ «أصبح مفهوما بالنسبة إلى نازنين. ثمة شيء واحد لم يكن واضحا. سبب معاناة

آما. «ســوف نعاني في صمت». قامت أخت آما بزيارة طويلة في صيف السنة العاشرة من عمر نازنين. كان الهواء ساخنا ورطبا، كأنه تشرب عرق أجساد لا تحصى. كان يرشح أيضا بالعار. لقد تملكت مصطفى راعي البقر روح شــريرة. هذا الشاب الصغير بذراعيه وساقيه التي تشبه أعواد الثقاب، الشظية المتحركة. قد اختطف فتاة من القرية المجاورة واقتادها إلى الأدغال ثلاثة أيام بلياليها.

قالت آما «في ســكوت» بصقت أختها في استغراق وراجعت الســوابق. كانت المرأتان تجلســان بالداخل بمنأى عن الشمس. وقفت نازنــين في الطرقة في معين من الضــوء. ما الذي كانتا تكابدانه؟ أرادت نازنين أن تســأل. أبوها لم يكن أغنى رجل في القرية لكنه كان ثاني أغنى رجل.

قالت الخالة: كل ذلك باق لنا في هذه الحياة. لقد تعلقت بآما عندما وصلت وراح كلاهما يبكي طويلا وبحرقة. حتى أن نازنين خشيت أن يكون شخص ما قد مات. فضلت نازنين ممتاز، أخت آبا التي لم تكن امرأة للبكاء لكنها كانت تنأى بنفســها أثناء هذه الزيارات الطويلة.

«نحن مجرد نساء ماذا يمكننا أن نفعل؟»

«هم يعرفون ذلك وذلك هو الســبب فــي أنهم يتصرفون كما يتصرفون».

«لقد خلق الله الدنيا على هذه الحال».

«قلت له لن أعود».

«لو استمر على هذه الطريقة فهو كذلك».

«قلت ذلك في المرة الأخيرة أيضا».

«ماذا يمكنني أن أفعله؟»

استمرت المحادثة. راحت تدور وتدور فيما كانت نازنين تصغي بينما تتنفس في هدوء وتأمل في حالة إذا نسين أمرها أنهن يمكن أن يفصحن عن سبب بلواهن. كان شيء يتعلق بأن تكون امرأة. بذلك القدر الكبير كانت متأكدة. عندما تصبح امرأة سوف تعرف. كانت تتطلع إلى ذلك اليوم. كانت تتوق إلى أن تصبح مخضبة بهذا الكرب وأن تتخلص من سراويل الأطفال الفضفاضة والقميص الطويل وتشرع في ارتداء هذه المعاناة التي كانت سخية وبعدة طبقات وألوان داكنة مثل السواري التي تلف عظام آما النافرة.

سحبتها حسينة بعيدا وراحتا تسطوان على مخزن التمر هندي وراحتا تلحسانه مثل حلوى الطوفي اللاذعة ورسمتا على الأكف دوائر بالحنة ولطختاها في التراب بينما يقومان بالوقوف على الأيدي. ضفرت حسينة شعر نازنين ونازنين صنعت من شعر حسينة ضفيرتان غليظتان ولفتهما أعلى رأسها.

بدت حسينة كأميرة. وجهها لا ينقصه شيء. متناسق وأسطوري. لم تكن تنتمي إلى هذا العالم. زهرة لوتس فوق كومة روث. إنها لم تخلق لتعاني.

في ذلك الأصيل الذي خدرت فيه الشمس القرية برمتها فراحتا تستلقيان بالخارج على التشوكيات أو فرشات النوم أو الأرض، لم تكن نازنين متعبة. سارت بالقرب من البحيرة وداست على الظهر الفضي لحية انسلت إلى الماء وأصبحت نفسها عبارة

عن موجة لامعة صعدت بعض الشـــيء شـــجرة وأقحمت نفسها في فرع بشـــكل شوكة لتطل عبر الحقول المستوية. كانت الحقول القريبة وافرة الخضرة كثيفة وداكنة، أما الحقول البعيدة المملوءة بأزهار الجوتة الذهبية فكانت ملســـاء كالمرايا صقلتها الشمس حتـــى طفقت تلمع. تســـاءلت لو تزوجت ســـتضطر إلى الابتعاد إلـــى ما وراء هذه الحقـــول. اعتقدت أنها لن تـــود أن تبتعد كل هذه المسافة. ثم نزلت وســـارت قليلا على امتداد الطريق الذي يؤدي للمدرســـة التي تســـتقبل التلاميذ من أقـــرب ثلاث قرى. كان صندلها يثير ســـحبا من الغبار وســـديما من الذباب يحجب الهواء فوق أخـــدود. التصق القميص بظهرها كأنها تســـير في حمام غير مرئي. فقط الذباب وحده كان يتحرك. الطيور نامت. حتى اليعسوب الضخم الذي انكفأ استلقى مصعوقا في الطريق وأجنحته متقدة.

«بش!».

التفتت نازنين ثم استدارت عائدة.

«بش!».

ثمة رجل ميت مربوط في شـــجرة. رسغاه مربوطان في فرع وقدماه تتدليان على مبعدة بوصات من الأرض. رأســـه مطقطق للأمـــام كأن الرقبـــة مقصوفـــة... قال في حشـــرجة «اقتربي» سمعت نازنين نفسها وهي تبلع ريقها... أحست بلعابها يسيل في مؤخرة حلقها. كان الرجل يرتدي مئزرا أبيض باليا. ساقاه ركبت عليهما مفصلات كبيرة للغاية. ضلوعه تشبه دجاجة ذبيحة. كان مصطفى راعي البقر ولم يكن ميتا كلية.

خطت مقتربة من الشجرة. صمت. تقدمت مرة أخرى. مازال ليس هناك شـــيء. لكنها عندما اقتربت بما يكفي لتراه يتحدث ثانية. رفع رأســه هذه المرة. عيناه تجحظان من وجهه وشــدقا فمه مغطيان بطبقة سميكة من شيء أبيض. «فكيني أيتها الفتاة الطيبة» كان يتحدث كأنه اســتمتع بلعبتهم غير أنه قد آن للمزاح أن ينتهي. وضعت نازنين يدها على جذع الشجرة. لم تجد طريقة لتســلق الشجرة حتى تصل إلى رســغيه. لم تعرف على أي حال إذا كانت ستتسلقها... كان مصطفى يعاقب. دحرجي صخرة إلى هنا إذن. أو زند شــجرة، سيكون ذلك أخف. ضعيه تحت قدمي. كان صوته يطقطق ويتكســر لكنه بدا غاضبا منها عندئذ. تدلى رأسه مرة ثانية وســمعته يزفر. سارت حول الشجرة ثم جلست علــى جذع. كان مصطفــى يبدو من الخلف مثل دمية خشــبية ببعض الخيوط المقطوعة. تساءلت إذا كان سيموت كما شاهدته. وهل ســتعرف أنه مات. لم تكن ترغب في أن يموت. لكن لم يبد التدخل في مثل هذا الحدث الجلل ممكنا. خطر ببالها أن الناس ربما يغضبون إذا قامت بتخليص هذا الرجل الذي يعاقب، ولكن لم يكن ذلك هو السبب الذي كتف يدها. إن مسائل الحياة والموت كانت ببساطة تستعصي على فهمها.

بعد فترة وعندما راح ظهرها ينمل من الجلوس وبدأت تشعر بالعطش. فكرت في شــيء يمكن أن تفعله لأجله ســوف تذهب وتجلــب بعض المــاء. بدا مصطفى أنه راح فــي النوم. هزته من كاحله فراح يئن. قالت « ســوف أذهب من أجل الماء». ثم أردفت «يمكنني أن أحضر لك بعض شراب جوز الهند البارد أيضا».

شــرعت في العدو وقررت لو أنه بقي على قيد الحياة عندما تعود ســوف تجد طريقة لتسلق الشــجرة وتنزلها. استفطنت أنه لو ظل حيا فلقد نجا على أي حال ولن تفســد أي شيء. ولسوف تطلع حســينة على السر لو تســنى لها أن تجدها. لكنها لم تكن لتخبــر آما. لو كان آبا هناك لن تنتظر إليه فربما قرأ شــيئا في وجههــا. وربما قد أمر هو بالعقوبة ولم ترغب في أن تعاقب هي الأخرى. مر عليها ثلاثة رجال في الطريق الضيقة يحملون ألواحا خشــبية. أحدهم أخو الرجل من القرية المجاورة الذي اختطفت ابنته. كانوا يتضاحكون ويمزحون عندما مروا وهزوا عصيهم في ابتهاج كأنهم على وشك أن يلعبوا الكريكيت. عندما التفتت نازنين رأتهم يتجمعون بجوار شــجرة مصطفى. ثلاثة أشكال بلا ملامح يؤدون على البعد رقصة بطيئة مع شريك ملفوف بالخيوط.

انتهــوا إلى حديقــة أمامية صغيرة مكســوة بأحجار رصف متعددة الألوان وفي أشكال وأحجام عشوائية، كأن زهرية ضخمة ســقطت من ارتفاع كبير ونزلت الشظايا المنشطرة مباشرة أمام المنزل. تحت النافذة ثمة إوزة من جص بقلنســوة حمراء منقطة تحدق في الظلام. بجوار الباب تماما يوجد شــرطي طوله ثلاث أقدام يقوس رجليه المرحتين ويتظاهر بابتســامة. ثمة أشــكال أخــرى كانت تربض في الظلام. حيوانات بأشــكال غير مألوفة وأناس مذهولون. المنزل نفســه لا يشــي بشــيء. كانت الأنوار مضاءة والستائر مسدلة.

قال شــانو «حيازة مهمة. تحدث في همســة». هذه المنطقة محترمــة جدا. لا يوجد أحد من الســلحتيين خاصتك هنا. إذا

رأيت وجها بنيا يمكنك أن تضمني أنه ليس من سلحت.

حملت نازنين رقيب على فخذها. تساءلت هل سيدق شانو جرس الباب أو أنهم سينصرفون فقط ثانية ويركبون الحافلة.

قال شانو: «لن نمكث طويلا. سنقول بضع كلمات ثم نذهب». ضغط على جرس الباب فعزف نغمة مفزعة. «طبعا لو طلبوا منا أن نبقى للعشاء فلا مانع عندي».

انفتح الباب. ثمة امرأة ترتدي تنورة أرجوانية كانت تستند إلى عضادة الباب. فخذاها يختبران القماش. وتحت أطراف التنورة ركبتان مجوفتان. ذراعاها مطويتان تحت ثدييها. ثمة سيجارة تتوهج بين أظافر مطلية بلون أرجواني. كان لها أنف كبير وعينان تبحثان عن مشاجرة. شعرها قص قصيرا مثل شعر رجل وكان مخططا بنوع ما من طلاء باهت اللون.

قالت بالإنجليزية: «نعم».

همس شانو لنازنين «أعتقد أننا أخطأنا المنزل».

قالت المرأة بالبنغالية «عم تبحثان؟ »

«أستميحك عذرا. كنا نبحث عن الدكتور آزاد. هل تستطيعين أن تدلينا على منزله؟»

«يمكنني أن أدلكما عليه بالتأكيد. إنني واقفة فيه بالضبط».

الفصل الخامس

أبيض

أرشــدتهما إلى حجرة الجلوس، حيث أسدان يحرسان شعلة غاز. غاصت نازنين داخل أريكة كبيرة ذهبية. وضع شــانو علبة الكالوجام خاصته على طاولة مذهبة ذات أرجل مخلبية ثم وقف ويداه خلف ظهره كما لو كان يخشى أنه ربما يكسر شيئا. صفق رقيب بيديه السـمينتين ليسـتدعي الخدم الذين كانوا بالتأكيد قابعين في المطبخ. أطفأت مدام آزاد سـيجارتها في طبق صاج. قالت «دقيقة واحــدة» ثم انطلقت إلى الردهــة. صاحت «آزاد! عندك ضيوف».

تبادلت نازنين نظرة مع زوجها. رفع حاجبيه وابتســم. كبحت جمــاح قهقهة على خد رقيب. اعترشــت مدام آزاد في كرســي بذراعين. وضعت رجلا على رجل فانحسرت تنورتها عن فخذيها السـمراوين الكبيرتين. ترنح شــانو قليلا. راحت نازنين تحدق إلى السـتائر: أميال من المخمــل تتدلى مجدلة بالذهبي، قماش كفيل بلف برج سكني. تنحنح شانو. دست أصابعها تحت إبطها. وضغطت على نهديها. راح الرضيع يتلوى فوضعته على السجادة الوثيــرة التي بلون الزبدة حيث تقيأ بعضا من عشــائه. وضعت نازنــين قدمها على البقعة. رويدا رويدا أدركت نازنين أن زوجها يحدق في شيء أعلى كتفها. عندما أدارت رأسها رأت أن الدكتور آزاد كان واقفا في المدخل. بدا الرجلان متجمدين. كان الدكتور أنيقــا مثل مانيكان الخياط. كان يضــع يديه إلى جانبيه بأناقة. أساور القميص الأبيض تبرز من بزته الداكنة. ياقته وربطة عنقه تدعمان ذقنه الدقيقة وشــعره كان ممشــطا في لمعان الأبنوس. بدا كأنه رأى شــبحا. نظــرت نازنين إلى شــانو. كان يبدو مثل

شـــبح مسكين في حذائه البالي وســـترته الخضراء ذات المقاس المفرط.

قالت مدام آزاد «بالله عليك أحضر لضيوفك بعض الشراب. فقد كنت واقفة على قدمي طول النهار». قال شـــانو «كنا مارين فقط» وكأنه تذكر النص لتوه.

فرك الدكتور آزاد يديه. «يسعدني أن أرحب بكما. إنني، أها، أخشى أننا بالفعل تناولنا طعامنا، وإلا ...».

قاطعته زوجته «ســـوف تنتظران للغداء». كانت تتحدى نازنين بعينيها المشاجرتين بشدة. أردفت «إننا لم نأكل بعد».

اهتـــز الدكتور آزاد على مشـــط قدميه. «لم نـــأكل على هذا النحو. غير أننا تناولنا بعض الوجبات الخفيفة وما إلى ذلك».

تناولوا العشـــاء على صينية موضوعة علـــى حجر كل منهم. لحـــم مجهول الهوية فـــي مرق فاتر مع بطاطس مســـلوقة. كان يشبه أكل ورق كرتون منقوع في الماء. أدارت مدام آزاد التلفزيون ورفعت صوته عاليا. كانت تنظر بعبوس إلى شـــانو وزوجها بينما يتحدثان وتشيح بيدها عندما ترغب في أن تسكتهما معا. شربت كأسا ثانية وتجشأت في رضا تام. في بادئ الأمر أحضر زوجها عصير برتقال فتواثبت في كرسيها كما لو كانت ستضربه. شرب الدكتور آزاد كوبين من الماء على طريقته المعهودة. كان يســـتخدم سكينه وشوكته مثل أدوات الجراحة. راحت نازنين تلاحق الطعام المندي في طبقها وتمسك بطنها لتمنعه من الدمدمة.

قال شـــانو لمدام آزاد ســـأنضم معك في كأس من الشـــراب. «قـــام بالعرض وكأنه كان يقترح أن يعيرهـــا كليته. هزت كتفيها

واستمرت في تثبيت عينيها على الشاشة.

فكرت نازنين، إن زوجي لا يؤدي صلاته، والآن يشرب الكحوليات. غدا ربما يأكل خنازير.

قال شانو: «فيما يتعلق بكوني رجل طب لا أوصي بذلك، أما فيما يتعلق بالجانب الديني فليس لدي رأي».

«ثم قال بصوت رجل فكر مليا وجيدا» كما ترى أنه جزء من الثقافة هنا. إنه متأصل في بنية المجتمع. هناك في الوطن إذا شربت فأنت تخاطر بكونك منبوذا. وفي لندن إذا لم تشرب فأنت تخاطر بالشيء نفسه. ذلك عندما يصبح الأمر خطيرا، وعندما يبدأون من الصغر يمكن أن ينتهي بهم الأمر ليصبحوا سكيرين. بالنسبة إلى وبالنسبة إلى زوجتك لم يحدث ضرر. «تطلع إلى مضيفته غير أنها كانت مندمجة في مشهد تقبيل مسعور وعنيف. كان شانو لم يزل مرتديا معطفه. جثم على الكرسي وركبتاه متباعدتان بينما كاحلاه متقاطعان. كان يبدو مثل بستاني قد دخل ليحصل أجره.

تعجبت نازنين وليست للمرة الأولى ما الذي يجعل الدكتور آزاد يستمر في الحضور إلى شانو. لقد كانا شخصين متنافرين. ربما كان يأتي من أجل الطعام.

«سوف نكون في دكا قبل أن يحيق بروكو أي خطر. لقد رسمت تصميمات للمنزل، ألم أقل لك؟ بسيط جدا وكلاسيكي جدا في تصميمه. لقد اعتزمت أن أكون مهندسا معماريا بنفسي».

قال الدكتور «نعم، لم لا تكون مهندسا معماريا؟»

«بالضبط، ما المغزى من أن تدفع نقودا لشخص آخر؟»

«كن مهندسا معماريا. كن مصمما. كن عالم صواريخ»

بدا شـانو مرتبكا «مصمما يمكنني أن أفكر في ذلك، أما في العلوم فأعترف أنني لدي خلفية بسيطة للغاية».

بسـط يديه في تواضع. «على أي حال ليست لدي اعتمادات مالية كافية للمنزل بعد».

«أه، ولكن عندما تأتي الترقية..........».

كان الدكتـور آزاد يجلـس منتصبا على كرسـي ثابت الظهر ويمسـك بالذراعين كأنه سـوف يعصـر الدم منهما. وبسـبب الموضوع المتعلق بالمشروبات لم ينظر إلى زوجته مرة واحدة.

«لقد كنت في المجلس فتـرة ممتدة، خدمة طويلة لم يميزها شيء. إن زمار الحي لا يطرب. غير أنني لدي بعض الأشياء في خط البيع. مشروع أو مشروعان أقوم بتطويرهما. تجارة الأثاث، أنتيكات، ، بعض الأفكار الخاصة بالتصدير والاستيراد.. المشكلة كبيرة. إذا لم يكن عندك نقود فماذا تستطيع أن تفعله؟

ابتسـم الدكتور بطريقته المميـزة، الحاجبان إلى أعلى والفم إلى أسفل «أكسب بعضا منها».

«لسـت في حاجة إلى الكثير. فقط ما يكفي للمنزل الذي في دكا وبعض النقود تبقى من أجل تعليم روكو. لا أريده أن يفسـد هنا مع كل حليقي الرؤوس والسكيرين. لا أريده أن ينشأ في هذا المجتمـع العنصري. لا أريده أن يـرد على أمه بوقاحة. أريده أن يحترم أباه» أصبح صوت شانو ملتهبا بالعاطفة. استهجنت مدام آزاد وأشاحت بيدها المخلبية الأرجوانية. قام شانو بهمسة عالية «الطريقة الوحيدة هي أن تعيدهم إلى الوطن».

دخلت فتاة ثم وقفت وسط الحجرة ويداها إلى أردافها. لقد ورثت عن أمها ساقيها القويتين غير أن تنورتها كانت أقصر ببضع بوصات. تحدثت بالإنجليزية. استطاعت نازنين أن تلتقط كلمات pyb وmoney. نخرت أمها ولوحت باتجاه الدكتور آزاد. ارتعش الدكتور. تكلم بضع كلمات حادة. ارتفعت كتفاه حول أذنيه. تزحزح شانو في كرسيه وسعل. كانت الفتاة تمضغ علكا بينما تعبث بالحلية التي في أنفها مثل بثرة على وشك أن تعتصرها. شعرها كان ملطخا بالمادة الصدئة نفسها التي خططت رأس أمها. كررت مطلبها. بدأ شانو يهمهم. أصبح ظاهر عنق نازنين دافئا. أنشأ الدكتور يتحدث غير أن زوجته أشاحت بيديها. جاهدت للنهوض من الكرسي ذي الذراعين وأحضرت حقيبة يد.

أخذت الفتاة النقود. نظرت إلى نازنين والرضيع. نظرت إلى شانو. كان الدكتور يتمسك بكرسيه. قدماه والركبتان مضمومة كل منهما للأخرى. شعره الذي يشبه الخوذة مطبوع بدائرة ضوء. لم يكن ليتخلى عن ذلك الكرسي. لقد كان الشيء الوحيد الذي يجعله منتصبا. دست الفتاة النقود في جيب قميصها وقالت «سلام عليكم». ثم خرجت.

أطفأت مدام آزاد التلفزيون. فكرت نازنين، فلنذهب. حاولت أن تغمز لشانو بعينها لكنه ابتسم لها بغموض في المقابل.

«هذه هي مأساة حياتنا. كونك مهاجرا يعني أن تعيش مأساة».

شرعت المضيفة برأسها. حكت أنفها المنتفخ. «عم تتحدث؟»

«الصدام الخاص بالثقافات».

«أستميحك عذرا؟ »

أردف شانو «والخاص بالأجيال».

«ما هي المأساة؟ »

«ليس المهاجرون وحدهم. لقد كتب شكسبير عن ذلك». تنحنح وراح يســتعد كي يستشــهد بجملته المقتبسة «اخلع معطفك. إنه يمتطي فوق أعصابي. ماذا تكون؟ أستاذ جامعي؟».

نشر شانو يديه. «أحمل شهادة في الأدب الإنجليزي من جامعة دكا. درســت في جامعــة بريطانية - الفلســفة، علم الاجتماع، التاريــخ، الاقتصاد. لا أدعي أنني من النبــلاء المتعلمين. لكنني أستطيع أن أقول لك على نحو مؤكد يا مدام أنني دائما أتعلم».

«فماذا تكون إذن؟ طالب؟ » لم تبد متأثرة. عيناها الصغيرتان المتأججتان بشدة كانتا تبدوان قاسيتين ومبتذلتين مثل الفحم.

«أنــا وزوجك طالبان، بمعنى أن تلك هي الطريقة التي حدث أن عرف أحدنا الآخر بها، من خلال حب مشــترك للكتب، حب التعلم».

تثاءبــت مدام آزاد «أوه، حقــا إن زوجي رجل مثقف جدا. إنه يضــع أنفه في كتاب لأن رائحة الحيــاة الحقيقية تضايقه. لكنه قطع طريقا طويلة. أليس كذلك يا حبيبي؟»

فكرت نازنين، كان يأتي إلى شقتنا كي يهرب منها.

قال الدكتور «نعم». بينما ابتلعت ياقته عنقه.

«عندمــا جئنا أول مــرة - أخبرهم، هيا أخبرهم - كنا نعيش في زريبة بحجرة واحدة. كنا نتعشى على الأرز والدال. أرز ودال.

في الفطور كنا نتناول أرزا ودالا. بالنسبة إلى الغداء كنا نشرب ماء كي نملأ بطوننا. هكذا وصل إلى كلية الطب. والآن، انظر! بالطبع الدكتور مثقف جدا. أحيانا ينسى أنه من دون مساعدة أسرتي لم يكن ليحظى بكل هذه الحروف بعد اسمه».

قال شانو «إنها قصة نجاح» بينما يمرن كتفيه «ولكن خلف كل قصة نجاح لمهاجر تكمن مأساة عميقة».

«لطفا وضح ذلك».

«أتحدث عن الصدام بين القيم الغربية وقيمنا نحن. أتحدث عن الكفاح كي نستوعب والحاجة لحماية هوية المرء وتراثه. أتحدث عن الأطفال الذين لا يعرفون ما هي هويتهم. أتحدث عن مشاعر الاغتراب التي يحدثها مجتمع تسود فيه العنصرية. أتحدث عن الكفاح الرائع لحماية سلامة عقل المرء أثناء الجهاد لتحقيق أفضل ما يمكن لأسرته. أتحدث ...».

«هراء».

نظر شانو إلى الدكتور آزاد لكن صديقه كان يتفحص ظاهر يديه.

قالت زوجة الدكتور «لماذا تجعل الأمر معقدا على هذا النحو؟ هذا الاستيعاب وذلك الاغتراب! دعني أقل لك بضع حقائق بسيطة. حقيقة: نحن نعيش في مجتمع غربي. حقيقة: أطفالنا سوف يتصرفون أكثر وأكثر مثل الغربيين. حقيقة: هذا ليس شيئا سيئا. ابنتي حرة في الذهاب والمجيء. هل أتمنى لو كنت استمتعت بنفسي مثلها عندما كنت صغيرة؟ نعم!».

جاهدت مدام آزاد للخروج من كرسيها. اعتقدت نازنين أنها

تذهب إلى الحانة هي الأخرى، وكان هذا يجعلها طائشة بعض الشيء. لكن مضيفتهم اتجهت نحو شعلة الغاز وانحنت من الوسط لتشعلها. حولت نازنين عينيها.

واصلت مدام آزاد «اسمع، عندما كنت في بنجلاديش كنت أرتدي الساري وأغطي رأسي وما إلى ذلك. لكنني هنا أذهب إلى العمل. أعمل مع بنات بيضاوات ولست سوى واحدة منهن. إذا أردت العودة إلى المنزل وأكل الكري فذلك شأني. بعض النساء يقضين عشر سنوات أو عشرين سنة هنا وهن يجلسن في المطبخ، بينما يطحن التوابل طوال اليوم ولا يتعلمن سوى كلمتين من الإنجليزية». نظرت إلى نازنين التي كانت مشغولة برقيب. «إنهن يسرن هنا وهناك مغطيات من الرأس إلى إصبع القدم في سجنهن الصغير المتحرك وعندما ينادي عليهن شخص ما في الشارع يضطربن. المجتمع عنصري. المجتمع برمته على خطأ. كل شيء يجب أن يتغير من أجلهن. بينما هن ليس عليهن أن يغيرن شيئا واحدا». قالت وهي تطعن الهواء «تلك هي المأساة».

كانت الحجرة هادئة والجو مشرق للغاية والضوء القوي لا يخفي شيئا. راحت اللحظات وجاءت من دون شيء يسهل مرورها. قال شانو في النهاية «كل شخص لديه مأساته الخاصة» كانت شفتاه وحاجباه تعمل بانفعال بالغ في شأن خاص. اعتقد رقيب أن هذه الخاتمة غير مرضية فراح يحدق إلى أبيه بحدة تشبه حدة الكوبرا ثم بدأ في البكاء.

قالت مدام آزاد لنازنين «تعالي معي، لدي شيء ما للرضيع» في غرفة النوم نظرت إلى ظاهر خزانة ونزعت دمية دب لينة.

حاولـت أن تهتم بالطفل لكن رقيب فرك عينيه واسـتدار لينام. غيرت نازنين مريلته وألبسته بيجامته. لم يستيقظ. راحت مدام آزاد تدخن سـيجارة. كانت تداعب رأس رقيب بيد وتدخن باليد الأخرى. أحست نازنين حينها وهي تراقبها بالشفقة لهذه المرأة، مقاتلة الشـوارع ذات الأنـف الضخم. وعرفت لمـاذا كان يأتي الدكتـور. ليس من أجل الطعـام، وليس كي يهرب من هذه المرأة ذات المخالـب الأرجوانية، (على الرغم من أنه يمكن أن يكون من أجل هذه الأشـياء أيضا)، وليس من أجل مشـاركة حب التعلم، وليس من أجل استعارة الكتب أو مناقشة المكتبة المتنقلة أو الأدب أو السياسـة أو الفن. لقد كان يأتي ليعاين نموذجا نادرا: تعاسة أكبر من تعاسته الخاصة.

اسـتيقظت من حلم. حسينة في مصنع الملابس، تكوي ياقات تارة، تتضاحك مع البنات. حسـينة تتضاحـك مع البنات وهي تكوي يدها. حسينة تضحك على نفسها بينما تكوي وجهها.

كان الطفل سـاخنا. رأسـه كان يتقد. حتـى في الظلام كان بإمكانها أن تميز رقعتي خديه المتوردتين. اضطجعت لوهلة ويده المعقـودة في يديها. راح ضياء القمر يقسـم السـتائر ويخطط الحوائط. شانو يتنفس من فمه ويرسل على أسرته نسيما مبتذلا. كان الدولاب يجثم مثل خطيئة كبيرة وكريهة بجوار السرير. ثمة كرسـيان إضافيان مفـككان تم تخزينهما في أحشـائه. أومض المنبـه عينه الحمراء. نهضت نازنين وضمت رقيب إلى صدرها. قبلت موضع الليونة اللانهائية في ظاهر عنقه. أحسـت بجسده الخالي من العظام يتشـكل بجسدها. كـان هذا يمـثل كل شيء.

كان هذا يحتل مكان جميع الأشياء ويستبعد التساؤلات.

كان الإدراك في حد ذاته يسرق منها اللحظات. رفعت الرضيع وأمسكته أمامها متوقعة أن يستيقظ لكي تتمكن من هدهدته مرة أخرى لينام مطمئنا.

تدلى رأس رقيب إلى الأمام. تسللت نازنين خارج السرير وأخذته إلى الردهة. أضاءت المصباح. قالت «حبيبي، اصح». دغدغته على خديه، وتحت الذقن وتحت ذراعيه. قالت بشدة «اصح هيا».

لاح شانو وهو يهرش فيما بين ساقيه. شعره منتصب في الأطراف وبطنه جاهد ليتحرر من قميص البيجامة. فتح الرضيع عينيه وبدا مستعدا لبعض الاستجوابات الملحة في الموقف. غير أن النوم اختطفه فجأة وبدا أنه يصنع رهينة راغبة. ثمة ابتسامة رعشت خديه.

قال شانو «ما الأمر؟»

«إنه مريض. لا أستطيع أن أوقظه».

«دعيني أحاول. هيا يا رقيب، حان الوقت للاستيقاظ. افتح عينيك. روكو! روكو! ما الذي أصابه؟ رقيب! ماذا حدث؟ لا يصحو؟ لم لا يصحو؟».

الفصل السادس

أبيض

انقسمت المدينة. كل شيء كان محطما. عرفت ذلك على الفور، لمحته من اللون الأبيض المؤلم لجدران عربة الإسعاف. إشارات النيون المسعورة. الأضواء الأمامية للعربة التي تطارد الظلام. مكتب استخدام طقطق بالضوء. هذه الشظايا للمدينة المهشمة.

أحست بالذعر في المستشفى. أبواب الردهة تصطك، المعاطف البيضاء تتدافع، النقالات المتحركة تقعقع، ماكينة القهوة تزمجر. هرولت مع ابنها وهي تحمله داخل ممرات طويلة بينما الجدران تتلاشى من أمامهم. وعندها أخذوه من يديها.

رقد رقيب في سرير نقال ذي جدار زجاجي كزهرة أمسكت في قبضة يد ثم أطلقت، لم تسحق غير أنها تجعدت. ذراعاه كانتا متخالفتين، والبشرة من حول فمه مجعدة، والمنطقة تحت ضلعيه مجوفة. ضغطت نازنين بأصابعها على جهاز الحضانة. كان رقيب يمثل المركز. لقد أعاد العالم انتظامه حول هذا القلب الجديد. كان عليه أن يفعل ذلك. فمن دونه لم تكن الحياة ممكنة. كان في الداخل والجميع أيضا بدوا في الداخل. الممرضات والأطباء الذين كانوا يندفعون ويتنهدون ويجتمعون هنا وهناك. مبنى المستشفى برائحته الخانقة وهدوئه المميت وقعقعاته المزعجة. الأبراج الزجاجية ومقابر الطوب الأحمر. البنات مكشوفات الساقين يرتجفن في موقف الحافلة. الكهول والنساء يومئن. الكلاب المغذاة جيدا والحمام المنتفخ. السيارات التي تزعق بجوار عربة الإسعاف محفزة إياها بالاستمرار، تتفرق في أمواج.

والمدينة نفسها لم تكن سوى وهج على الأرض المعتمة، تحت السماء التي انحنت كي تلامس المحيطات المضطربة، وكان هو بجانبها غير أنه لم يعد خاصتها، والضوضاء التي ملأت رأسها وقلبها ورئتيها كانت كبيرة، لذا لو لم تفتح سوى فمها لن تستطيع الجدران والشبابيك أن تقاوم.

على مدار ثلاثة أيام لم يكن شانو يأكل سوى سندوتشات الجبن من الكانتين. في اليوم الرابع ذهب إلى البيت وطبخ طبق أرز وبطاطس وكري قرنبيط. أحضر الطعام إلى المستشفى في علب مستديرة مسطحة. وراحا يأكلان في الغرفة بينما جلسا بجوار العائلات اللاجئة. راحت الرائحة الدافئة المسكرة للتوابل تشمل الجو وتنتزع الأنوف وتشرع الرؤوس. زوجان هزيلان كانا يمسكان أيديهما ويتهامسان طوال اليوم كأنما يقيمان معاهدة لا نهائية معقدة للانتحار، توقفا عن خطتهما قليلا وراحا يحدقان في الملأ. ولد مراهق جاء ليكون برفقة أمه، حيث كان يناولها منديل ورق تلو منديل وقف منتصبا ليحظى برؤية جيدة. الرجل الملتحي ذو عين فار البنديكوت البيضاء المسطحة الذي جاء وحده ونام تحت الكراسي راح يلعق شفتيه على مهل.

أكلت نازنين. وأتت على العلب حتى مسحتها ووضعتها على الأرضية. قال شانو «يجب أن أحضر المزيد». أطبق يده حول رسغها.

«نعم. المرة المقبلة أحضر المزيد».

«هل تريدين أن تعودي إلى البيت قليلا؟».

«كلا لا أريد».

«أحضرت لك بعض الأشـــياء. جوارب، صابون، ما استطعت أن أجده».

«بطانيته؟».

«لقد أحضرتها».

«هو في حاجة لبطانية خاصة؟».

فكرت نازنين في النهوض. ســتنتظر ريثما يدعها شانو حتى لا تنتزع نفسها منه. لم ترد أن تنتزع نفسها منه.

قال شانو «لقد جاء خطاب من الوطن».

كانت ذقنه شـــيباء خشنة وشعره - من دون زيت جوز الهند - كان يخمد مثـــل كتل الفرو المتفرقة. لم يتحدث إلا قليلا وصوته كان أملس كالطمي.

«حسينة!».

«كلا، كلا. إنه خطاب من أقاربي. خطاب استجداء».

«خطاب آخر».

«لم أســـمع عن هذا الرجل خلال ما يقرب من عشرين سنة. عندما رحلت كان شرطيا شابا بشارب ضخم، كان خائفا في كل مكان».

فتح طبيب الباب وتحدث إلى أم المراهق. تمخطت وناولت المنديل المبلل إلى الولد. عندما غادرت مع الطبيب أعادت النظر إلى الغرفة كأنها قد خانتها. نخر الولد. انزلق منخفضا بشدة في كرسيه حتى كان مهددا بالوقوع. أحكم شانو قبضته حول رسغ نازنين.

«كنت أســـمع عنــــه من حين إلى آخر. لقد بنى لنفســـه منزلا كبيرا بكل نقود الرشـــوة، وأخذ يرتقي بـــين الطبقات. كان لديه

خمســـة خدامين وزوجته تقيم أفضل الحفلات. ليس هذا فقط. فقد اســتورد سيارة أمريكية، كرايسلر أو شيفروليه، شيئا كهذا. كانت حديث كل المدينة».

ابتســمت نازنين لزوجهــا. من الآن لم يكن يتحدث ســوى إليها. ليس ثمة شخص أعلى كتفها. لقد عاد جمهور المستمعين أخيرا إلى منازلهم. مــررت يدها الطليقة باختصار على خده المســتدير. اللمس على هذا النحو كان مســموحا به هنا، بين المواطنين غير الشــرعيين، حيث القواعد غير معروفة ومعطلة على أي حال.

«الآن يبدو أن نقود الرشوة قد نفدت. هو عجوز الآن على أن يستخدم عصاته،

أو أنه تم عزله بالمرة. أما الآن فليس لديه ســوى خادم واحد وهو في حالة عوز».

تركها شانو. حك فخذيه «طلب مني باسم الله ألا أدع أسرته تعاني. إنه يطلب فقط من أجلهم وليس من أجل نفسه».

قالت نازنين « لا ترد عليه».

لقد قــرأ هذه الخطابات مــرارا وتكرارا. قضــى فيها وقتا أطول مما قضاه في دراســاته، وفي الأغلــب الأعم كان يتركها في الدرج.

«ارمها فقط».

«ليس لديه الآن سوى خادم واحد».

أحســت نازنين بفقاعة قهقهة تنبعث من بطنها. تركتها تخرج خلف يدها. قالت مدعمة « لا تدع أسرته تعاني».

عقد شانو حاجبيه الأشعثين ونظر إليها. لم تستطع أن تتوقف. ابتسم شانو. استشعرت أن الآخرين ينظرون إليهما، الاثنان الأسمران اللذان كانا يتضاحكان ويبتسمان. بطرف ساريها راحت تجفف دموعها.

ثمة قناع كان على وجه رقيب يزوده بالأوكسجين. لأنه كما شرح شانو كان في حاجة إلى شيء أنقى من الهواء. ثمة إبر كانت مغروزة في ذراعيه مثل رماح كبيرة وأسلاك وأنابيب تنتشر حوله، سميكة مثل حبل مفتول. فرد رقيب أطرافه الصغيرة عن آخرها. الطفح الجلدي الذي كان على وشك أن يقتله. هذه البذور الصغيرة الحمراء لم تعد مزرقة. فقد غيرت العلامات شكلها ولونها وراحت تتفرق تحت بشرته القشدية مثل توت مسحوق. امتدت ذراعه على السرير. وجهه استحال إلى كرة راسخة. تذكرت نازنين لعبة كانت تلعبها مع حسينة، تنحنيان في الرياح التي تعصف بالبحيرة وتمسكها في عناق مضطرب، بينما ترفرف سراويلهما الفضفاضة وترفعان أذرعهما.

كان رقيب لايزال نائما. أحيانا كان يفتح عينيه إلا أنهما كانتا عينين غير مبصرتين. وضعت نازنين بطانيته الخاصة بجانب السرير. واستقرت على القالب البلاستيكي للكرسي. جلس شانو على الجانب الآخر ويداه مطويتان على صدره. كلما سارت ممرضة بالقرب كان يفردهما قليلا ويتطلع.

لم يسئ آبا الاختيار. فلم يكن هذا رجلا سيئا. ثمة كثير من الرجال السيئين في العالم غير أن هذا لم يكن واحدا منهم. في استطاعتها أن تحبه. ربما أحبته بالفعل. اعتقدت أنها أحبته.

وإذا لم تكن تحبه فعاجلا سوف تحبه لأنها الآن قد فهمت ما هو عليه، ولماذا. الحب سوف يأتي بعد الاستيعاب.

بعض الأشياء أصبحت واضحة في ليالي مصابيح الهالوجين الطويلة والنهارات البطيئة المبددة. الضجيج الذي يدور محطما بداخلها مثل نحلة عملاقة في زجاجة انتهى. والهدوء الذي جاء في أعقابه كان عميقا. جلست نازنين وشاهدت ابنها وشاهدت زوجها يخشخش حول المكان: يحضر أشياء ويرجعها، يصطدم بالعربات والممرضات، يسأل الأطباء، يحادث عمال النظافة، يتأمل في الرسوم البيانية والمقالات، يسحب كراسي من خارج المكان ويعيدها ثانية، يذهب لإحضار القهوة، يذهب لإحضار الشاي، يجمع الفناجين غير المشروبة ويدلقها في طريقه إلى المصفاة.

إن سخطها مع زوجها بدلا من أن يكبر على نحو ثابت كما كان على مدار ثلاثة أعوام راح يهمد. للوهلة الأولى أحست أنه لم يكن جد مختلفا. ففي باطنه كان على شاكلتها نفسها. طوال الوقت عندما كانت نازنين تلجأ إلى صلواتها لتحاول أن تفرغ ذهنها وتتقبل كل شيء جديد برضا أو لامبالاة، كان شانو يعمل بطريقته الخاصة. كان يبحث عن الشيء الجوهري نفسه. غير أنه اعتقد أن بوسعه أن يجلبه من الخارج ويثبته على صدره مثل درع. الشهادات والترقية ومنزل دكا والمكتبة وأعمال تجديد الكراسي وخطط التصدير والاستيراد والقراءة المطولة. كانت هذه أدواته التي على طرازه هو. بوساطتها كان يحاول التنقيب عن مكان خاص، حيث يمكنه أن يحظى براحة البال.

حيثما تتوجه نازنين إلى الداخل يتوجه هو إلى الخارج، وبينما كانت تجاهد كي ترضى كان يعقد العزم على الصراع، وعندما كانت تحاول أن تبلد ذهنها وتخدر أفكارها كان يجادل بصوت عال، عندما لم ترد أن تنظر إلى الماضي أو تتطلع إلى المستقبل كان يعيش فقط في كليهما. لقد أخذا طرقا مختلفة غير أنهما قاما بالرحلة معا وفق ما أدركت.

قال شانو: «سوف يصبح الآن على ما يرام».

«أعرف».

«سوف نأخذه إلى المنزل عما قريب».

«بمجرد أن يكون مستعدا».

«اعتقدت أن ذلك كله انتهى».

قالت «أعرف». وعرفت أنها لم تكن لتسمح بذلك.

على الرغم من أنها قضت ساعات جالسة بجانب سرير الطفل فإنها لم تكن تجلس فقط. كانت يداها تستقران مطويتين في حجر ساريها المجعد، مفاصل سمراء داكنة على لون قرمزي فاتح. كانت ساكنة بلا حراك مثل نمس سلبت لبه أفعى. وأهدأ من سماء خالية من العواصف. ولكن أكثر حيوية من قبل. تمنت له أن يعيش وعاش. في سكونها أدركت أشياء كثيرة، معظمها مبهج بشكل كبير وعلى نحو يصعب فهمه.

أتت ناظمة وسوروبا ووضعت كل منهما عشر أصابع على جوانب سرير الطفل. قالت ناظمة «من فضل الله أن جعل كل أطفالي أقوياء وأصحاء. كذلك الطفل الرابع، أشعر برجليه، قوية جدا». راحت تحك بطنها المستديرة.

نظرت نازنين إليها. طفــل آخر كان في الطريق، غير أنه مع ناظمة لم يكن من السهل أن تقول ذلك. مرات الحمل كانت تجيء وتروح لكن الاستدارة تبقى دائما.

قالت ناظمة « كذلك من فضل الله أن جعل أطفالي في أنسب وأصح خلقة».

لامست ناظمة بأصابعها جبهة رقيب. حدقت إلى سوروبا.

ما الــذي أصابك؟ هل جئت لتتأملــي وتتفاخري عند فراش المرض؟.

قضمت سوروبا شفتها ونظرت بعيدا.

جــاءت جورينا وهــى في طريقها إلى العمل ولم تســتطع أن تمكث ســوى بضع لحظات. قالت «أســتطيع أن أجلس معه ليلا وأتركك تســتريحين. ففــي هذه الأيام لا أنام جيــدا. فلن يكون هناك إزعاج».

في غرفة المعيشــة ضمت راضية نازنين إلى صدرها القاسي « أعلم أنك في معاناة. الطفل الثالث لأختي، ســلام على روحه، مات بعد مرض طويل. كان المرض هو أسوأ جزء. عندما يرحلون فهم يرحلون، ولكن عندما يكونون مرضى فأنت تعانين معهم».

«إنني أرثى لأختك. لكنني بخير».

نظرت راضية بطرف عينها إلى الاثنتين العجوزين اللتين تواجه كل منهما الأخرى وتمسكان بأيديهما. هذه المرأة هي أشجع امرأة ســوف ترينها دائما. ففي شبابها كانت تصارع التماسيح. نظرت إلى نازنين. هل أخبرهما بالإنجليزية الآن؟

«إنني سعيدة بحضورك».

«اســمعي لقد حصلت على شيء من أجله عندما يكبر قليلا. هزهزت بدمية رجل من كيس بلاستيك». يمكنه أن يقتلع الرأس من هذه الدمية كلية بنفسه.

«لن أســمح له. ســوف أحتفظ بها إلى أن يعرف أكثر. بلغي تحياتي إلى زوجك».

أنزلــت راضيــة وشــاحها. كزت علــى فكها القــوي. الآن وباعتبارها تلبس بنطالا كانت تجلس مثل رجل، الكاحل الأيمن موضوع على الركبة اليمنى والحذاء الأســود الكبير يتردد إلى أعلى وأسفل.

«لا أستطيع. فنحن لا نتكلم. إننا نتجادل. بيننا في واقع الأمر نقاش، الذي بيننا غير معلن».

«إذن كيف لك أن تعرفي من الذي فاز؟».

«ذلك ابن ...».

«رضية»

«إنــه يعمل طــوال الليــل والنهــار ويجعلني محبوســة في الداخل».

«إنك تخرجين. فلقد أتيت هنا، إلى المستشفى».

«لو حصلــت على وظيفة ســوف يقتلني. ســوف يقتلني من صميم قلبه. مجرد شــق هنا. هذه نوعية الرجال التي هو عليها. على مدار ســاعات، على مدار أيام لا ينطق بشيء البتة، وعندما يتحدث فتلك نوعية الكلام التي أحظى بها»، أمسكت قدمها بقوة موقفة إياها عن مزيد من التردد.

«لكنك تخرجين. فأنت تذهبين إلى الكلية».

«الأطفال في المدرسة. ماذا يفترض أن أفعل طوال النهار؟ نميمة ثم مزيد من النميمة. الأطفال يطلبون أشياء. كل شيء يرونه يطلبونه. وليس لدي نقود. يمكن لجورينا أن تحصل لي على وظيفة خياطة، غير أن زوجي سوف يأتي إلى المصنع ويذبحني مثل كبش».

«تحدثي إليه».

لاحظت نازنين الباب ينفتح. تمنت أن يكون شانو بمزيد من الطعام من البيت. دخلت ممرضة وربتت بخفة على كتف العجوزين. تطلعتا إليها بوجهين مذنبين. لقد نسيتا وهما مطوقتان بأحزانهما سبب مجيئهما هنا. أشارت راضية إلى الدمية. «ربما أيضا أتحدث إليه». زوجي بخيل جدا فلن يضيع حتى الكلمات علي. لديه الآن الوظيفة الليلية، يقود السيارة بأجساد الذبائح. لو كان لديه أي شيء يقوله، يقوله لها. زفرت راضية بشدة من أنفها الطويل مطلقة غضبها. فكت ساقيها وعقدت أصابعها معا. على أي حال لست في حاجة إلى سماع مشاكلي. فلديك ما يكفي من المشكلات.

«رقيب يقوى الآن. يمكنني أن أشعر بذلك» من الممكن الآن أن تتركه بمفرده برهة. لقد روضت الماكينات التي تقف حارسة له بالتحدث إليها في رفق مثل فيّال يهدي فيلا غاضبا. هذا ابني، هذا ابني، خذي بالك منه جيدا. لم تعد الآلات تخيفها. في الليل كانت تخرخر مثل قط السينور بينما أحشاؤها تومض مثل اليراع. في النهار كانت تطن بنشاط والشاشات المسطحة تصنع خطوطا ومنحنيات على هيئة أطياف خضراء بسيطة.

قالـــت راضية «المرة المقبلة ســـوف يتســـنى لـــي أن أحمله»، ابتسمت غير أنها لم تستطع أن تعدل من مزاجها «لقد اكتشفت أين تذهب النقود. هل أخبرك؟ إنها تذهب إلى الإمام. إنه بصدد إنشاء مسجد جديد في القرية»

«سوف يباركما الله».

«لـــو كان يعرف ربنا لم أكن لأعتـــرض. ولكن زوجي لا يعرف ربنا. اسمعي، هل هذه هي الطريقة التي يتصرف بها رجل يعرف ربنا؟».

كان زوجهـــا وضيعـــا. كان الأمر يســـوء. بعد الفقـــس الكثير والتخزين في الأرفف والخزانات، كان ينعت زوجته بأنها ربة بيت سيئة. كثير جدا من البرطمانات، كثير جدا من العبوات، كثير جدا من المعلبـــات. كل الوفرة الصارخة، والرفاهيـــة تبددت. لن يكون هناك مزيد من النقود إلى أن يؤكل آخر شيء موجود على الأرفف. هبط بهم الحال الآن إلى الزبيب وويت بيســـكس من سينســـبري. على مدار ثلاثة أيام لم يتناول الأطفال ســـوى ويت بيســـكس في الماء وحفنات من الزبيب. يقول الزوج إن هذا ســـيعلمك. سيعلمك أن تشتري الزبيب، العبوات الفاخرة، بنس يضيع هنا وبنس يضيع هناك. طارق عاد من المدرســـة. ماما، شيفالي تذهب إلى الحمام تسع مرات كل يوم. إنها تستحيي أن ترفع يدها.

حدثته راضيـــة بصراحة، تبني مســـاجد وتقتل أولادك فلذة كبدك. أيها الرجل التقي.

لـــم يتراجع. مـــاذا تريدني أن أفعل؟ أقتل نفســـي من العمل، لأجلك كي تنفقيها جميعا بنســـا هنا وبنسا هناك ولا شيء يظهر

فـــي النهاية؟ إنني أعمل من أجل قوالـــب الطوب. عندما أوارى التراب ستكون القوالب قائمة.

قالت: ها، وعندما يجتازون طرقا، رجل قوالب الطوب!

قالت لشـــيفالي: اسألي أباك، اســـأليه كم قالبا كسبه اليوم. لفت شيفالي شعرها وسألته، آبا كم قالبا كسبته اليوم؟ وانبطحت على ظهرها وبكت بهدوء في حجر أمها.

قالـــت نازنين «أصلحي معه الأمر من أجـــل الأطفال» ذرعت راضية عرض الحجرة. بدت مســـحة من اللمعـــان فوق جوربها حيث انحسرت ساق بذلتها الرياضية. لن تسنح لشانو فرصة في شـــجار مع راضية. لكن زوج راضية كان ضخما، عريضا وقصير القامة، صدغاه مشـــحوذان بالغضب. لم تره نازنين ســـوى بضع مـــرات. كان صامتـــا كما قالت راضية غير أنه صمت مشـــحون بالوعيد مما كان يجعل الأطفال ينسلون بعيدا حتى راضية.

لـــم ترد راضيـــة. دارت وذرعت الجانـــب الممتد من الحائط. مسقطة بعض الورقات من على رف.

«هل حقا ســـتعملين مع جورينا؟ إنها تعاني مشكلات. الجميع يتحدثون. أطفالها يتورطون في مشكلات». كانت حسينة تعمل، غير أنها لم يكن لديها خيار. فلو كان لديها زوج أو أب...

قالـــت راضية إننا ننم بالطبـــع، كانت تقف بلا حراك ولوهلة عـــاود البريق القديم الظهور في عينيها الضيقتين. إننا نحب أن ننم. هذه هي التســـلية البنغالية«» أقبلت وجلست بجانب نازنين. «اسمعي أطفال جورينا ليسوا أفضل ولا أســـوأ من الآخـــرين. أيا كانت المشكلات التي هم فيها فهم ليسوا الوحيدين. عندما كنت

أسير في المجمع السكني اليوم رأيت عصبة من الأولاد - خمس عشـــرة وست عشرة سنة - كانوا يتشاجرون. صحت فيهم لكنهم صاحوا بالســـباب لي. منذ بضع سنوات فقط ما كانوا يتحدثون أبدا علي هكذا إلا الأكبر منهم. هكذا تسير الأمور».

«وكانوا يديرون موسيقاهم عاليا جدا».

بدأت راضية تبتســـم. «تعرفين، زوجي أرسل مذياعات لأولاد وبنات إخوته. عندما يعود إلى الوطن ربما يحظى بالأحجار بدلا من الثناء».

قالت نازنين «إذن فهو ليس بخيلا على طول الخط؟»، متلهفة لاستخراج بعض الخير من الرجل.

«إننـــا نحصل على ما لا يريده الآخـــرون فقط. ثمة رجل في مصنع الدمى يزورنا كل بضعة شهور بمزيد من النفايات وأتظاهر بالفرحة. عندما يأتي أخر بالفعل على ركبتي».

قالت نازنين «إنك توفرين عليه مشـــوارا إلى مستودع النفاية. إنه صنيعك الحســـن ربما أبدأ في اتهامه بكل شحنة، انظري كم يحب ذلك؟».

«فكري فيما توفرين عليه من بنزين».

«سلم نقال آخر، علب طلاء، لوحان من الخشب. علي أن أبدأ العمل في طلاء المنازل».

«اشـــغلي نفســـك» جاهدت نازنين نوبة ضحك. لم يكن هذا مكان الضحكات من البطن.

«أجعل زوجي يتعثر عندما يســـتيقظ في الظلام». أمســـكت ركبتيهـــا واستنشـــقت بصوت عال. «بأمانة يـــا أختاه من جانبي

أنا لا أريد أي شـــيء. هل سمعتني أشكو من قبل؟ لكن الأطفال يعانون».

«ماذا ستفعلين؟».

بدت راضية جادة. نشرت يديها واختبرتهما كأنهما ربما كانتا تتطوعان بعفوية لما تنويان أن تفعلاه «أقول لك».

دخل شانو يحمل أكياســا ورائحة الوليمة الرفيعة. توقف عندمــا رأى راضية، ثم ألقى ســلاما بدا يشــملها هي فقط بالمصادفة.

قالت راضية «المرة المقبلة» بينما راحت تلم أشياءها.

قالــت نازنين «كلــي معي»، وراحت تأخذ الأكياس من شــانو وودت أن يبتعد.

تنحنح وبرســمية بالغة راح يسأل عن السيدة إسلام، صحتها بصفة عامة، والحظ الدائم لأولادها. ردت راضية ردودا مختصرة ومهذبة غير أنها اســترخت في كرســيها بطريقة لا تتماشى مع زوجة بنغالية. تعبت استفســاراته، وقف شــانو مســترخيا كأنه ينتظر دعوة إلى الجلوس.

قالت نازنين «رقيب»

أجفل شانو. بدا على وشك أن يعدو «ماذا؟».

قالت نازنين بوداعة «اذهب وتفقد حالته».

تحدث بارتياح «لِمَ لا أتفقد حالته؟» وانصرف مسرعا. يخبط أحــد كعبيه في الآخر. كان بنطاله مجعدا من خلف الركبة حيث إن تأثير الكونســيرتينا كان إلــى حد ما موضة. تبعته إلى الباب وهمست في أذنه.

كان الأرز رائعا، حبيبات بيضاء منفوشة، كل واحدة مستقلة عن جارتها. في موسم المطر هناك في الوطن في الوقت الذي استسلمت الأرض فيه للمياه وتشابكت أصابع الجواميس، عندما يتعود الدجاج على السطوح، عندما تترنح الماعز المتروكة على الجزر الصغيرة، عندما تبتل النساء على المشاية المرفوعة المؤدية إلى كوخ الطهي ويجدن أنه لم يعد باستطاعتهن أن يوقدن أقراص الروث ثم يتحولن إلى مخزونهن، عندما ينقر المطر بصوت أعلى من أجراس البقر، يكون الأرز هو الوسيط، مانح الحياة. مطبوخ من قبل، كان يتخثر ويجعل من نفسه غراء. أو يحول نفسه إلى جزلات قاسية لا تتفكك إلا في المعدة، أفضل طريقة لحشو البطن وجعل حتى الأطفال يهجعون ويتأوهون من الشبع. حتى ذلك الحين كان جيدا. هذا الأرز كان فاخرا. الأرز فقط سيكون كافيا بالنسبة إليها. غير أن الكزبرة الطازجة تجعلها تعمي عن الدجاج. الباذنجان المغرورق في الزيت كان يومئ في إغراء. أرادت أن تغرس لسانها في الدال المخملي. كان شانو يستطيع الطهي. لم يخطر ببالها أنه لابد قد طبخ خلال كل تلك السنوات قبل أن يتزوج. وعلى الرغم من أنه كان يستند إلى الخزانة ويضع بطنه على أسطح المطبخ فقط بينما هي تخرط وتقلي وتجفف المكان من حوله. لم يضايقها أنه لم يكن يساعدها. شعرت بدلا من ذلك بمسحة من الذنب لكونه عديم الفائدة، لعدم انتسابه إلى هذه القدرة المدهشة.

قالت راضية « إنه جيد، أبقي بعضا منه لزوجك». كانت نازنين تأكل مثل شخص متعصب. وضعت راضية طبقها وملعقتها.

«ثمة شيء لم أذكره لزوجك بخصوص السيدة إسلام».
«شيء آخر لا يعرفه».
«أنت لا تريدين أن تنمي عنها».
«كلا»، أخفضت راضية رموشها الثقيلة. انحنت مقتربة. تشابكت الرموش في زاوية العين مثل سيقان حشرة واستقرت الجفون على قمة القزحية التي لاحظت نازنين الآن أنها مشوبة بالذهبي في أعماق السواد.
«ليست نميمة. إنها الحقيقة».
صمتت هنيهة، أفضل طريقة للاستيلاء على مستمعيها.
«المرأة مرابية».
«تشا!».
«لقد تأكدت من حقائقي. إنها الحقيقة. أمام الله. أقول ذلك ثانية. السيدة تتعامل بالربا وسوف تكون نزيلة جهنم»
«كيف لك أن تقولي ذلك؟» اضطرت نازنين إلى وضع طبقها.
«اسمعيني، كانت لدي شكوكي. قلت لها شيئا بخصوص أزمات مالية وقامت بعرض قرض. ليس شيئا محددا. وعندها لم أكن متأكدة. اعتقدت أنها تقدم قروضا بدافع طيبة قلبها. وربما تحمل رزما من فئة الخمسة جنيهات في تلك الحقيبة السوداء الكبيرة، لا لشيء سوى لكي توزعها على الفقراء».
«توقفي».
«أنا لا أمزح. فأنت تعرفينني دائما أرغب في رؤية الجانب الطيب». ابتسمت مثل ابن آوى. «لو كنت لا تصدقينني، اسألي أمينة، اسأليها أي فائدة تدفعها. ثلاثة وثلاثون في المائة».

«رضية!».

«يبدو أنك مصدومة قليلا. أنا لا أصنع فضائح. أنا أروي ما أرى فقط. لست أنا التي ستذهب إلى جهنم يوم الحساب».

«إذا تابت سوف يغفر لها الله».

«تتوب؟ السيدة إسلام؟» غاصت راضية في حقيبتها وخرجت بمنديل ورق. دسته بين الإبهام والسبابة وموجته وهي تثني إصبعها الصغير، في الهواء. «عندما كنت فتاة لم يكن أحد يجرؤ على الدفع بتلك الاتهامات! أفضل عائلة في تنجالي، ألا تعرفين أن الجميع ينحنون أمامنا؟».

لم تستطع نازنين أن تتكلم. كانت تحملق في صديقتها.

راحت راضية تحدق بطرف عينيها حول الغرفة. ثم دب فيها النشاط. لم تستطع أمينة أن تدفع القسط الأخير. إذا لم تدفعه المرة المقبلة بجانب الفائدة الإضافية كعقوبة، سوف يكسر الأولاد ذراعها. أي نوع من التوبة سوف يتقبلها الله على هذا؟

«من يعرف بهذا؟».

هزت راضية كتفيها الكبيرتين. بعض الناس. ربما ناس كثير. إنهم جميعا منافقون. هذا هو الأمر الخاص بجاليتنا. الجميع يغرقون، يغرقون ويجرعون الماء.

عند سماع الكلمات الإنجليزية اشرأب المراهق - الذي كان مرتخيا في كرسيه مثل بالون - إلى أعلى بعض الشيء وبدد نصف نظرة على راضية.

قالت راضية «إنك تسمعين كل أنواع الأشياء عن الأبناء، ولكن بالنسبة إلى كل ما أعرفه فإن تلك الأشياء ليست سوى إشاعة».

أدار الولد رأسه على ساق عنقه المليئة بالبثرات وأسند ظهره إلى الخلف. نظرت إليه أمه كأنما يمثل هذا القشة التي قصمت ظهر البعير وشرعت تبكي خلف ظاهر يدها.

قالت راضية «حان الوقت لي للذهاب، ثمة شيء سوف أفعله قبل أن أجمع الأطفال».

«قبليهم لي. وبلغي سلامي لأهل المجمع السكني».

«حسنا سوف أقوم بهذا».

«لغتك الإنجليزية تتحسن. بلغي سلامي إلى سيدة الوشم».

«شكرا، غير أن سيدة الوشم قد رحلت».

كان هــذا يمكن تصديقــه بصعوبة، حتى تتبــع الأخبار غير المستساغة الخاصة بالسيدة إســلام، التي يجب أنها قد جعلت كل شيء يبدو ممكنا.

قالــت راضية «ذهبــت إلى مؤسســة»، «راحــت تربت على صدغها». في نهاية الأمر كانت تجلس وحدها... أنت تعرفين.

قالت نازنين «أوه».

«كان يجب أن يدركها شخص ما على الفور. فدائما كانت تجلس هناك في النافذة مثل تمثال مطلي. هل ثمة أحد لم ير؟».

أحضر شانو لها مسبحتها. أمسكت الكريات وراحت تمررها. قالت سبحان الله في سرها. سبحان الله. سبحان الله. سبحان الله. عندما تجاوزت الثلاثة والثلاثين تعثرت أصابعها في الخرزة الكبيرة الفاصلة. تنفســت من أعماقها وانطلقت مجددا. الحمد للــه. فكرت. حقا. ولكن ألم يكن يريدني أن أعود إلى ابني الآن؟ راحت أصابعها تتسابق إلى التاسعة والتسعين.

لــم يكن ثمة فرصة كي تــؤدي صلواتها بالطريقة المعتادة. لقد أبدت أعذارها الخاصة. الآن كانت تســدي الشكر. كان الله وحده هو الذي أنقذ الطفل. كان عمله هو، إرادته، ليست إرادتهــا هي. إن إرادتها على الرغم من أنها كانت ممتلئة مثل نهر جامونا[٢٧] وتتدفق مثل ســد متفجر فإنها لم تمثل شــيئا بالنســبة إلى إرادته. بدأت الدورة مــن جديد، ضاغطة على الكرات الخشبية الملساء بثبات. سبحان الله. الحمد لله. الله أكبر. أســقطت المســبحة فتدحرجت تحت المدفأة بعيدا عن المتناول.

بوساطة غسالة أطباق ذات مقبض كبير استعاروها من ساحة المطبخ دفعت المســبحة إلى الخارج ونفضــت عنها الغبار. ربما ســيكون من الأفضل أن يأخذها شــانو إلــى البيت، حيث تكون آمنــة. على أي حــال فالتكرار برمته يجعلها تشــعر بالخدر في الوقــت الذي تحتاج أن تكون فيه يقظة. ســيكون من الأفضل لو أعادها إلى البيت.

عندما تصلي من الآن فصاعدا سيكون بطريقة أخرى وأفضل. لقــد أدركت ببعض الدهشــة، بينما قد انحنت وفردت نفســها وتلت الكلمات أنها لم تكن قط مشــغولة بهــا كلية. في الصلاة كانت تنشــد أن تخدر نفسها مثل سكير بزجاجة، مثل ذبابة أمام مصبــاح. لم تكن هذه هي الطريقــة الصحيحة للصلاة. لم تكن الطريقة الصحيحة لتلاوة الســور. لــم تكن الطريقة الصحيحة للعيش.

(٢٧) جامونا: الجزء الأدنى من نهر براهمابوترا المعروف بفيضاناته المدمرة ـ المترجم.

لقد أرادت أن تصنع فراغا قاحلا في داخلها. لتمنع الاستياء وآلام البطـــن والمطالب المتطرفة من التفاقم، لتمنعها من أن تقيم موطنا. كان الأمر يشبه علاج حالة دودة شريطية بالجوع. ممكن تماما ومهلك لا محالة.

في اليـــوم الثامن، في الخـــارج بالرواق. قامـــت بتصنيفاتها الصامتة. المريض. الآباء. أقارب غير مباشرين. صديق. طبيب. ممرضـــة. عامل. المرضى الراشـــدون كانوا سلســـين. كانوا هم الأشخاص ذوي الشباشـــب والابتسامات المرتجلة غير المناسبة. كانوا يبتســـمون ليظهروا انه ليس ثمة ما يقلقون بشـــأنه وأنهم أنفســـهم ليسوا قلقين وأنهم كانوا يستمتعون بهذه الجولة المقوية الخاصة بممـــرات المرض. كانوا وهم يمرون فـــي دهاليز عنابر الأطفال يبتســـمون، لاســـيما أنه يصعب تمييز معرفتهم إلى أي مـــدى كانوا محظوظين. الآباء كانوا أيضا محظوظين. كل تصور قاتم قد خطر لهم، وعيونهم وشـــفاههم استولت عليها الصدمة. الأســـوأ في هذا كم صـــارت تصوراتهم ضحلة. أما الآخرون من الأقارب والأصدقاء فكانوا أحيانا يصعب التمييز بينهم باستثناء أن الأقارب يســـيرون بخفة أكثر بينما الأصدقاء يتحملون عبء التهريج وجلب البهجة والدباديـــب الكبيرة واللعب المتحدثة. أما الأطبـــاء فكانوا يرتدون ســـلطتهم على معاطفهـــم البيضاء في خطواتهم الســـريعة الناهية الحاســـمة. أوقفني الآن، ولســـوف تضع حياة شـــخص ما في خطر. الممرضات كن يوزعن إيماءات وابتسامات مشـــجعة ومختصرة تثير في الآباء نظرة من التوقع، كأنهـــن تذكرن شـــيئا ما يقلنـــه، كان على طرف ألســـنتهن وراح

ثانية. أما عمال المستشفى فكانوا ثلة مغايرة. إنهم يتجهمون وينحنون إلى الأمام، ويهرعون مثل الأطباء، ويدندنون بنوع رائع من الموسيقى المضادة، يتصايحون بجمل غير كاملة ثم يهوون في الصمت فجأة.

كانت غرفة رقيب تنظف. انتظرت بالخارج وراحت تهتم بشانو. لقد ذهب شانو إلى العمل هذا الصباح. المرة الأولى خلال أسبوع. هنا كان يعدو قدما. منعطفا في زاوية قائمة كي يمرر نقالة ويتحرك من الجانب مثل أبو جلمبو كبير منزوع القشر. جاء بجانبها واستند إلى المدفأة. إذا كان هناك سطح صلب في مجال الرؤية سوف يستند إليه شانو. قال: الإجهاد العقلي، ذلك هو التمرين الحقيقي. ليس هناك أصعب من العمل العقلي.

أخبرته «إنهم ينظفون فقط، لن يستغرق الأمر كثيرا».

قال «آه». ضغط على شفته السفلى. أطلقها وشرع يضغط بأسنانه على الشفة العليا.

انتظرت أن يتكلم من جديد وطفقت منزعجة عندما لم يفعل. لقد أصبحت معتادة أن يملأ لغوه الفراغ بينهما.

بدأت هي «السيدة إسلام»، ثم سحبت نفسا.

«يغرقون يغرقون ويشربون ماء».

إذن لقد كان يعرف.

«بعض الأشياء يجب أن تتوقف».

«لو تابت بحق...».

«كفى يعني كفي» لف شانو نفسه إلى الأمام وواجهها مستقيما مثل شجرة مستوية.

«يجب أن أخبرهم».

«من؟».

«أقاربي. يجب عليهم أن يعرفوا. فلنكن واضحين. أوقفي النفاق».

«أقاربك؟ لماذا يجب أن يعرفوا؟».

ابتسم شانو. صنع خداه الممتلئان غمازتين. تنقلت عيناه هنا وهناك بحثا عن مسلك للهروب من هذا الوجه غير المناسب. راح يشرح كما لو كان لطفل. «كل هذا الوقت اعتقدوا أنني أصبحت غنيا. لماذا يجب عليّ أن أظل هنا في هذه الأرض الغريبة لو لم تكن تجعلني غنيا؟ تركتهم يعتقدون ذلك. كان يناسبهم ويناسبني. في واقع الأمر قلت لهم أشياء ليست حقيقية، ولم تكن قط حقيقية. جعلت من نفسي رجلا كبيرا. وهأنذا لست سوى رجل ضئيل، لكن هناك... « .. اختفت الابتسامة». يمكنني أن أكون رجلا. رجلا كبير. هكذا حدث الأمر. تنهد ووضع يده فوق بطنه. لذا عندما تأتي خطابات الاستجداء وألقي باللائمة يمنة ويسرة، ما يجب أن ألقي باللائمة عليه هو هذا، هنا «رفع يده فوق صدره ليبين كيف خانه قلبه وكبرياؤه».

يغرقون يغرقون ويشربون ماء. عندما كان كل شخص في القرية يصوم شهرا طويلا، عندما لا يكون هناك حنطة، ولا قطرة ماء تمر بين شفاه ظامئة لأي رجل أو امرأة أو طفل فوق العاشرة سليم، عندما كانت الشمس أسخن من قدر الطهي والغروب كان مجرد أمنية محمومة، كان المنافق يهبط إلى البحيرة ويغمر رأسه ليغوص ويغطس، ليشرب ثم يغوص إلى الأسفل قليلا.

قالت «كلا، ليست مسألة لوم».

«إذن مســـألة فعل. انتهى الكلام. من الآن فصاعدا، ســـوف أفعل». تتحنح، إلى حد ما مثل شـــانو القديم المتكلم. «شيء آخر يجب أن أقوله لك. لقد استقلت اليوم».

«استقلت. ماذا تعني؟».

«ماذا أعني؟ هل أنت ضد ذلك؟ ألم أحذرك مرارا وتكرارا من نيتي؟ حذرت دالولي وحذرتك أيضا».

«فقد فعلتها إذن».

كان هناك بعض الوجوه المندهشة. يمكنني أن أقول لك. لكن وجهـــه هو بدا مباغتا ومهاجما مـــن قبل الداكويتس(٢٨). كل هذا الفعل كان له ضريبته. راح يعض ثانية على شفته وظهر شق وقد تلطخ بقليل من الأحمر«. سوف أخلي مكتبي في الصباح».

«يمكنهم أن يستثنوك على الفور؟».

ســـعل وتتحنح، وخشـــيت نازنين أن يبصق على الأرضية. بلع ريقه. «بالطبع لا. لكنني عندما أقرر أن أفعل شيئا فسوف أفعله. سأكون هكذا. من الآن فصاعدا».

هز رأسه ورمش على مهل ليظهر أنه ليس ثمة تراجع.

«لو من تاب؟».

«ماذا تقولين؟».

«أنت قلت لو بحق تابت».

«لا أعتقـــد ذلـك». جـــاء عامل يدفع دلوا مع ممســـحة. راح يصفر بصوت عال ولكن ليس عاليا إلى درجة أن يغطي بؤســـه.

---

(٢٨) داكويتس: عصابة من قاطعي الطرق المسلحين، ذاع صيتها بالماضي في شبه القارة الهندية ـ المترجم.

«أعتقـــد أنهم انتهوا من غرفتـــه. فلنذهب». رفع عامل التنظيف أحد شدقي فمه بينما كانت تمر وصنع ضوضاء مفادها أنه حقا لا يعلم أي شـــيء أصبح عليه العالم عندما يكون هو الشـــخص الـــذي عليه أن يقف هناك بدلو وممســـحة بينمـــا كل الآخرين يستمتعون بأنفسهم.

التفتت لترى شـــانو وهو يمشـــي خلفها، رأســـه يدور، وعيناه تتفحصـــان عبثا، الأقدام تتخبط فـــي الدلو، وعامل التنظيف - مدعوما بممسحته - كان يهز رأسه بالطريقة المبجلة لرجل حقه مهضوم.

كان رقيـــب مســـتيقظا. قال «بـــاه» ما يكفي من هـــذا اللغو. رفع يديه أمام وجهه ونظر إليهما بعبوس. صنع منهما كماشـــة، اختبرهما من أجل القوة والمرونة وكان راضيا. ثم أطلقهما. أدار رأســـه جانبا. راحت نازنين تهدل بينما كان ينظر إليها. دغدغت ظاهر عنقه حيث تشـــابك الشـــعر، ناعما مثل الكشمير. بإصبع صغيـــرة راحت تحك في لثته المنتفخة، كانت تســـعد بأن تعضها أسنانه الصغيرة اللؤلئية. قريبا سوف يعودون إلى البيت ولسوف يتهادى حول غرفة الجلوس كما لو كانت ســـطح ســـفينة متشبثا بها، كأن الرياح الخفية نقلته من الأريكة إلى الكرسي إلى الطاولة وأعادته إليها ثانية.

«ســـوف أشتري موسوعة لأجلك» انحنى شانو على ابنه ولمس رجله «ســـوف أشتريها لنفســـي قبل أن تبدأ تسأل أسئلة صعبة كثيرة».

«سوف أذهب إلى البيت غدا. أعد كل شيء».

«يــا له من ذكــي للغاية. هذا الولد. شــاهدي هذا في حجم الرأس».

«الموسوعة غالية».

«ليست غالية جدا على هذا الولد. دعينا نسمه استثمارا. كل الكتب عبارة عن استثمارات. ألا يمكنك أن تري أي طالب نجيب سوف يصبح؟» شرع يدندن ثم بدأ فجأة في أغنية.

«نحن القدرة، نحن القوة
فرقة الطلبة التي نمثلها
تحت الليل شديد الحلكة ندور في الخارج
حفاة عبر الطريق
ذي العوائق المنتشرة. الأرض القاسية
نشكل الحمرة بدمنا القرمزي...»

توقف، «حســنا حسنا. ليســت هناك حاجة للتجهم. كنا نتغنى بذلــك في جامعة دكا. إنها أغنية محترمــة». واصل الغناء مدندنا هذه المرة. نام الطفل. توجهت نازنين بطاقتها نحوه وجلست ساكنة تماما. جلس شــانو مع كتابه. فكرت نازنين أن تسأل ماذا سيفعلون من أجل النقود. أي وظيفة سوف يحصل عليها الآن. شاهدته يخلع حذاءه وجوربه. انحنى ليفحص الأجزاء المتصلبة في قدمه، معتصرا كل واحدة تباعا، وقال «اش» في سره. بضع لحظات استولى الكتاب على انتباهه من جديد، ثم راح يدندن لوهلة وينقر بأصابعه، جلس ناظرا إلى الهواء، ترك الحذاء والجورب ونسيهما.

وضعت يدها على جبهة رقيب لمجرد الإحســاس به. لتمنحه القوة. على الرغم من أن الله وحده بالطبع هو الذي يمنح القوة.

مهما كان الذي فعلته فالله وحده قرر. الله يعلم كل شيء. يعرف عدد الشعرات في رأسك، لا تنس. قالت آما ذلك عندما كانوا يذهبون إلى المدرسة. كانت تصيح خلفهم بصوتها المخنوق. «الله يراك لا تنس. يعرف عدد الشعرات في رأسك». فكرت في ذلك. كلا، كل ذلك الذي فعلته من أجل رقيب لا يمثل شيئا. لقد قرر الله. فكرت في حكاية كيف تركت لقدرك. انظري! ليس ثمة فرق. لم تفعل آما شيئا لإنقاذها... وقد عاشت. كان الأمر في يد الله. صدر رقيب يعلو ويهبط. تحرك ومرر رياحا أثرت فيها بشدة.

في لحظة كانت حانقة. آما لم تقم بشيء لإنقاذ ابنها! لو لم تحضر نازنين (لم تأخذ دور زوجها في الاعتبار) الرضيع إلى المستشفى على الفور، كان سيموت. قال الأطباء هذا. لم يكن كذبا. هل راحت تهيم بلا جدوى في المنزل تولول وتفرك يديها؟ هل لفتت الانتباه إلى ورطتها بتنهدات طويلة وبكاء مخبأ بتباه؟ هل دعت الله في ورع أن يأخذ ما سيأخذه ويتركها خاوية الوفاض؟ هل تصرفت باختصار مثل أمها؟

شيء آخر كانت آما مخطئة فيه. ولادة طفل تشبه عسر الهضم! حقا، لو يعض الثعبان مثل النملة. فهو بالضبط الشيء نفسه. ليس ثمة شيء مغاير. لا عجب، اعتقدت ذلك وصدمت نفسها به، لا عجب أن آبا خرج لمدة أيام. تدفقت الدموع منه. جعلته غاضبا. حتى في الجنازة كان غاضبا. عندما أنزلها، الأرجل أولا، تلطخت ملاءة الكفن البيضاء بالفعل بالطين، بينما تسارع المطر ليملأ الحفرة. تركها تمضي بسرعة. تماسك خالي

وأوقفهــا من التدحرج على ظهرها. ضــرب آبا كفا بكف. ضوء أزرق شــق الســماء الحجرية عندما بدأت الصلاة، أخذ الرعد الكلمات من شــفتي الإمام، وراح المطر يملأ الأســماع والأبصار والأفواه.

قالت ممتاز «اذهبا والعبا، ســوف أدخلكمــا لترياها عندما أنتهي». فرت حســينة ولكن نازنين بقيت. قالت نازنين «حســنا اجعلي من نفســك نافعة. أنت امرأة الآن، على أي حال». أعطت نازنين الطبق النحاسي لتمسكه، بينما غمرت قماشة وعصرتها. أنزلت القماشــة وراحت تغســل وجــه آما، الجبهــة، الخدين الخافقــين، الذقن، فــوق الجفون، داخــل الأذن، داخل فتحتي الأنــف. خبطت يدها على شــفتها العليا والشــفة ظلت مجعدة ومرتفعة كاشــفة إلى الأبد عن اثنتين من الأســنان التي تشــبه بــذور البطيخ والتي كانت آما شــديدة الحرص طوال حياتها أن تخفيها. ارتفعت الملاءة. اســتدارت إلى ابنة أخيها «لا أدري ماذا كانت أمك ستقول بخصوص هذا».

قالت نازنين «القدر» وراح ظاهر عنقها يوخزها.

نظرت ممتاز إليها «بخصوص وجودك هنا».

«أوه» أصبح ظاهر عنقها يتحرق.

«علــى أي حال أنت امــرأة الآن». تحت الملاءة بدأت تغســل الجــزء العلوي من الجســد. أخرجت الذراع ومررت القـماشــة عليــها. لا يجب أن تحسبي أنها ماتت بمفردها.

أيتها الملائكة، تمنت لو وجدت مجالا للدموع. بدا الأمر خطأ. لم يكن أحد يبكي. لقد فقدت القرية أفضل نوّاحة فيها.

«الملائكــة كانت معها والله. بالطبع قد تلف الســاري. أفضل ســاري لديها. الباقي يمكنك أن تقتســميه مع حسينة». راحت تغسل الجذع. عندما ارتفعت الملاءة، رأت نازنين ثدي أمها يندلع على إبطها. ثمة خرقة بنية بها دماء كانت تســد الثقب الذي إلى اليسار تماما.

عندمــا غمرت ممتاز القماشــة في الوعاء طفــت قليل من القشور الدموية وتجمعت حول الحواف.

ذهبت نازنين لتغيير الماء. عندما دلقت الوعاء لم يكن بوسعها سوى التفكير في أنه عار أن تدلق جزءا من أمها.

تذكرت ممتاز «كانت دائما تقول إن كل شــيء يمكن أن يتغير هكــذا». طرقعت أصابعهــا. لقد وضع الله خططــه. قلت لها، أختاه، ولكن إلى أن يبينها يمكننا أن نســتمر بأنفسنا، حسنا... مصمصت شــفاهها. الآن أصبحت الخطــة واضحة. لقد أتت وذهبت. بف!

كانت مســتاءة من شــيء ما. وقفت نازنين منتصبة، آملة أن تبــدو مهيبة كما كانت تحاول أن تشــعر. في الحقيقة، أحســت بالضجر ساعتها والغثيان لدى رؤيتها الجثة.

انتهت ممتاز بالقدم اليســرى (كم هي صفــراء الأظافر!) وبدأت في التكفين. كشــفت النصف الأسفل لآما، ورغما عن نفســها نظرت نازنين إلى هذا العري غير المسبوق. التف مئزر حــول فخذيها من أعلى وردفيها. قماشــة أخــرى ربطت أولا الوســط. مئزر آخر كان بمنزلة شــورت، ولباس مستو والتالي أصبح نقابا. قالت ممتاز «أوه، الشــعر». أزاحت النقاب وبدأت

تلف شعرها، جالسة القرفصاء خلف التشوكي ومخرجة لسانها في تركيــز. عندها بدأ المطــر. أنذر خلال الأســابيع القليلة الماضية بسماء مكهربة وهواء ساخن جدا كان يومض بعيدا عن المتناول ويلفح أنوف هؤلاء الشــجعان بما يكفي لكي يتنفسوا، كان المطر يقابل بالبهجة. كان ينقر على سطح الصفيح، يطرق الأرض ويتواثــب في ابتهاج، ويقــذف بكتل كبيرة في المداخل. بينما تحمــل الوعاء، شــاهدت نازنين الأطفــال عندما كانوا يهرعون إلى الخارج للاســتحمام. راحوا يصرخون ويرفرفون بقمصانهــم المبللة ويدعكون شــعرهم. الكبار كانوا يســيرون الهوينــى متظاهرين بقلــة الاهتمام، كأن الســاعة المخصصة لجولتهم العادية حول المجمع قد حانت. ســار آبا عبر الساحة فتفرق الأطفال، ســاحبين بعضهم بعضــا إلى الوراء أمام هذه الطلعة الجبــارة المتقلبة. مد يده وربت على رأس مبلول لطفل صغير. ابتســم وبدأ الأطفال في الحركة مــن جديد. وجدت نازنين أخيرا دموعها وصبتها على ملاءة التكفين الشاملة التي كان مقدرا لآما أن ترتديها.

ســارت برقبة متخشبة. كان المستشفى هادئا. الغرفة مظلمة اللهــم إلا من وميض الآلات. شــانو لم يكن في كرســيه ورضية كانت تقف على الجانب الآخر من سرير الطفل؛ شعرها منكوش، والعينان ثقبــان ضيقان. يداها الهزيلتان إلى وجهها، تعض على نواجذها.

صاحت نازنين «ما الأمر؟».

وضعت راضية إصبعا على شفتيها. «شش، لا توقظيه».

«ما الأمر؟» في همسة هذه المرة.

قالت راضية بينما تنحني على السـرير «جميل جدا، أفضل بكثيـر عند هذه السـن، عندما لا يـردون بوقاحة. طفلاي في حاجة إلى لسع جيد بالسياط». صوتها كان متكسرا، لكن عينيها البعيدتين قدر المستطاع ظلتا جافتين.

«هل تريدين شايا».

«شـاي؟ لن أشرب مزيدا من الشـاي. طوال اليوم كان هناك شرب شاي». هزت نفسها لتتخلص من الفكرة.

«تعالي واجلسي معي».

توجهت راضية وجلسـت. ضغطت على صدرها وحكت أنفها الطويـل. ارتطمـت فردتا حذائها معا. قالت فـي النهاية « لقد مات».

قالت نازنين بحماقة «ماذا تقصدين؟».

«زوجي مات. العمل قتله».

اعتقدت نازنين أن الاهتياج هو الذي قتله.

«في السـلخانة. كانوا بصدد شحن السيارة، لكن كانت هناك حادثة».

حاولت نازنين أن تجد الكلمات.

«قتل بالذبائح الهاوية. كان فقط وحده بضع لحظات وعندما عادوا إلى الداخل كان تحت البقر. سـبع عشـرة بقرة مجمدة. جميعها فوقـه». نظرت إلى نازنين. التوى فمهـا . «هكذا انتهى الأمر». وأردفت «والمسجد حتى لم يبن».

«الأطفال..».

«عند السـيدة إسـلام». هزت كتفيها بعض الشيء. «قدم ناس. صنعوا شـايا، أحدثوا نحيبا وأشياء من هذا القبيل. قلت لهم أريد أن أكون بمفردي. ولكـن عندما انصرفوا، لم أرد أن أكون بمفردي مع... أنت تعرفين. ظللت أفكر في هذه البقر. لذا جئت إلى هنا».

أمسـكت نازنين يدها وراحـت تدلكها بوصـة بوصة لتزيل قليلا من الألم، لتمتص شـيئا لنفسـها. راحت الآلات تئز برضا والشاشات تستنفد رقصها اللانهائي. في مكان ما خلف الجدران ثمـة امرأة تصيح في توجع غامض. الأرضية المعقمة كانت تبدو رتيبة من تحت أقدامهما وتبعث رائحة الأسى المحايد».

تأوهـت راضية «يمكنني أن أحصل علـى تلك الوظيفة الآن. ليس ثمة جزار ليذبحني الآن».

سارت إلى غرفة المعتوه. علامات الجنون في كل مكان. الأثاث المحطم تكوم عاليا، تناثر، اختلـط. الأوراق والكتب تبعثرت في حرية - بطريقة ماجنة - فوق عتبة النافذة، الطاولات، الأرضية. الأبسـطة المزعجة مـن كل لون، صممت بطريقة غير مباشـرة لتربك العين وتوقف القلب. خزانة الزاوية وخزانة العرض المطلية بالحليات. ورق الحائط الأصفر المصفوف من أعلى ومن أسـفل بمربعـات ودوائر. خليط الإطارات التـي تجاهد بحثا عن فراغ على الحوائط. ثمة شـخص مهتاج شـد أطباقا بسلك إلى هذه الحوائط نفسها؛ لذا كان يبدو أن الخزف يحاول الهروب.

كم أصبحت بسرعة معتادة على المستشفى. أدركت مع تنهيدة، كم سـتصبح معتادة على هذه الغرفة من جديد. اختبرت أقرب كرسـي. لم تتذكر هذا. لكي تصل إلـى النهاية البعيدة للحجرة

كان عليها أن تعبر فوق الطاولة المنخفضة ذات السطح الزجاجي والأرجل البرتقالية. الكرسي الخيزران قد أزيلت قاعدته. ثمة خيطا شعر مفردان انسحبا محلولين عبر الهوة.

إلى الجانب تقر كرة من الخيط الملفوف وكماشة. إذن لقد بدأ العمل الخاص بتجديد الكراسي. رفعت الكماشة معتقدة أنه من الخطر أن تترك في المكان مع عودة رقيب عاجلا. رفعت ثلاثة أقلام ودفتر ملاحظات وكوبا صينيا، ثم أنزلتها ثانية لتلتقط حفاظة شاردة ونصف بسكويتة وعلبة كوكا فارغة استخدمها رقيب مثل طبلة. فلنكن منظمين، فكرت في ذلك، ووضعت كل شيء على الأرضية. تأخذ حماما أولا ثم تخلي مكانا في أدراج المكتب. ثم ترتب أشياء على الفور. لو عجلت سوف يكون هناك وقت لتمر على راضية. قال شانو هذه هي المأساة. الرجل يعمل كالحمار. لكنه لا يقوم قط بانطلاقة. ففي قلبه لا يغادر قريته قط. هنا، بدا شانو يبرز صوته. ماذا يمكنك أن تفعل؟ رجل غير متعلم كهذا. هذه هي مأساة المهاجر.

جاءت هانوفا على الباب قبل أن تذهب نازنين إلى الحمام. قالت «كنت أشاهدك، لقد أحضرت بعض الطعام». أخذت نازنين الأوعية. زوجي كان يطهو. قالت هانوفا «أعرف، لكنني لا أعرف ماذا أحضر غير ذلك».

غسلت نازنين نفسها بقطعة من صابون البيرز وغسلت شعرها بالفيري ليكويد وعندما انتهت رشت بين أصابع القدم بودرة التلك. في غرفة النوم، وقفت في تنورتها التحتية والتشولي[٢٩].

(٢٩) تشولي: بلوزة تلبس تحت الساري - المترجم.

وتطلعت إلى سارياتها. ضلفات الدولاب تلامس جانب السرير، صانعة غرفة أخرى بجدران سوداء داخل حجرة. بنطال لشانو ملقى في أرضية الدولاب. بنطلون آخر يتدلى على كرسي مدسوس تحت الملابس المعلقة. رفعته، خلعت تنورتها، ولبسته. وحتى ترى نفسها كان عليها أن تقف على السرير وتنظر إلى مرآة التسريحة ذات الحواف المجعدة. عندئذ لم تستطع أن ترى سوى ساقيها، وتقوست وانثنت لتحاول أن تحظى بانطباع عن كل ذلك. خلعت البنطال ولبست من جديد تنورتها وسحبتها إلى أعلى لكي تتوقف عند الركبتين. تخيلت نفسها وهي تسير فوق ملاءة السرير تهز حقيبة يد مثل البنات البيضاوات. سحبت التنورة إلى أعلى وتأملت ساقيها في المرآة. سارت باتجاه مقدمة السرير وهي تدير جذعها لتلتقط رؤية خلفية. لمحة من بنطال. بالقرب من الحائط وعيناها إلى المرآة، رفعت إحدى ساقيها عاليا على قدر استطاعتها. أغمضت عينيها وانزلقت. هراء. تذبذبت ساقها. فتحت عينيها وأعجبت بساقها السمراء الممشوقة. ببطء سحبت الساق اليسرى إلى أعلى ووضعت الكعب على باطن فخذها الأيسر. حاولت أن تدور لكنها تشابكت في مفرش السرير، ثم وقعت على الملاءة تقهقه.

في هذا الوقت راحت تفكر، أين الضرر؟ تدحرجت لتلف نفسها في مفارش السرير وقررت أن تطفو طليقة لوهلة. لم يخطر شيء على بالها. راحت تحدق في السقف. تذكرت أن تجهز قبعته. سوف يحتاج إلى ذلك من أجل الرحلة إلى الوطن. ثم لا شيء. الثلاجة تحتاج إلى تنظيف. مزيد من ورق الحمام.

صفعت السـرير. تكتب إلى حسـينة. ذلك أفضل. تغسل بعض الملابس قبل أن تزداد كومة الملابس. كلا، كلا، كلا. شدت الأغطية فوق رأسها. قالت بصوت عال « ice e-skating تورفيل ودين[٣٠]».

مازال ليس هناك شيء. تركت السرير ولبست بسرعة. ثم وجدت قلما وورقة وكتابا لتسند عليه وجلست على حافة الفراش.

أختي العزيزة، بدأت ولاكت طرف القلم.

أنا بخير وزوجي كذلك. كان رقيب مريضا ولكنه أفضل الآن.

لاكت طرف القلم أكثر. كانت فكرة الكتابة مبهجة على الدوام، غير أن العملية كانت مؤلمة. مهما كانت الأشياء الكثيرة التي تفكر فيها كي تقولها، مهما كانت الكلمات التي تنساب في رأسها بينما تقوم بواجباتها المنزلية، وعلى الرغم من العاطفة التي تتزايد وتعتلج بينما تتشكل حبكة الرواية فإن البوح لا مناص كان مختصرا وواضحا، شيء متواضع محبط مثل محصول قد أخفق. راحت تكتب:

أخذناه إلى المستشفى، كنت حزينة جدا، ثم فجأة أصبحت سعيدة، حتى قبل أن يتحسن. في القريب أحضره إلى المنزل.

أعادت قراءته ثم كمشت الورقة. راحت تكتب في ورقة جديدة:

أختي العزيزة، أتمنى أن تكوني بخير. شكرا على خطابك. رقيب كان مريضا لكن أحسن الآن. أخذناه إلى المستشفى. شيء غريب حدث. جلست بجانبه وأحسست بالسعادة. لست سعيدة

---

(٣٠) المقصود الثنائي جين تروفيل وشريكها كريستوفر دين وهما من رموز التزلج على الجليد في إنجلترا، حيث فازا في الأولمبياد الشتوية بالميدالية الذهبية سنة ١٩٨٤والفضية سنة ١٩٩٤ – المترجم.

من أجل كونه مريضا. ولكن سعيدة بخصوص شيء ما في أعماقي. لقد ترك شانو وظيفته. هو بخير. أتمنى أن تكوني بخير. راجعت أسلوب الكتابة ثم حذفت الجملة الأخيرة حيث كررت نفسها. غيرت جملة «ولكن أحسن الآن» إلى «ولكنه الآن أحسن». ثم حذفت الجزء الخاص بكونها سعيدة. راحت تلوك طرف القلم.

سيكون عليها أن تفسر باهتمام أكثر. حاولت أن تأخذ ذلك في الاعتبار. ما الذي جعلها سعيدة هكذا؟ رسمت وجها وجعلته يبتسم. لقد كافحت من أجله. أضافت جسدا كعود الثقاب. غير متقبلة. محاربة. رسمت زهرة وأعطتها ساقا طويلة. القدر! مسألة قدر. طائر. حاولت رسم طائر ولكنه بدا أكثر مثل مشجب معطف. أحرك قلمي. بهذه الطريقة. وتلك. بدأت في رسم فيل وحولت الأرجل الخلفية إلى حصان. ليس من أحد آخر هنا. ليس من أحد آخر يحرك هذا القلم.

الآن راحت تكتب من جديد.

أختي العزيزة. أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام معك. الطفل كان مريضا، ولكننا نتوقع أن نحضره إلى البيت قريبا. لقد ترك شانو وظيفته. لست قلقة، وعليك ألا تقلقي. عندما يعود الطفل إلى البيت سوف أكتب لك ثانية. خطاب طويل في المرة المقبلة. أدعو الله أن تكوني بأمان.

رتبت الشقة وحاولت أن تصنع بعض الفراغ في حجرة الاستقبال بتكديس الأثاث. حالما انتهت من التكديس استحثت الركام وشاهدته يتأرجح. لذا بدأت تخفف من التكديس. عملت

بســـرعة وتدربت بصوت عال طالبة من كمساري الحافلة تذكرة. فجأة خطرت على بالها، فكرت أنها قتلت زوج راضية. كان رقيب هو المقصود أن يموت. ولكنها أجبرت الموت على الابتعاد. اضطر الموت أن يختار من جديد. صاحت «ابتعد عني! ابتعد عني! ارجع إلـــى الجحيم، حيث تنتمي». بهـــذه الكلمات أبعدت الجني الذي رقص رقصة موجزة ومغيظة داخل الحجرة وداخل رأسها.

في الوقت الذي وصلت فيه إلى الســـاحة نســـيت أمر الجني. كانت الشمس في الخارج ومألوفة الآن غير أنها مازالت من دون اسم، أظهرت الشجرة في الركن براعم خضراء شاحبة. العشب، شـــامخا على الرغم من المتاعب، كان يحاول نموا جديدا. ورائحة روث كلب تنطلق بخفة على الحصى المقطرنة للأســـفلت الأسود. والخرســـانة قد غطيت والحصـــى المقطرنة لهـــا رائحة المطاط ورائحة عادم السيارات، فبدد رائحة فضلات الكلب، حتى عندما اجتازت نازنين الفوضى. شعرت بالشمس على وجهها وكان شعورا طيبا، كانت تود أن تشعر بها على ساقيها. عندما مرت بمجموعة من الشباب البنغال في الممر، تفرقوا وانحنوا في رسمية ساخرة. أحدهـــم ظل منتصبا، رأت نظرتـــه، متحديا أو ناكرا. صبي آخر خر على ركبتيه. أوه، أوه. إنني أحتضر. إنها تحطم قلبي! سحبت نازنين شالها على وجهها لتخفي شفتيها اللتين انتفضتا إلى أعلى عند الزوايا وانفرجتا ثم انتفضتا من جديد.

مستشفى، مستشفى، مستشفى. أصبحت لديها كلمة إنجليزية جديدة. داعبتها على طول الطريق إلى أســـفل الممر. لم يسمعها شـــانو وهي تدخل، أو أنه ســـمعها ولكن لم يلتفت. وضعت يدها

على كتفه، واندهشت كعادتها، كم كانت كتفه نحيلة. ثمة بقعة صغيرة كانت أعلى رأسه، نقطة صغيرة غاضبة بين الحشيشة النحيلة للشعر. لم يتطلع. عندها رأت سرير الطفل الخالي. رقيب أخذوه لمزيد من الاختبارات. قالت نازنين «مات» قال شانو «لقد مات» ثم تطلع إليها. برزت بطنه إلى الأمام تحت قميصه.

«لا تقلقي. لن يستغرقوا كثيرا. سوف يعيدونه إلينا على الفور».

رمش شانو. بدت عيناه محاصرتين أكثر من أي وقت.

«هل ستغسلينه؟ لا أعتقد أنني أستطيع أن أغسله».

«كنت دائما أمنحه حماماته». ذهبت نازنين لتجلس.

كانت الغرفة أكثر هدوءا من المعتاد. هدوء ارتفع بطريقة ما فوق الصخب الخافت للمستشفى. أطفئت الآلات، ذلك ما كان.

قالت نازنين « حمام بالليفة، ذلك ما كنت أفعله».

تدلى رأس شانو إلى الأمام. لم يتكلم. رجل الأفعال لم يكن يتكلم. ولم يكن أيضا يفعل. شاهدت نازنين الأكواب البلاستيكية بجوار الحوض، المناشف والملابس تثير الفوضى على السرير المطوي حيث كانت وشانو يتبادلان النوم. وثبت نازنين. «يجب أن تنصب هذا».

تأوه شانو «يا إلهي يا إلهي، اتركيه».

قالت «رجل الأفعال» وتذكرت بقشعريرة كلمات راضية: رجل قوالب الطوب

«إنه حتى لم يبرد بعد! ابنك لم يبرد بعد. اللعنة لا ترتبي المكان».

«ابني؟» الآن، وحتى الآن كانت ترفض.

راح شانو يعصر عينيه، وانحدر بعض الماء على خديه لذا كان يبدو أنه ينتزع الدموع.

«يجب أن نمضي ونتسلمه. إنهم لا يعيدونه هنا».

إنهم لا يعيدونه هنا. كانت لاتزال تحمل الأكواب البلاستيك. التقطت آخر ووضعته في أشيائها في كومتها.

«قالوا إنهم سوف يحررون الجثة بسرعة. قالوا إنهم يعرفون أننا مسلمون. يعرفون، قالوا إنهم يعرفون أننا نحب أن ندفن موتانا بسرعة».

كم نحب أن ندفن موتانا بسرعة. شرعت تطوي الملابس. شدت خيطا ضالا من قميص داخلي، نزعت وبرا من معطف. وصل شانو إليها وأمسك ذراعيها. خلص أصابعها عن معطف رقيب. وحتى يجعلها تجلس اضطر أن يدفعها إلى السرير. تركته يأخذ يدها في يده.

أجل سوف تقوم بتغسيله. لقد جاءت به إلى العالم ولسوف تخرجه. لقد رأت رضعا يدفنون. في القرية. كثيرا ما كان الرضع يدفنون. يمكنها أن تتذكر الجنازات، جنازة أو اثنتين لأولاد العم الذين جاءوا إلى العالم وغادروه ثانية على الفور كأنهم تجولوا في حجرة سبيل بالخطأ، اعتذروا وعادوا. رزم صغيرة بيضاء طقطقت في حفرة وغطت بالأوراق أو العلب، حتى لا توسخهم التربة، وهكذا يخرجون نظيفين كما دخلوا. تذكرت عملية الدفن، أما عن المدفون فلم تتذكر شيئا.

الفصل السابع

أبيض

دكا، بنجلاديش

مايو ١٩٨٨

وهبـك الله الراحة يا أختاه في سـاعاتك المظلمة. إنني أدعو بدعاء النور لك:

اللهـم اجعل في قلبي نورا وفي لسـاني نورا وفي سـمعي نورا وعن يميني نورا وعن شمالي نورا ومن أمامي نورا ومن ورائي نورا ومـن فوقـي نورا ومن تحتي نـورا. اللهم يا عالـم خفايا الصدور أخرجني من الظلمات إلى النور. أدعو لك ولزوجك الحبيب[٣١].

حسينة

سبتمبر ١٩٨٨

أختـاه لدي شـيء كثيـر لأخبرك بـه. لدي عنـوان جديد في نارايانا جـانج[٣٢]، وظيفة فـي مصنع جديد إننـي عاملة ماكينة، وظيفة امرأة بحق الآن.

قال السـيد شـودهري أن أحزم حقائبي ولا أقلق. قال «عمارة بوكا، غرفة أكبر». هو يحضر في سـيارة تويوتا لاند كروزر تكييف هواء راديو مطفأة للسـجائر وكل شـيء. هو بمنزلة أب بالنسـبة إليّ. دائما يقول «أي شيء تحتاجينه. أي وقت تواجهين مشاكل. تعالي إليّ». هذه نوعية رجل.

عندما أتينا ثمة مشكلة بسيطة إلى حد ما. السكان السابقون لم يعزّلوا. المرأة تقوم ببعض السباب أمام الأطفال، تلفظ كلمات بذيئة.

---

(٣١) خطابات حسينة كلها ذات إنجليزية ركيكة استوجب معها ظهور مستوى آخر من اللغة في الترجمة العربية.

(٣٢) نارايانا جانج: مدينة في وسط بنجلاديش بالقرب من دكا ـ المترجم.

رجال السيد شودهري ساعدوا من أجل أن يرحلوا. ساعتها أنظف الحجرة. هؤلاء الناس سكان سيئون لم يدفعوا أبدا بنسا واحدا. الإيجار يكلف مزيدا من التاكات لكنه غرفة أكبر ومنطقة محترمة. بناية مثل تلك تكون ببلكون طويل وواطئ في الأمام وآخر في الخلف. وراءنا أسرة ولدان وثلاث فتيات. عندهم اثنين حجرة. صلاة الفجر الثانية آخذ السجادة أسمعهم يبدأون الجدال السعيد. الأب يمر بي معظم الأيام في الطريق إلى العمل. علبة تيفن[٣٣] مربوطة على ظهره والابن الصغير يجلس على مقود الدراجة يبدو أنيقا مثل أي شيء في أزياء المدرسة ويدق الجرس طوال الطريق. الأب موظف في محكمة المقاطعة. تلك هي نوعية الجيرة. لدينا أرضية خرسانية ناعمة جدا والجدران سوف تغطى بالجبس من الداخل قريبا. حجرتي بها جدار واحد شبه مغطى بالجبس بالفعل.

كل الحجرة الأخرى على امتداد المؤخرة مملوءة من رجال مصنع الخيش. ثلاثة أربعة في غرفة واحدة. إنهم يطبخون معا في النهاية البعيدة للبلكون وأحتفظ بمنطقة خاصة. يقول السيد شودهري إذا ضايقوك تعالي إليّ. سوف أكسر أيادي وأرجلا. لا يضايقني أحد. أربعة خمسة رجال في كل حجرة ولكن لا يوجد فوضى على الإطلاق. نصف البلكون له سور. النصف الآخر سرق. السيد شودهري أخبرني سرا أنه يعتقد أن السكان السابقين أحرقوه من أجل الوقود. عمال الخيش يضعون الغسيل في الأعلى. كله نظيف جدا. المآزر، القمصان الداخلية، بيجامة، بنطال برجل واحدة وقميص تحفظ معا.

(٣٣) تيفن: وجبة غذاء خفيفة ـ المترجم.

خطوط السكة الحديد تمر بالبناية. كم هو سهل بالنسبة إلي السفر. عمال الخيش يسمعون القطارات قادمة يقفزون من البلكون ويهرولون بموازاة أشجار جوز الهند وينزلون إلى الضفة منزلقين ويلقون بأجسادهم داخل القطار. دائما يعلقون في مكان ما بمقبض نتوء باب السلم شيئا ما. هذه هي الطريقة التي يذهبون بها إلى الطاحونة.

اليوم ثمة إضراب من جديد. بعض الرجالين هنا يتأرجحون في أرجوحات شبكية يمضغون القدر ويبصقون. الأغلبية يذهبون إلى التجمهر. يقول السيد شودهري إن كل هؤلاء المضربين كسالى جدا ولا يصنعون سوى الإجازات. غير أن كل الأشياء تغلق أبوابها في يوم الإضراب لذا أكتب كل شيء يأتي على بالي. لديه الكثير يقوله عن المضربين السيد شودهري. لكنه رجل عادل. يقول إن القادة جميعهم سيئون على الشاكلة نفسها. المديرون القضاة، الساسة، اتحادات تجارة، القوات المسلحة الجميع أصبحوا سيئين. عندما يحصل على عقد حكومي لابد أن يضيف السيد شودهري نسبة خمسة وعشرين بالمائة لتغطية نفقات الدفع للوزير والخدمة المدنية. لقد أمد أجزاء كهربية لشبكة القوى. كذلك يصنع حمامات السيراميك والحوض. فقط تخيلي! لو يضع الكهرباء والحوض في هذه البناية! ربما عندما تنتهي الحوائط من تغطيتها بالجبس.

ليس ثمة نهاية للفساد. إن هذا يجعله حزينا كلية في الواقع الحقيقي. تعرفين أن لديه وحمة فوق العين اليسرى والخافق. إنها تغدو حمراء مثل جرح جديد عندما يتحدث

عن تلك الأشياء. كذلك تدفعه لحكها. عندها يبدأ في لف عصاه الفعل الوحيد عندما يكون منزعجا. لديه الآن عصا جديدة. العاج في طرفها ومقبض يشبه مخلب طائر، ومم هي مصنوعة؟ المقبض إذا كان باستطاعتك أن تصدقي أو لم يكن باستطاعتك من الذهب. يبدو رجلا نبيلا بهذه العصا.

القصة التي قالها هي أن أحد الأصدقاء رشا محصل ضرائب لتسلم استمارة ضرائب. من دون رشوة سوف يسجن. كيف تدفع ضرائب من غير استمارة أولا؟ السيد شودهري نفسه يرشو شركة التلفونات للحصول على الفاتورة. ليس كافيا أن تدفع للتلفونات، هذه الاستمارة تمثل تكلفة إضافية. حتى الرئيس يبدو أنه سقط في الأساليب الملتوية. صورته إنها فوق الحائط في حجرتي. أعتقد أن أحتفظ بتلك الصورة فوق حائط، إلى حد ما تضفي جمالا. غير أن السيد شودهري صاح مثل أي شيء «إرشاد[٣٤]! أنت جوندا[٣٥]!» ثم وضعها على الأرض وداس عليها وكسر زجاجها.

احتفظت بالإطار ربما أستخدمه فيما بعد.

الجامعة أيضا تقوم بإضراب. جميع الطلاب يتظاهرون. إنهم يتجمهرون من أجل حق الغش. في قلبي أدعمهم. البعض الذين يتحملون الدفع للأساتذة لدروس خصوصية يشترون ورقة الامتحان. من أجل العدالة يجب أن يقصد الجميع غشا مكافئا.

---

(٣٤) إرشاد: المقصود محمد إرشاد رئيس بنجلاديش من سنة ١٩٨٣ إلى ١٩٩٠ ـ المترجم.

(٣٥) جوندا: عامية شائعة في جنوب آسيا تعني: سفاح ـ المترجم.

إنني أنتظر خطاباتك. أمتلئ بالسعادة لوظيفة زوجك الجديدة. بالفعل إنه يتحدث عن الترقية. رجال كثيرون يستغرقون سنوات طويلة. أرسل هذا الحب، يصل العالم بأسره من أجلك. حفظك الله ووهبك مزيدا من الأولاد.

نوفمبر ١٩٨٨

أختي العزيزة يا لها من غرفة جميلة تعيشين فيها! أخيرا رأيتها بعد طلب كل السنوات العديدة. وضعت الصورة أعلى قفص بجوار صورة رقيب. عندما أحظى بزجاج أفكر أن أضعهما داخل البرواز. أنت لا تتحدثين قط عن دولاب العرض، خزانة الزاوية، ورق الحائط. إن جميعها عادي بالنسبة إليك الآن مثل أي شيء. كل يوم أفكر أن أختي أنا هناك بخزانة عرض وخزانة زاوية وكل شيء. ثمة قلق بسيط فقط، ذراعاك نحيلتان ووجهك أيضا. غير أن زينب تقول إنها موضة في لندن أن تكوني نحيلة.

زينب أم تعيش وراءنا. إنها تقول «هذه البناية سوف تتهدم. انظري كم هي قريبة من خط السكة الحديد». تقول إن السيد شودهري يوبخ بالإيجار وبسرعة يرحلون. أقول لها إن عامل الجبس في الطريق غير أنها مصممت صانعة صوتا كالصفير. ليست امرأة ودودة هكذا. فقط الكلمات التي تلفظها عبارة عن شكوى. زوجها يعمل في محكمة المقاطعة، تعتقد أنها القاضي وهيئة المحلفين الآن. زينب تتحدث كما تشاء.

قلت لك عن مصنع الملابس. مجرد نصف ساعة مشيا من هنا وهو مكان جميل. الساعة الثامنة ميعاد البدء. لابد أن يأتي

الجميـع قبل ذلك ببضع دقائق وفـي الثامنة بالضبط يفتحون البوابة.

إذا حضـرت متأخرة فهذه مشـكلة لأنهم يغلقـون البوابة بعد ذلـك لتوفيـر الأمان. إن لها ثـلاث غرف حول السـاحة جميعها خرسـانة صلبـة جديدة. أحد الأماكن مخصـص للماكينة. إنني أذهـب هناك. مكان آخـر مخصص للقص والتشـطيب. الرجال يذهبـون هنـاك. ثمة غرفـة صغيـرة مخصصة للمديـر والعمل المكتبي وما إلى ذلك.

ماكينتـي جديـدة جـدا قلمـا أجـرؤ علـى لمسـها وتلويثهـا بأصابعي. عندما أجلس وأشـغلها تعرفني، بالنسـبة إلى مبتدئ توخـز الإبهام. إنها تقرقر مثل قط فقط بالنسـبة إلي. شـخص ما آخر يستخدمها عندها تبدي حالة وتدرك كل الملابس وتقطع الخيوط. تقول عليّة إذا كانت الأشـجار لديها أرواح فلم لا تكون الماكينة. تقول شاهناز إن عليّة ريفية ساذجة وليس سلفا لأشجار وصخـور العبـادة. لا تقول ذلك أمـام عليّة. طيبة جـدا ولطيفة شاهناز هذه.

إننـي عاملة ماكينة والأمور مختلفة الآن. عندما كنت مساعدة أتنقـل بالخيط والقمـاش كنت مجرد فتاة. حتى على الرغم من أننـي أعتقـد أنـي امـرأة قبل ذلـك بفتـرة طويلة. نحـن جميعا نتحدث معا في اسـتراحة الغذاء. أربع في صفي نلتصق كأخت. عليّة وشاهناز ورينو وأنا. حدثتك عنهن أخواتي الأخريات. عليّة لديها خمسـة أطفال قادمة من نوخالي(٣٦). طوال حياتنا نعتقد

---

(٣٦) نوخالي: مقاطعة في جنوب شرق بنجلاديش ـ المترجم.

أن النوخاليين لا يستحمون أبدا لذا يبدو أن لهم رائحة التوت لكنني أعطي وعدي بأن عليّة ليست لها رائحة. النقود التي تكتسبها ترسل بها أولادها إلى المدرسة. الزوج يثير لها المتاعب ولكن عليّة تفكر في الأولاد فقط وليس الزوج. الزوج يقول «لماذا يجب أن تعملي؟ إذا عملت سيبدو الأمر سيئا. سيقول الناس إنه لا يستطيع أن يطعمها» ولكن عليّة تظل تسقط الأمنيات في الأرز. مزقة من ملح مزقة مما تريد وفي نهاية المطاف يستسلم. يشتري لها البركا وكل يوم يسير معها إلى المصنع. وفي المساء يكون في انتظارها عند البوابة.

شاهناز أكبر مني سنة أو سنتين واستمرت في المدرسة فترة طويلة. معظم اليوم تتحدث عن الزواج. الوالدان انتقيا سبعة أو ثمانية أولاد لكن شاهناز ترفضهم جميعا. وهي لا تقبل الهبة «لماذا نمنح هبة؟ إنني لست عبئا. أنا أكسب نقودا. إنني الهبة» لقد أصبحنا قريبين. إنها تبين لي كيف تستعمل مستحضرات تجميلها وتعلمني كيف تجعل الحاجبين أقل قبحا عن طريق إزالة الشعر. إنها تجرب بعض الروج على خدي لكنها تمسحه. إن لوني غير مناسب للروج. إنه يجعله يبدو رخيصا.

أكبرنا هي رينو أرملة زوجوها عند الخامسة عشرة لرجل عجوز مات خلال ثلاثة شهور. رجعت إلى أبيها وفي وقت قصير طردها. لقد عملت طوال حياتها ولكنها الشخص الذي لا يرغب في هذا. وعلى الرغم من أنه ليس لديها إلا سنين فإنها تأكل كل شيء على الإطلاق. لثة قوية تقول «أستطيع أن أكسر صخورا بهذه اللثة». كل غداء تمضغ بذور التنبول. إنه ممنوع ولكن رينو لا

تلقي بالا. أسأل لو تتزوج ثانية». من سيتزوج هذه العظام «تشيح بيديها ولكن ليس ثمة عظام مظهرة الأساور من المعصم حتى الكوع». حياتي! حياتي! انتهت عند الخامسة عشرة. ربما أيضا أكون هندوسية. قبره كان كبيرا بما يكفي لاثنين. لماذا لم أقفز فيه؟ «إنها تبصق أيضا غير مبالية بأن البصق ممنوع. إنها تقول ليس ثمة أحد يحميني. عليّ أن أسير هنا وهناك دائما بمفردي. أي شخص له أن يقول أي شيء يشاءه لأنني امرأة وحيدة. لقد وضعت هنا على الأرض لكي أعاني. هذا كل ما في الأمر.

إنني جدا أتعاطف معها. ففي حياتها لم تحظ بحب. هذا خطأ كبير.

ولكن أحيانا تذكرني بآما وعندئذ لابد أن أجد سببا للابتعاد عنها.

من المخجل أن وظيفة زوجك ليست كما يتوقع. رجل مهارة مثله يجد وظيفة أخرى بسرعة على الفور مطلقا.

يناير ١٩٨٩

أختاه كثيرا جدا ما أقرأ خطاباتك لقد بلت الورقة. كم هو قصير هذا الخطاب لقد حفظت معظمه عن ظهر قلب. الخطاب الأخير يبدأ بالكاد ثم ينتهي. إنك مغتمة. أشعر بذلك. أفكر وأفكر ماذا عليّ أن أفعل. تقولين إن الصديقة تحصل على عمل خياطة. لماذا لا تحصلين أنت الأخرى على هذه الخياطة؟ تنتظرين وقتا مناسبا لتطلبي من زوجك. بعدما يجد عملا لنفسه سيكون سعيدا أن تعمل الزوجة أيضا.

العمل يشبه العلاج. البعض يجدونه سبة أقصد رينو. ولكنني لا أجده. الخياطة نزجي اليوم وأنا أجلس مع الأصدقاء. باعتبارها حقيقة واقعية إنها تجلب أصدقاء حقيقيين وحبا حقيقيا. زواج الحب ربما يفضل أن نسميه شيئا آخر غير الحب. في الزواج الفعلي ينمو رويدا رويدا. عادة. الجلوس معا. يعطون شيئا هنا وشيئا هناك. هذه هي الطريقة التي يأتي بها في العمل.

بعض الناس يثيرون المتاعب خارج المصنع. إنهم يصيحون لنا «هيا تعالين يا فتيات المشغل. اخترن الشخص الذي تحبونه». ثمة ملا ينظم كل الأشياء برمتها. ليل نهار يذيعون رسالة دينية بمكبر الصوت. يقولون إنه شيء آثم للرجال والنساء أن يعملوا معا. لكنهم هم الأشخاص الآثمون يستغلون اسم الله لإلقاء الاتهامات إلينا ويقولون كذبا. زوج عليّة يصبح منزعجا مثل أي شيء. يريد أن تلبس عليّة البركا داخل المصنع. شاهناز تقول لم القلق لا أحد يريد أن ينظر إلى وجه القرد. إنها تتضايق فقط وحريصة ألا تدع عليّة تسمع.

الرجال والنساء يظلون منفصلين هنا. ليس ثمة رجال يعملون بالماكينة. الرجال لا يستطيعون أن يجلسوا هادئين طويلا. يجب أن يتململوا ويتكلموا ويتمشوا هنا وهناك وهم يدخنون. إنهم يصنعون الموديلات ويقصون القماش، هذا عمل صعب. إنهم أيضا يقومون بالكيّ. ذلك عمل صعب للغاية بالنسبة إلى امرأة نحن لا نفهم الكهرباء. هكذا ترين طبيعة الأمر وإذا كان لابد أن نتكلم فإنه كأخ وأخت... عبدول مقص دار دائما يناديني بأخت. كل يوم لديه قميص جديد.

شاهناز تقول إنني أرتدي لون ساري غير مناسب. أنا شاحبة جدا على أن ألبس الأحمر أو الأزرق أو القرنفلي. القرنفلي أكثر سوءا. البني أو الأخضر يناسب أكثر. إنه برمته يعتمد على درجة لون البشرة لأنه على شاهناز القرنفلي جميل جدا. إنني أقضي وقتا قليلا في اللبس. شاهناز تقول تعرفين كيف يتحدث الناس. إذا لبست لونا فاتحا يقولون إنك تطلبين منهم أن ينظروا.

زوجة القضاة تستكمل الأمر. بالأمس تقول «الأفضل أن تأخذي بالك. دعي عمال الخيش يكتشفون أن ثمة فتاة مشغل هنا وعندئذ سيكون هناك مشاكل». أسألها لماذا، أي نوع من المشاكل؟ «حسنا سوف يقولون إن فتاة تتنقل هكذا. وعندها يكتشفون أنها عاملة مشغل، هل تريدين أن آخذ عصا وأسحبها هنا في التراب لأجلك؟» لذا أخبرها أن النقاء في الذهن. اجعلي نفسك نقية في الذهن ولسوف يحميك الله. أطبق أصابعي وأصنع قبضة. أظل مطبقة أصابعي هكذا لا تستطيعين أن تفتحي يدي هل تستطيعين؟ قلت لها هذا. حتى لو حاولت سوف يستغرق الأمر كثيرا جدا ليس جديرا لأجلك. نفس الشيء حشمتي. إنني أحتفظ بالبردة في الذهن ليس ثمة أحد يستطيع أن يأخذها. ساعتها انتهت المحاكمة وزوجة القاضي وحدها كانت تبدو مذنبة.

ثمة وقت إضافي الأسبوع القادم. طلبية كبيرة تأتي من اليابان. رينو فقدت الوقت الإضافي. فلقد اقترفت أخطاء في هذا الأسبوع أتلفت بعض القمصان فوضعت الياقات بطريقة

خاطئـة. شـخص ما وشـى بها بخصـوص مضغ التنبـول أيضا. قالت عليّة إنها شـاهناز ولكنها تنكر. شـاهناز تقول ينتهي الأمر برينو إلى تكسـير الصخـور. «يفضل أن تزيد من قـوة هذه اللثة وتستعد». شاهناز هذه الساخرة. كم نصبح قريبين.

تكسـير الصخـور تريـن هـذا الأمـر ليس دعابـة. أحيانا أسـلك الطريـق المنخفض بجوار خط السـكة الحديـد للعمل. بضع دقائق هادئة، منزل جميل أشجار، جوز الهند، زهر المانوليا البري. ثم تـرين مكسـري الصخـور. طـوال اليـوم يجلسـون القرفصاء فـوق صخور حمـراء بمطرقة حجريـة صغيرة. كومة هائلة جـدا في انتظار هذه المطـارق الصغيـرة. مثلمـا تأخذيـن ملعقـة صغيرة لإفـراغ بحيرة. الأغلبيـة نسـاء ويبدون جائعـات. الأطفـال يسـاعدون. أطفال ذوو بطون ممتلئة وما زالوا يضحكون يدقون يكسرون يضحكون. معظم الأيام أسـير في الطريق الخلفي إنه أطول ولا يوجد به أزهار لكنني أحبه أكثر.

مارس ١٩٨٩

لقد سـمع اللـه الدعـوات! ما هو تاريـخ الولادة؟ الآن سـوف يبذل الزوج قصارى جهده لإيجاد عمل وإن شـاء الله يسـتمر في الدراسة أيضا.

الطقـس حار مثل أي شـيء، الأوراق تتسـاقط. حتى شـجرة جـوز الهنـد تبدو سـاخنة. أفكر فـي جوريبور، إنها لـم تكن حارة هكذا في القرية. لا يوجد هنا سـوى شـجر قليل، ليس ثمة ظل، الطرق تنصهر.

فـي لندن هل الطرق تنصهـر؟ عليّة لها ابن عم لندني. تقول لـي إن النـاس فـي لندن ليس لديهـم إله. ألتـزم الصمت عندما تقول. هي امرأة لطيفة غير أنها من ناخالي.

السـيد شـودهري يأتـي ليجمـع الإيجـار يأخـذ فقط ما بحوزتـي ولا يضايقنـي مـن أجل البقيـة. إنه يحضر كرسـيا فـي خلفية سـيارة التويوتا لاند كروزر. ثمة سـاكن آخر رحل. أصنع الشـاي ويدخـل هو الحجرة متفقـدا الحائط. يجلس علـى الكرسـي، ثمـة بعـض الألم يتسـرب في وجهـه وتصبح الوحمة بيضاء بيضاء. أسأله ماذا هنالك يا عمي؟ «ألست أبا بالنسبة إليك؟ » أوافق على ذلك. «إذن لم لا تنادينني بأبي؟» هكـذا يريدني أن أناديه. ثم يتحدث عن الأولاد. لقد سـافروا للدراسـة في أمريكا هـذا يجعله في غاية الفخـر. «لكنني لو حظيـت بابنـة جميلـة مثلك تدلـك قدمي سـوف أكون رجلا سعيدا».

لقد تماثلت زوجـة القاضي. إنها تتحدث واليدان تحلقان حولها في كل اتجاه. بالفعل تبدوان مثل سرب بني من سبعة طيور.

تقـول «كان هـذا المكان عبـارة عن مؤسسـة محترمة والآن يمـلأه هـذا الرجـل بـكل الحيـوات الوضيعـة ويتهربـون من الإيجـار. أعرف لعبته. إنه يسـعى إلى عمـل إخطار بالإخلاء لنا لأنـنـا سـكـان محـترمون. وهـو يريد مزيـدا من الفـراغ مـن أجل حيواتـه الوضيعة». إنهـا تصبـح بالـعـل مهـتاجة. «زوجي يعمل لـدى محكـمة المقاطـعة. دعيه يحاول الإخطار

بالإخلاء. دعيه يحاول. سوف نقلب الإخطار عليه». تقول بعد كل هذا يرحلون بالإضافة إلى أن البناية تتهدم. تقول خذي بالك سوف أعطيك نصيحة أم. اليوم أنا ابنة كل شخص.

إضافة إلى أنها ليست بالفعل زوجة قضاة. السيد شودهري على معرفة فعلا ببعض الرتب الكبيرة. أخبرك بشيء ما. الأسبوع الماضي كان الرئيس إرشاد في نادي الجولف مضطجعا بجوار حمام السباحة بصحبة صديقة له. الصديقة زوجة وزير! مضطجعين على هذا النحو وجاءت زوجة الرئيس وألقت نفسها على صديقته وبدأت مشاجرة غيرة. الرئيس يحاول أن يفرق هاتين الاثنتين لكنه تلقى ضربة في رأسه. في الوقت الحالي الرئيس في المستشفى والصديقة في أرض أجنبية يحظيان بغرزة في الوجه معا والزوجة مازالت تشطاط غضبا وقامت بواجب للصديقة حصلت على عقد عمل هدية. كل هذه الأشياء في الواقع الفعلي الحقيقي. ليس ثمة أحد يناديهم في الشارع. كم من السهل أن تنادي فتاة مشغل. زينب تقول إن مائة وخمسين فتاة في مصنع واحد يحملن. هذا نوع الكلام الذي يتقوله الناس. ماذا سيمنعهم؟

يوليو ١٩٨٩

أختاه أتمنى أن تكوني بخير ومستقرة. نحن جميعا نطفو مثل البط، الوقت الوحيد الذي أصبح جافة فيه هو في المصنع. الماء ينفذ خلال السطح في المنزل. كذلك ينفذ من

خلال الجدران. عندما تنتهي التغطية بالجبس لن يتمكن المطر من النفاذ إلى الداخل. أشتري طاولة صغيرة أصنع طاقما بكرسي. إنها الآن جميعها يتشظى والشيء في كل مكان محطم. أضعه في البلكون للشمس لكنها تجعله فقط سيئا. حسين واحد من عمال الخيش يقول إنه يصلحه على الفور. هو أصفر مثل اللادو[٣٧] والذراعان ترتعشان طوال الوقت لكنه رجل لطيف.

الوقت الإضافي ينتهي بالمصنع. أعتقد في هذا الشهر لدي ما يكفي للإيجار. ثمة تصميم جديد للعمل في الأسبوع القادم. عبدول يعرض الموديلات. شاهناز قلقة فهو ينظر إليّ بطريقة مريبة. يبدو أنه كان ينظر إلى شاهناز لكنها بسرعة ذكاء أخزته. أعتقد أنه لا يقصد أي شيء سيئ. إنه يبدو بعض الشيء مضحكا، السبب يرجع فقط إلى النظارة التي تنزلق على أنفه وهو يلقي نظرة إلى أعلى. شاهناز تقول إن أي رجل يحمل عطرا كثيرا هكذا يحب النفس كثيرا أيضا. ولكن النبي (عليه السلام) علمنا أن ننظف ونهتم بالأجساد التي لدينا. شاهناز تقلق عليّ. هذا كل ما هنالك.

لكن اليوم التالي تنصح من جديد بمستحضرات التجميل. إنها ماهرة في مستحضرات التجميل. لقد لاحظت أن شفتي ورديتان بشدة وكبيرتان جدا. أناس الاحتجاج الديني خارج البوابات يفتشون عن كل المدنسين هكذا. وضع بودرة على الشفتين تجعلهما تختفيان قليلا.

---

(٣٧) لادو:نوع من الحلو يقلى ويشكل على هيئة كرات ـ المترجم.

النـار الكبيرة التي يضرمها زوجك في السـاحة تبدو جميلة، كل أطفال القرية يتحلقون حولها. لماذا يشعل الكراسـي؟ أليس هناك خشب آخر؟

أغسطس ١٩٨٩

أفكـر أحيانا في آمـا كثيرا أيضا. إنهـا لا تأتي في الأحلام كمـا تأتـي لك. لم هـل تعتقدين أنهـا غاضبة؟ أحيانا أشـعر بالغضـب منهـا. ليـس لديها سـبب يغضبها منـي أو منك يا أختـاه. هـل تتذكريـن كيف اعتاد آبـا أن يناديهـا؟ «وليّة» لقد انحـدرت مـن عائلـة أولياء. لقد ذهـب إلى امرأة أخـرى. أراد أن يتخـذ زوجـة أخـرى لكنها هددت بأن تقتل نفسـها. زوجي أخبرنـي. الجميـع يعرفـون ذلك سـوانا. الدموع سـوف تأتي لكنني أقول الحقيقة.

زوج عليّـة أعطاهـا «علقـة». الشـهر الماضي كانـت أفضل عاملة في المصنع وتأخذ علاوة. إنهم يعطونها ساريا وبسبب هذا الساري تأخذ «علقة». القدم كلها كبيرة مثل الكوسا وبضعة أصابع مكسورة. الانثنـاء إلى بطنها يثير المتاعب. رينو تقول على الأقل لديك زوج ليعطيك «علقة سـاخنة»، على الأقل لسـت بمفـردك. الزوج يقول إنه سوف يضربها مرتين كل يوم حتى تنطق باسم الرجل.

ألضـم ماكينة عليّة وأقضي وقت الغداء أسـاعد للحاق. رينو تدخل الجميع في الحديث المضطرب في المقعد. إنها تلف خيطا حول سـن وتشـد لتكسـرها ولكن بالأمس تقتلع سـنا، ليس ثمة أحد يسب بصوت عال هكذا داخل البناية.

إننا نمنح عليّة حبنا أفضل شيء يمكن أن نهبه. تقول شاهناز: الزوج يغدو غيورا وهو يسمع كل القيل والقال عن فتيات المشغل. رينو تقول: إن بضع فتيات فقط يفسدن الجميع. إنه مروع بالنسبة إلى شاهناز فربما يفسد فرصة الزواج. هي تقول: «إنها لا تعلم أنني امرأة متزوجة. أقول لهم إنني أرملة، إنني يتيمة. أنا أيضا أخجل من أن أقول الحقيقة. ساعتها لن أعرف مثل أخت. كيف أستطيع أن أقول كل شيء الآن.

أختاه إنه شيء سيئ أكتبه عن آما. فقط كلام جاحد عن قتلها لنفسها. ليس ثمة حب لأمي ليس ثمة امرأة تعرف ربنا تتحدث هكذا. أحرقي الخطاب وأبعديه عن رأسك.

اليوم ثمة إضراب آخر. أجلس بالداخل هنا، الرجال في البلكون. يضعون مالا معا ويشترون طاقم كراسي. ولكن ليس من أحد يوافق القواعد. ستة، سبعة يلعبون في ذات الوقت إنه يحدث شجارا بسيطا. ليس هناك شيء خطير. القطارات لا تسير اليوم من دون هذه الألعاب إنها هادئة جدا في الخارج. أسرة القضاة ذهبت من أجل حفل زفاف. هذه الأسرة تحدث جلبة أكثر من كل الحيوات الوضيعة معا. وقت الصباح يبدأ الجدال. وقت المساء يكفون عن الجدال ويبدأون الحرب. كل أصيص وطبق مكسور. إنني أجمع أوراق الموز لهم.

يأتي السيد شودهري ثانية للإيجار. وثانية يأخذ بضع تاكات أقل بلا تبرم. إنه زاهد إضافة إلى كونه رجل أعمال أيضا. اكتشف أنه يسمح لي أن آخذ الغرفة رخيصة، يهتم بي. مهتم جدا بي. «هؤلاء الأولاد كالشمع بالقرب من النار. إنهم يقتربون

ويذوبـون. كيف يمكنهم أن يقاوموا ذلك الشــيء. إنه أنت الذي يجـب أن تأخـذ بالك». إنــه يخربش في الوحمـة. يبدو بالفعل كأنها تنزف. يقول إن الولد يمكن أن يفكر في فكرة سيئة وعندها يحلمون بفتاة وفي الحلم يرتكبون خطيئة والخطيئة تجعلهم غيـر نظيفين. يمسـك العصا ويديرها للخلـف للحائط، بضع شـظايا عاجية تتطاير منها. انظري سـوف أكسـر عشـرة آلاف عصـا على هؤلاء الأولاد. قولي كلمة واحدة وسـأفعل هذا. يده ترتعش ووضعها على خدي لامسني مثل أب.

أغسل قدميه وأدلكهما ويهدأ فقط يتأوه من وقت إلى آخر بسـب أن لديه ولدين بعيدا. فكـرت فيك يا أختاه وأفكر فيك الآن. الزيت أصبح الآن منخفضا ويجب أن أوفر للغد. أقبلك وأطفـىء اللمبة.

يناير ١٩٩٠

ليت الابنة تكون جميلة مثل الأم. ليمنح الله القوة والجمال والشجاعة. عمتو تبعث كل الحب. سلامي إلى زوجك. بارك الله دراسته وجعلها تعطي ثمرة.

إنني خارج الاستحسـان بالمصنع. من أسبوع مضى تجنبوني. أذهب لأجلس مع الأخريات من أجل وقت الغداء فسكتوا. جلست على مبعدة ولم أنظر سوى لشاباتي. يرفعن أيديهن ويتهامسن. إنني لا أنظر مازلت أرى. أجلس بالقرب من الصنبور. كل شخص يسـتخدمه بعـد الأكل ودائما موحلة لا تجري قـط لتصريفها. أقتـرب مـن البركة وتتذبـذب ببيض الحشـرة. البيض يفقس لا

أحب أن آكل قريبة هكذا، غير أن كل شخص لديه مكانه الخاص في الساحة. لا أحد يتحدث إليّ سوى عبدول. قلت لعليّة عندما جاءت لتغسل يدها «أختاه كيف أستطيع أن أدافع عن نفسي؟ فأنا لا أعرف التهمة». بالنسبة إلى الرد تضع يديها قريبتين جدا تحت الماء المتدفق وترشرش على كتفي.

أنا حزينة غير أن الأمر سوف يمر. مجرد سوء فهم يتنقل. مجرد بقعة سيئة صغيرة. الأيام تمر بطيئة بطيئة تجعلني أبدو متعبة قليلا.

أبريل ١٩٩٠

أتحدث مع شاهناز. بعض القيل والقال يدور بخصوصي. تقول: «إن كل شخص يعرف عن أمر المالك، إنك تحصلين على إيجار رخيص أو ماذا؟».

أخبرتها أن السيد شودهري بمنزلة أب بالنسبة إلي. شاهناز سوف تصحح الأمر بسرعة وبذكاء. النساء يصغين إليها. فقط الشهر الماضي كانت تقول حلقة الأنف تظهر بالفعل القروية الساذجة.

يونيو ١٩٩٠

أخي عبدول يسير معي إلى المنزل. الأناس المتظاهرون أصبحوا بلا خطر لكنه يقول: إنه من الأفضل أن يسير معي. خارج البوابة يضع نظارته في جيب القميص. من دونها يكون

مجـرد طفل. إنه مرتب ونظيف وطيـب. القميص لا يخفق قط خارج البنطلون.

شـيء بسـيط يحدث اليوم. طلبت من خالـدة مقصا وناولته وطرفه الحاد مفتوح ويوخزني في يدي. صدر مني صوت صرخة مجرد اندهاشة، الجميع يرفعون أياديهم ويخفون ابتسامة. أخرج وأبكـي بالفعل. تجيء رينو إليّ وتقـول لا عليك فهؤلاء الفتيات يعتقدن أنهن فاكهة ناضجة. لا أريد أن تقتربي من واحدة سيئة لأنهن يعرفن كيف بسـرعة يفسـدن أنفسهن. تقصد أنني الفتاة السيئة. أشرح كل شيء لكنها تشد على سنتها فقط. «إننا ننتظر ونعاني. ذلك سبب وجودنا هنا».

أنـا لا أنتظـر هنا وهناك لأعاني باسـتمرار. دعيهـا تعاني لو أحبت ذلك.

لا داعـي للقلـق مـن أجلـي. إنني أحتفـل بنجـاح زوجك في شـهادة المحاسـبة. تقولين إنه في وقت ما يريد أن يبني منزلا في دكا. أختي أنتظر هذا اليوم. كيف تحدث الخطة؟

لا يحـدث شـيء سـيئ في المصنـع. فقط بعض السـكوت من حولي. هذا كل ما هنالك. لا أبالي بهذا. أعمل في أثناء استراحة الغداء وفي نهاية الشـهر سوف أحصل على علاوة. عبدول يأخذ بالـه منـي، إنه رجل ذو دراسـة كبيـرة مثل زوجك. يومـا ما يأتي المصنع برمته في مشورته. لديه العقل اللازم لذلك وهو يستطرد في التفاصيـل. أعطيك مثالا. كل يوم يتناظر الجورب والحزام. الجـورب البنـي للحزام البني والجورب الأسـود للحزام الأسـود. لـو أردت أن تبزغي في الإدارة يجب أن تسـتطردي في التفاصيل

هكـذا. هكذا يقول لي. قميص نظيف فـي كل يوم بالإضافة إلى ذلك أيضا.

هـو يوصلني إلى البيت ونتحدث في أشـياء كثيرة. إنه يعتني بي. السيد شودهري أيضا يعتني.

عبـدول في الواقع الحقيقـي يحبني. لو كان ممكنا لتزوجنا. غيـر أن عائلتـه تبحث عن فتاة بينما أنا لـدي زوج في خولنا. لا أعـرف. ربما يطلقني زوجي بعد وقـت ما. هل ممكن أن تحصلي على الطلاق ولا أحد يحدثك عنه؟

ثمة مزيد من المشـاجرة اليوم في البيت. حسـين أصبح لديه عنزتـان وهما تأكلان وتغسـلان. غسـيل زينب فقـط يحبانه. أي شـيء تنقلـه تأكلانـه. زوجة القاضي فـي حالة عصبيـة قديمة. تأتـي وتصرخ في وجهه بالأمس. إنها تعطيه إنذارا ولكن حسـين يضحـك فقـط ويفرد يديه محلقتـين في المكان. يقـول «هاتان العنزتان لديهما ذوق حسن لماذا تتذمرين؟ كل هذا بسببنا إنهما لا تهينان غسـيل شـخص آخر جيـد بما يكفي». أفكـر في تربية بعض الدجاج بنفسي.

يناير ١٩٩١

شـيء ما حدث. حدث منذ شـهر مضى ولكن أحيانا أفكر في ألا أخبرك.

لقـد حاولـت شـاهناز بالفعـل وحذرت. كنـا ننتظـر أن تفتح البوابـة وتقول «هل تتذكريـن ما قلته لك عن عبدول؟» قلت نعم ولكنـه مثل أخ بالنسـبة إلـي الآن. تبدو حزينـة وتخبرني. «إنني

خائبة الرجاء. كل العون الذي قدمته لك. ولكنك قذفته إلى وجهي في المقابل». أحاول أن أتحدث إليها ولكنها تشيح بوجهها عني. أختاه أنا لا أريد أن أقذف بأي شيء. وكانت هذه كلماتي الأخيرة لها. لم أرها بعد ذلك.

على الفور مباشرة استدعيت إلى مكتب المدير. ثمة سببان لا ثالث لهما للذهاب إلى هناك الجراب وحالة الموت في الأسرة. الأسبوع الماضي استدعيت خالدة. ثمة حريق كان في منزلها. ثلاثة أولاد وبنت ماتوا. كل الأولاد والحماة أيضا. اضطروا أن يحملوا خالدة خارج المبنى.

أرى بضع مرات المدير يتمشى هنا حول المكان. ثلاثة أو أربعة أطفال مع المدير يسيرون في الخلف يكتبون على الألواح. البشرة على الخدين جافة مثل أي شيء. شاهناز تسميها قشور السمك. «الجسد برمته يتعفن من تحت هذه البزة، بسرعة أمسكي أنفك». يشتم منه رائحة كاري رؤوس السمك. إنه لا يفاجئنا قط ولا يضبطنا نتحدث في المقعد. فشخص ما على الدوام يشتمه مسبقا.

دخلت المكتب بينما يقرأ. وقفت هناك أنتظر، يبدو الأمر أنه ساعة وساعة. ثم دخل عبدول وقف هناك ينظف النظارة أعتقد أنه جاء من أجل إنقاذ عملي. يضع المدير أوراقه ويقول «تعلمان سبب وجودكما هنا». قال عبدول نعم. قلت نعم بدوري. أعلم أنني هنا من أجل الجراب.

«لقد تصرفتما بطريقة فاسقة. لم تبديا أي اعتبار لسمعة المصنع. أنا لا أدير بيت دعارة. هل أبدو لكما مثل قائم على بيت

دعـارة؟» كان ينظـر إلـيّ. قلت كلا. لسـت قائما علـى بيت دعارة. عندئذ وقف. اخرجا. لقد انتهيتما في شغل الملابس.

كنت أقف وأشم الكريم على شعر عبدول والعطر الذي يضعه علـى خـده وأعتقد أنني سـأغيب عن الوعي. قـال هيا. اخرجي. ولكـن يجـب أن أسـأل ما الـذي اقترفتـه؟ يقول «الفتـى اعترف للجميـع لا تقولـي لي كذبك الوقح. اذهبي قبـل أن أضرب العار لـك». أنظـر إلـى عبدول ولكنـه لا ينظـر إليّ. قميصـه ملتصق بصـدره أتذكـر أننـي لـم أره يعـرق مـن قبـل. لا يقول شـيئا ثم خرجـت. أنتظـره خارج البـاب ليأخذ جرابه أيضا ويمشـي معي للبيت. سمعت المدير. «فتاة جميلة إيه؟ أنتم أيها الصبيان! يجب أن تحظـوا ببعـض التدريب قبل الزواج إيـه؟» كان يضحك فقط هو يضحك وليس عبدول.

تتسـلمين هـذا الخطاب في هـذا الوقت أحصـل على وظيفة أخرى. السـيد شودهري يعتني بي. لديه أشغال كثيرة. أرسل لك الحب كدأبي.

أوه الطفل يمشـي! كم أحب أن أرى هذا، أرسـلي صورة إذا كان لديك. زوجك محق السيد شودهري يعتني بي. أنا تحت حمايته لا ترسلي نقودا. إذا سمح لك الزوج بأن تفعلي ذلك فالتسوق بها جيد. يمكنك أن تخرجي. ولكن لا تخفي حسابات وترسلي نقودا إليّ. لديك زوج طيب. هذا يجعلني أكثر سعادة من أي شيء وأنا لست في حاجة.

منذ يومين مضيا جاء السـيد شـودهري هنا. طلب أن أمشط شعره. فعلت ذلك ودلكت الأقدام. ثمة توتر كثير في الأقدام ولكن

معـي يقول إنه يسـتطيع أن يسـتريح. يقول لي إنـه طوال اليوم النـاس يتسـلقون حولي ينتظرون خارج المكتـب يهرولون للحاق به يسـيرون خلفه وأمامه ويلوحون بأوراق. لا يسـتطيع أن يكون بمفرده لأنه طوال اليوم الناس يريدون شيئا ما. وعلى الرغم من ذلك يشـعر بالوحـدة. إنه في الواقع الحقيقي وحيد بشـدة. إنه لا يثق في أحد. الجميع يغشون. الزوجة ماتت منذ وقت طويل. الأولاد رحلوا. نصف النقود تضيع على الرشـوة. حكومة جديدة قادمة، أناس جديدون يصطفون للرشوة.

هـو يقـول لي «أنت ابنتي. أحب أن أحضرك إلى منزلي. ولكن ماذا سيقول الناس؟ نحن لسنا مرتبطين. وأنا ليس لدي زوجة». سـاعتها يتنهد وأدلك قدميه وعندما أنظر لأعلى ثمة دموع في عينيـه. «لو جاءت فتـاة إلى منـزل رجـل باعتبارها خادمة فليس هناك مشـكلة. لابد أن تأتي باعتبارها خادمة. أو زوجة. وعندئذ كله جيد».

أختاه هل يمكن للسيد شودهري أن يقصد أن يتخذني زوجة؟ إن الأمر يظل يدور في عقلي ولكنه شـيء أحمق. هل هذا شـيء أحمـق؟ إنه غني ورجـل ذو نفوذ، هو على معرفة بأناس ذوي رتب كبيـرة. وأنـا كابنة بالنسـبة إليه. أقول لك؟ إنه يربي شـاربه. إنه يبدو ملائما مع عصاه. يبدو مثل سيد نبيل. ولائق جدا بالنسبة إلى رجل في مثل سنه. إنه يؤمن بالتمارين. أحيانا يترك التويوتا لاند كروزر عند المنزل ويتمشى ولا يبالي هذا لا يحدث في دائرة الرتـب الكبيـرة. إنه ليس ذلك الرجل العجوز ربما في مثل سـن زوجك.

كما ترين طبيعة الحال. السيد شودهري لا يسأل حتى عن الإيجار وأتكسب بعض النقود مقابل الطهي لعمال الخيش. أعد الفطور والعشاء ويعطونني حصة من أجل وجبتي وقليلا من النقود أيضا.

ابتعت دجاجات وقد بدأت تبيض. عشر أو إحدى عشرة بيضة تحت البلكون كل صباح. في النهار الجو هادئ وأنا أتحدث إلى العنزتين. إنهما مربوطتان الآن والغسيل في مأمن. أشاهد القطارات تمر وأفكر في القطار الذي أقلني من خولنا. أفكر في الناس بهذه القطارات أين يذهبون ومن أين هم.

أحيانا أسمع جوقة الدراويش وأهرع للواجهة لكي أصغي إليهم وهم يغنون عن الحب أو أتحدث إلى زينب لقد أصبحت ودودة معي.

ابنها الأصغر قد رسب في الامتحان. الأب لم يجلده كما ينبغي وإلا لكان تعلم. هي تقول «أي نوع من الآباء ذلك؟ كم مرة قلت له أن يجلده كما ينبغي. إنني أبذل ما في وسعي ولكنني لست سوى امرأة». ثم قالت «قلت له أن يدفع أكثر للدروس الخصوصية. لم يصغ إليّ. والآن لقد رسب الولد». عندئذ كان لديها فكرة. إنها تأتي إليّ ويداها ترفرفان. تبدو مثل قطة قفزت في عش طائر. «المدرسون على خطأ ليس الآباء فقط. هؤلاء المدرسون يجب أن يكونوا مسؤولين. الطريقة الوحيدة لجعلهم مسؤولين هي أن نأخذ الصفقة برمتها إلى المحكمة. غدا أقدم بلاغا». المحكمة مزدحمة مثل أي شيء.

كل مرة أطهو الوجبة وأقدمها. أجلس على مبعدة قليلا وآكل. أصغي إلى الرجال وهم يتحدثون ويمزحون وأشاهد السماء. أنظر إلى القمر وأفكر في أنك يا أختاه تنظرين إلى القمر نفسه. ليس في وسعنا أن يرى أحدنا الآخر لكننا نراه وهكذا نرتبط.

عمال الخيش جميعهم يوفرون النقود. معظم الليل عبارة عن حساب للنقود. الكثير يرجع إلى القرية. إنهم يوفرون من أجل الزوجة والأطفال والوالدين.

القليل فقط يدخرونه لأنفسهم. لبداية عمل أو بناء منزل؟ أو اتخاذ زوجة. هؤلاء الأشخاص يدخرون بصرامة. الآخرون يشترون زيتا للشعر أو حلوى أو تذكرة للسينما. إنهم يدخنون كثيرا ويتناولون أوراق التنبول كثيرا. أيا كان ما يدخرونه فليس كافيا لذا ينفقون قليلا لينسوا قليلا. الشباب منهم لم يتعلموا وهم يدخرون بصعوبة أكثر.

مازالوا يلعبون الشطرنج ولكن بعض القطع مفقودة، لن يكون هناك كثير من الشجار الآن. كذلك يروون القصص وكل شخص يحاول أن يقول الأفضل. بعضهم كان مزارع جيش قبل أن يفقد الأرض. هل تتذكرين عندما أخذنا آبا ذات مرة في قارب لنشاهد جني الخيش؟ الرجال يظلون أسفل طويلا، لا نستطيع أن نحبس أنفاسنا حتى يعودوا للسطح.

هؤلاء الأشخاص يقولون أضخم القصص. أحدهم قال لقد نزلت إحدى عشرة قدما لأقطع نبات الخيش والنزول التالي كان خمس عشرة قدما. الثالث لابد أن يغوص دائما خمسا وعشرين

قدما والرابع يهبط إلى ثلاثين ويصارع الديناصورات. أجلس على مبعدة وأصغي.

أحيانا يأتي حسين ويتحدث معي. إنه شديد الصفرة كأنه نفسه تحول إلى خيش. أخبره بما حدث في المصنع. قلت كل شيء. أخبرت السيد شودهري بأني قد فصلت بسبب أنه من السهل أن يغضب.

يقول حسين «أحيانا عندما يرى الناس شيئا جميلا يريدون أن يدمرونه. فالشيء يجعل الواحد منهم يبدو قبيحا لذا يتصرف على نحو قبيح». إنه يقصدني مقابل الشيء الجميل. ثم قال «أنا أيضا قبيح على أي حال. أي شيء جميل يأتي في طريقي يجعلني أضحك. ها! تعتقدين أن ذلك يجعلني أبدو سيئا؟أنا بالفعل قبيح».

مايو ١٩٩١

كيف لي أن أكتب؟ ماذا أقول. أختاه لقد جلبت العار إلى نفسي. أخفي هذا الخطاب عن زوجك.

أخبرك بما يحدث. إذا كتبت إلي حتى رغم أنك تعرفين ما اقترفته فليس ذلك لأنني أخدعك حتى تعتقدي أنني شخص جيد.

مساء الثلاثاء جاء السيد شودهري إلى هنا. لا أتوقع أنه أتى الأسبوع الماضي. كنت أنام على سجادتي في ملابس داخلية وسمعت طرقة على الباب، صحت ورد ثم دق بعصاه. قلت له دقيقة حتى ألبس. لكنه ركل الباب وكسر المزلاج.

زعق بشدة «أشعلي اللمبة اللعينة» نهضت من السرير ولم ألبس بعد. «دعيني أرَ هنا دعيني أرَ العاهرة». لا أستطيع أن أشعلها، يدي مرعوبة، آخذ اللمبة وأشعلها. وعندها رأيت كيف يبدو وجهه.

كان يمشي جيئة وذهابا بعصاه. مبتعدة عن الطريق. أحاول أن أتداخل في الظلام. عصاه تجدني. ساقاي خائفتان. يصرخ من جديد. «ماذا فعلت لي؟أنت تضاجعين كل ابن عاهرة في المصنع! هل وضعوا سقفا فوق رأسك؟ هل يعاملونك مثل ابنة؟ ماذا أعطوك؟ ماذا أخذت أنا؟

كل ما أفكر فيه أن الجميع كان باستطاعتهم أن يسمعوا. مازال يستمر «إنني أحمق». كان يصيح بذلك فعلا. يسألني أن أدلك قدميه وأفعل ذلك. يقول لي ألا أبكي وأنا أتوقف. سألني إذا كان هو الذي يعتني بي وأنا أقول نعم إنه هو.

هذا ما يحدث وبعد ذلك أبكي. طوال الوقت وأنا أفكر أن حياتي تلطخت. الله منحني الحياة ولكنه أفسدها. وضع الصخور في طريقي والأشواك تحت قدميّ والحيات فوق رأسي. أي درب أتجه إليه يصبح مظلما بأي طريقة. إنه لا ينوره مطلقا. لو أشرب ماء يتحول إلى طين عندما آكل طعاما فهو يسممني. أمد يدي تحترق وهي بجانبي تشل. هذا ما خططه لأجلي. هكذا أفكر. أقول لك كل شيء لذا فأنت الآن تعرفين أي نوع من الأشخاص أنا.

شيئا فشيئا أقوى. أدعو الله أن يغفر لي. أنا معتلة إذن في عقلي. كل شيء حدث هو بسببي. أتخذ زوجي وأتركه. أذهب إلى

المصنع. أترك عبدول يسير معي. أنا الشخص الذي يعيش هنا من دون أن يدفع.

هذا كل ما أريد أن أقوله ويجب أن أقول كل شيء.

أغسطس ١٩٩١

أين يمكنني أن أذهب يا أختاه؟ أهرب لزوجي وأهرب منه أيضا... الآن أنا خائفة أن أهرب ثانية.

تريدين أن تحضريني إلى لندن. أحب أن أجيء. ولكن من جديد هذه المرة زوجك محق وأنت لابد أن تصغي. وفري نقودا لأن مولودا جديدا في الطريق. زوجك يبدأ عملا جديدا. إنه في حاجة إلى نقود لذلك أيضا. الدروس الخصوصية فكرة جيدة للغاية. هنا لا أحد يستطيع أن يجتاز امتحانا من غير دروس خصوصية.

زينب في مشكلة. أتحدث إليها وأنسى مشكلتي أنا. ذات يوم كان زوجها يركب دراجته إلى محكمة المقاطعة وارتطم برجل يركب سيارة سوزوكي اسكوتر. تعتقدين أن زوج زينب أصبح مكسورا ولكن لم يحدث ذلك على هذا النحو. صاحب السوزوكي وقع على رأسه والآن الذراعان والساقان لا تعمل. وضعت الشرطة زوج زينب في مركز الشرطة وهي تأخذ مدخراتها هناك لتطلق سراح زوجها. بينما تقدم زوجة رجل السوزوكي بلاغا في زوج زينب. إنهم يريدون نقودا ولكن زينب لم يعد لديها نقود. فعلت كل شيء ولكن بلا جدوى. تقول لي «ذهبت إلى المنزل. انظري. هكذا أخر على ركبتي وهكذا أشد

شعري وهكذا أشق ملابسي وأصرخ. الزوجة تنظر إليّ مثل خرقة قذرة. لماذا تعتقد أن هذه الخرقة القذرة لديها نقود؟» ثم تبدأ تولول وتضرب على الصدر. «أوه لماذا لا يستطيع زوجي أن يكسر رأسه. عندئذ نكون نحن الأشخاص الذين يقدمون بلاغا». لقد أخذ الولد من المدرسة. كان يرتدي زيه الرسمي ولكنه لم يعد جميلا كما كان. كان يحب أن يتناول عصا ويشاكس العنزتين. أعتقد أنه يأخذ البيض ولكنني أنتظر أن أضبطه. أصبح المنزل أكثر هدوءا الآن. عائلة زينب حزينة جدا على أن تتجادل.

هو يأتي كل أسبوع. أحيانا يأتي مرتين.

باركني الله. بنت أخت أخرى! إنني أفكر فيها. أفكر في شاهانة. أرسلي صورة لهما.

مازال يأتي إلي. مجرد زيارة خاطفة. لقد اعتاد بالفعل أن يقول «الأسبوع القادم سوف آخذك إلى منزلي. إنني في حاجة إلى خادمة أخرى». أما الآن فلا يقول شيئا. إنه لا يأتي سوى مرة واحدة في الأسبوع وأحيانا لا يأتي بالمرة. لو توقف عن الزيارة فكم من الوقت قبل أن يطردني؟

أذهب إلى كل مصنع كساء في دكا. ليس من أحد لديه وظيفة ماكينة. هذا كل التدريب الذي لدي. أفكر في صنع بعض الأشياء بالبيت وأحاول بيعها. أصنع صفارات من البامبو وآخذها إلى الخارج وأجلس بها. ليس من أحد يريد أن يشتري. يراني حسين ويضحك. «ضعي قليلا من أشعة الشمس في كيس وبيعي ذلك أيضا». هكذا يقول. أذهب إلى

سوق من أجل قصاصة الملابس وأصنع عرائس. ثم أذهب إلى موتيجيل وأجلس على الرصيف. ركلت الشرطة الصندوق وقاموا بالتهديد. حسين يقول لي «ألا تعرفين أن الرصيف للإيجار؟ الرصيف لا يخصك. كل شيء للإيجار».

إنه يعطيني بعض لبن العنزة. وقام بعمل خزانة صغيرة لي. أحتفظ بالصابون والمشط والقلم فيها. ذراعاه تخفقان وتتخبطان. رياح قليلة تجعلهما تهتزان. ولكنه طيب. إنه يجعلني أضحك. يمكنه أن يقلب جفونه إلى الخارج ويقوم بتحريك أذنيه دون أن يقلق عضلة واحدة في وجهه. إنه يقول «الله يبارك في كل واحدة. لكم هو يحبني أن منحني تلك المواهب». ثم يقول «أما بالنسبة إليك فقد منحك هبة الجمال كم يبدي حبه فيك!» لوقت طويل أبكي إذن. في الليل يأتي إلى غرفتي. لا أصرفه.

أكتوبر ١٩٩٢

زينب رحلت. العائلة برمتها رحلت. ليس من كلمة لي، اختفوا هكذا فقط.

كل شيء ظل على الوتيرة نفسها. أعطاني حسين ساريا وبعض الشرائط وصندوقا جميلا بغطاء لؤلئي. صديقه علي أيضا يعطي الهدايا.

إنك تطلبين أن أكتب ولكنني لا أستطيع أن أفكر ماذا أقول. ليس ثمة الكثير لأقوله. الله وحده يرى ما بداخل قلبي.

ادعي لي يا أختاه

سبتمبر ١٩٩٣

لا أقصد أن أجعلك خائفة. بضع مرات في هذه السنة الأخيرة آخذ قلمي وأجلس. مرة مرتين أبدأ الخطاب ولكن الكلمات لا تأتي. مع أني لا أكتب فأنا أفكر فيك.

بعد وقت طويل أبدأ في التفكير في المصنع من جديد. أذهب هناك وأنتظر في الخارج عبر الطريق. أفكر في التحدث إلى أصدقائي. أرى شاهناز تخرج فأشد وشاحي حول وجهي. إنها تنتظر طفلا. هذا يجعلني أشعر بعاري. لن يهب الله لي طفلا. أعتقد أنني أرى عليّة ولكن بركا تشبه أخرى. ليس ثمة زوج يأتي لها. أما رينو فلم أرها.

ثلاث مرات أذهب إلى هناك وأشاهد وطوال الوقت أسال نفسي إذا كان ثمة حب بيننا يوما ما وأي نوع من الحب سهل الكسر هكذا. شاهناز تضع كثيرا من مساحيق التجميل. لم أرها بمساحيق تجميل كثيرة من قبل هكذا.

أسير بالقرب من بوابات المصنع قريبا من الجدران. لو كان ممكنا أن أكسر الأحجار لكسرتها. لقد دمرني هذا المصنع. أسر كثيرة الآن تعيش حول المكان. قبل أن يأتي حراس الأمن وينظفوا مثل الأوراق ولكن الآن يوجد كل أنواع الأكواخ من الخيام وأوراق الكرتون. ثمة أسرة تعيش في ماسورة كبيرة الغرض منها توصيل المياه. أسير بالقرب منها.

أفكر طوال اليوم في هذا الشيء الوحيد. لقد طردوني من المصنع لسبب غير حقيقي ونتيجة لأنهم طردوني أتى السبب الآن كحقيقة فعلية. هكذا كنت أفكر.

مازال حسين يعتني بي. إنه الشخص الذي يدعم حصولي على النقود. إذا لم يعد يهتم آخذ ما يحبون ولا أدفع. لم يعد المالك يأتي. إنني أدفع الإيجار الآن.

منذ ثمانية عشر شهرا مضت توقف حسين عن العمل بطاحونة الخيش. لديه فتاة أخرى بالقرب من بوروبازار وفتاتان أخريان تتنقلان للعمل. هؤلاء يسميهن الفتيات الطافيات. مكتب الحكومة مناسب للفتاة الطافية. الفنادق الكبيرة أيضا مناسبة ولكن لابد أن تكون الفتاة أصغر. لم يعد حسين أصفر الآن. الآن أصبح برتقاليا كأزهار الآذريون. يقول لي اعملي بكد قبل أن تتركي العمل ببضع سنوات. أفضل سعر للفتيات «إحدى عشرة اثنتي عشرة». إنه يأخذ باله جيدا. شخص ما لا يريد أن يدفع، يتعامل معهم. الذراعان تخفقان وتتخبطان لكنهما قويتان.

يوليو ١٩٩٤

لدي الآن صورة الفتيات وأضعها مع الآخرين. لدي برواز. ثلاث صور تشغله جيدا. سوف أشتري زجاجا وأضعه على الحائط.

زوجك ماهر جدا في إيجاد الوظائف. ما هو مركز الترفيه؟ هل هو عمل حكومي؟

أعطيك وعدا كما تطلبين بإرسال مزيد من الخطابات. مع أنني ليس لدي من شيء أقوله فذلك ما أكتبه وأرسله إليك. شيء واحد فقط هنا ينزل المطر. تبدو غرفتي أكثر بللا من بحيرة.

حسين يصنع لي سريرا مرتفعا على أرجل. سهل بالنسبة إلي العمل بسرير مرتفع. أحيانا أشعر بالاستياء أجلس معه. طوال الوقت يمزح. إنه يقول «يجب أن تنظري إلى الجانب الحسن. كل شيء له جانب حسن. ما رأيك لو نثرنا بعض الأرز هناك نحصل على حقل أرز ذاتي؟» هل هناك مواهب أخرى بجانب تحريك الأذن وقلب جفون العين.

أستيقظ من وقت إلى آخر وأعتقد أنني عدت إلى الوطن ولكن لا يأتي سوى رائحة العنزة تثغو خارج الباب. المدينة لها رائحة مختلفة، رائحة الرجال والسيارات. أحب أن أشم القرية من جديد.

أوه لم يعد هنا سوى عنزة واحدة. الأخرى سارت إلى شريط السكة الحديد وأكلناها برمتها. الدجاجات هي الأخرى صامت. إنها تتوقف عن البيض.

خطرت رينو على بالي. هل مازالت تعاني، مازالت تنتظر. ثم أفكر في ممتاز وفي آما. لا أجرؤ بما يكفي للتفكير في آما. مرة أفكر في زوجته الثانية كم جاءت بسرعة بعد الحداد. كم رحلت بسرعة من جديد. لو تعلم آما كم سترحل بسرعة. هكذا الحال مع الرجال. لماذا لم تكن تعرف هذا؟

مارس ١٩٩٥

لا تغضبي من أنني لم أف بوعدي لكنني أكتب الآن وأنت يجب أن تغفري. لقد حدث شيء غريب. لن تستطيعي أن تخمنيه. لقد تلقيت طلبا للزواج. لقد أتى أول مرة منذ أسبوعين. في

اليـوم التـالي يعود. ليس غريبا جـدا. لكن في اليوم الثالث يأتي ويشـرب شـايا معي وتحدثنا. وعلى الرغم من ذلك فهو يدفع كل التكاليف.

لقـد كان يأتـي كل يـوم للحديث فقط. اسـمه أحمد. طويل. على الأقل خمس أقدام وثماني أو تسع بوصات. وهو أمهق. بسبب ذلك تشـبه بشـرته فتاة وطرف أنفه محمص مثـل بذرة. عندما تمسـه الشـمس يبدو كأن حمضـا في الوجه. حتى في المسـاءات يلبـس نظارة معتمة. يذهب مـن عندي إلى مصنع الأحذية. إنه مشرف بالنسبة إلى دوام الليل.

إنه رجل هادئ. عندما نتحدث يظل فمه معظم الوقت مغلقا. معظـم الوقـت نجلس. حاولت أن أحفزه على الـكلام. لا أريد أن يمنـي النفـس بلا مقابـل. إنه يقلب يـدي مرارا كأنه لـم ير يدا أخـرى. عمـال الخيـش يهنئونه ويصيحـون. «إيه يا بابـو[٣٨] هل تغمز لأختنا؟».

ولكـن أحمد لا ينزعج. إنه رجل جاد. شـعره بلـون الطمي. عنده وظيفة مشرف منذ ست سنوات. في اليوم الخامس خلع نظارته وسبب لي ذلك رعبا كأي شيء. عيناه تبدوان مثل عيون القطط داخل رأس. زرقـاوان وشـمعيتان. لن تـري قط عينين مثل هاتـين. لكنهما كذلك لأنه أمهق. في واقع الأمر ليس من شيء معيب بهما.

إنـه يحضر لـي باكو وخبيـزة. جميلة على الرغـم من أنها لا تسـتمر سـوى يوم واحد. يا له من أمر مؤسـف أنني لا أسـتطيع أن أتزوج.

---

(٣٨) بابو: تعني «أب» بالهندية. المترجم.

قبلي لي بنات أختي وسلمي لي على زوجك. آمل أن يتحسن سريعا سريعا. الجوهل(٣٩) والغول أيضا مفيدان لقرحة المعدة.

مارس ١٩٩٥

لست أعرف ماذا أفعل. يصر على الزواج. إنه لا يصغي إلى أي شيء. حسين يأتي ويتحدث إليّ. هو يقول «هذا الرجل شاذ مثل حمار بخمس أرجل. الطبيعة تلفظ تلك الأشياء. أي فرصة لديه؟ أنت تفسدين بعد الإصلاح. أي فرصة لديك أنت الأخرى؟» هكذا يشرح. وهو يقول لي «لقد انتهى أمر كبدي لن أبقى وقتا طويلا. من سوف يحميك إذا لم يكن هو؟ سوف أتركك تذهبين. هذه الحياة تنتهي. ابدئي حياة أخرى».

أتحدث إلى أحمد ثانية. وثانية يصر هو. أخبرته بهذا أنني امرأة وضيعة. أنا لا شيء. ليس لدي شيء. إنني أمثل كل ما أملك. ليس في وسعي أن أمنحك شيئا.

مازال يصر. لا أعرف ماذا أفعل.

أبريل ١٩٩٥

أولي الشكر لله كما هو مكتوب في السورة «ولا تيأس من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا. إنه هو الرحمن الرحيم».

إنني هنا بصحبة زوجي. ليس بعيدا جدا عن جولشام التي تعد أفضل مقاطعة في دكا برمتها. ثلاثة أسابيع الآن دون أن أترك الشقة. زوجي يخرج في المساء ويعود من المصنع في

---

(٣٩) جوهل: لبن رائب. المترجم.

الصباح. عندئذ نتناول وجبة كبيرة ثم نذهب للنوم. بعد الظهر نكون معا. دائما يشاهدني بحب. لو أتحرك يتحرك. لو ذهبت لأغتسل يتبعني. يضع يده عليّ. كأنه يعتقد أنني سأختفي لو امتنع عن اللمس. هذا يعد نوعا من الوله. عندما يخرج في المساء أبدأ شغل البيت. كل شيء يجب أن يكون في نظام جيد. ذلك هو الشيء الوحيد الذي يطلبه زوجي. النظام الجيد. كل البرطمانات والمعلبات تحفظ في المكان. الأطول منها في الأمام ثم التالي في الطول ثم الأقصر قليلا وهكذا يستمر حتى الأصغر المخصص للزعفران. جميعها يجب أن يمسح كل يوم حتى لا يصبح لزجا. هذا يجعل كل شيء سهلا عند البحث عنه. زوجي يلف سجائره كل مساء ويتركها على الرف وأنت لم تري قط ذلك الخط المستقيم. نظام جيد للبيت معناه نظام جيد للذهن. وهو لديه ثلاثة أزواج من الحذاء الصالح وواحد وعشرون زوجا من الرباط. إنها في حاجة إلى أن تحفظ مثل أي شيء.

أبدأ شغل البيت في المساء حتى يأخذ كل العناية وأحيانا «أروح» بالفعل في النوم. عندها من الصعب أن أنام عندما يأتي الزوج ويصبح دوري أن أقوم بالمشاهدة.

أختاه أعرف كم تستمتعين أن تتركي الشقة. لكنني أصبح لدي شيء في الداخل. كم أحب أن تبقيني الجدران هنا.

أبريل ١٩٩٥

لقد ذهب زوجي إلى السوق. أصعد إلى السطح مع زوجات أخريات أزرع الخردل في أصيص والفلفل الأحمر في أصيص

آخـر. أتحـدث مع الزوجـات وهن يتبرمـن مـن الأزواج. يجب أن أتبـرم أنـا الأخرى وإلا سـوف ينظـرن إليّ باسـتغراب. أحدق في الشـارع بالأمس. النسـاء معهن جاروف كبير وفـأس بيد طويلة. البعض يحملن سـلال الأحجار علـى الكتف. جميعهن نحيفات كالعصي. يمضين مكشـوفات الرأس. والشمس حمراء كالجحيم وكبيرة مثل أي شيء.

ثـم ينتهـين مـن العمـل ويصطففـن للأجـر. يدفعـون لهـن بالقمـح، يأتي دائما من أمريكا. هذا ما تقله الزوجات لي. هكذا يحصلن على الأجر... كيف تعيشين على القمح؟

طوال اليوم أفكر في هؤلاء النسـوة اللواتي لسـن ربات منزل مثلـي ومثلـك يا أختاه. أفكر ماذا أفعل لو كنت واحدة منهن. أي طريق أتجه إليه؟ كيف أفكر للخروج من تحت الأحجار؟

زوجي يأتي سريعا ويتهيأ للعمل. العاصفة تهب. ولكن مازال الوقـت مبكرا علـى المطر. الآن نحـن نتوق إلى المطـر. العاصفة تظـل في السـماء. أضواء حمراء وبيضاء. لكـم هو الطقس حار اليوم. جريزما تسـتمر أطول في المدينة تبدو. قبل أن يأتي المطر يأخذنـي زوجـي إلى قريته. الأم لم تعد علـى قيد الحياة غير أن لديه أبا وأخوين لم يتزوجا بعد. أذهب لأقابل عائلتي الجديدة. أحيانـا أقلق من أن يكتشـفوا أمري. يمكننـي أن أقول للزوج. لو أتحدث بهذه الطريقة أتذكر ما ورائي.

إنـه يدلك رأسـي. إنه رجل هادئ. أحيانا أعتقـد أنه يروح في النوم ولكنه مجرد هادئ. إنه رجل جاد. لو أن شـخصا قال بضع كلمات لأخذت كل كلمة وزنا أكثر.

كيف تحب شاهانة المدرسة؟ هل طبيعي للأم أن تبكي عندما يبدأ الطفل يكبر بعيدا ولكن إذا نصحك صديق بزيارة طبيب فاذهبي. زوري الطبيب ولسوف يخبرك كيف أن أختك تقرأ ما في قلبك.

مايو ١٩٩٥

طوال حياته كان الناس يحملقون في زوجي. أفكر كيف يصبح جادا هكذا. كذلك كيف يستوعب الأمور الخاصة بالنساء مثلي. ليس ثمة رجال كثر يحدق إليهم الناس في حياتهم. لديه بعض البثور على خديه والأنف مزمهر مثل الباكورة. وعلى الرغم من ذلك فهو وسيم في الواقع الحقيقي. الآن أنا أعتاد على العيون الزرقاء والعيون الزرقاء جميلة جدا أيضا.

الوقت ليل الآن وأحاول أن أظل مستيقظة. هذا المساء أصعد إلى السطح. أتحدث مع الزوجات. إنهن يدخن سجائر سرية. ينظفن الأطفال ويرضعن الصغار. الجميع يمثل سلطة كبيرة في هذا الشيء أو ذاك. إحداهن تعرف كل شيء عن الرياح. لو تجشأ شخص ما بطريقة معينة فهذا يعني أنهم يأكلون بسرعة جدا. نوع آخر من التجشؤ يعني توابل مفرطة. التجشؤ العميق علامة لقناة البطن الملتوية. والرياح من نهاية أخرى يمكن أن تقرأ بطرق عديدة. بعض الرياح المحظوظة إشارة إلى مجيء نقود. أسميها الزوجة العاصفة. ثم إن هناك كارثة عظمى. لو ارتطم شخص ما في إصبع

قدمه تقول «أنت محظوظ. في اليوم الآخر أسحق إصبعين في الباب. «شخص آخر لديه بنت مريضة». يمكنك أن تعد النعم. في الأسبوع التالي أسرعت ابنتي إلى المستشفى. «زوجة أخرى أخذت علقة». احمدي ربنا على أن ضلعا واحدا انكسر. فعندما يضرب زوجي يتأكد من أن يكسر كل العظام. «والسلطة الأكبر لجميعهن امرأة على دراية بالرجال». آهااه ه إذا أردت أن يكون زوجك مخلصا لك يجب أن تخفي عنه فرشاة الأسنان في الصباح. «إنها بالفعل دائما تقول أهااه ه قبل أي شيء». فالرجل لا يذهب إلى امرأة أخرى بنفس كريه. إنني أعرف الرجال! «أهااه ه شيء آخر». إذا أردت أن توقفيه عن الشخير يجب أن تشعلي بخورا في الحجرة ودائما تديرينه على الجانب الأيمن. إنني أعرف الرجال! «أهااه ه يمكنني أن أخبرك بشيء. أعطي حماتك أفضل قطعة من اللحم وفي اليوم التالي سوف يحضر لك مجوهرات». إنها تعرف الرجال!

إحدى الزوجات الصغيرات ليس في وسعها أن تحظى بطفل. لقد قصت شعرها على نحو قصير وهي تصلي. ليس حتى الشعر القصير يمكنه أن يجلب طفلا لي الآن. لقد أخبرت زوجي وهو يوافق على هذا.

قبل أن يأتي المطر نذهب إلى قريته. لابد أنه وشيك. أحيانا أتطلع من السطح وأعتقد أنني أرى زوجي الأول. أراه بقميص مفكوك الأزرار من على الصدر. أراه راكبا دراجة بخارية. أراه يتحدث في هاتف محمول. أرى رجلا يمشي ويده على ردفه

تماما كما اعتاد أن يفعل. وهذا عندما يكون خوفي هاربا. في وقت آخر أرى رجلا يأتي إليّ كثيرا في نارايانا جانج. هذه المرة أشعر بالخوف على ظهري.

مايو ١٩٩٥

إنني أزجي الليل بالكتابة لك يا أختاه. الشقة نظيفة، كل شيء في نظام جيد. ماذا يتسنى لي أن أقول؟

زوجي سعيد معي. مدبرة منزل جيدة. لأنني لا أخلط الأربطة قط والأربطة مهمة لحذاء الرجل.

هل تعرفين أن زوجي أخبرني بهذا. أول لحظة رآني فيها هي اللحظة الفائقة في مجمل حياته برمتها. هكذا يقول. في مجمل حياته برمتها. إنه يحب أن يعيشها من جديد ويخطط من أجل أن يجعلها تحدث ثانية كواقع فعلي. إنني لديه أجلس في السرير وأضع شعري بطريقة معينة على كتف واحد. الملاءة مستوية عند طرف ومجعدة عند الطرف الآخر. يجب أن أميل وجهي هكذا أو هكذا. ولكن الضوء ليس مناسبا قط. أحمل رأسا معصوبا بشدة أو محلول الشعر بشدة. من الصعب له أن يغضب إنه يحاول أن يجعل شيئا ما على أكمل وجه. أحيانا يقول إن وجهي تغير وعليّ أن أستعيده لكنني أهدأ ويصبح هو هادئا من جديد.

المطر يأتي الآن ونحن لن نذهب إلى القرية لبعض الوقت. لو أعطاك طبيب أقراصا لابد أن تتناوليها حتى على الرغم من أنني لا أعرف أي نوع من القرص يمكن أن يعالج مرض

الحزن. عندما تعتادين أن تكون شاهانة خارج المنزل تشعرين بنفسك السابقة من جديد.

يونيو ١٩٩٥

تمر جنازة حسين اليوم. شخص ما يحمل إلي الكلمة وأذهب لأقول وداعا. أقف بعيدة عن البقية. حفنة من عمال الخيش ولا أحد غيرهم. أغطي نفسي لكنهم يعرفون من يقف في الخلف. إنهم لا يتحدثون معي وأنا حسبته احتراما.

جوانب القبر تتهاوى مع المطر وأنا أبكي على آما.

زوجي يعمل لساعات طويلة طويلة. يقول إنني غيرت وجهي لكنني لا أعرف ماذا يقصد. أضع مسحوق تجميل زيادة، مسحوق تجميل أقل غير أنه لا يستطيع أن يرى ما رآه فيما مضى. أعتقد أنه في حاجة إلى مزيد من الراحة لكنه لا يستطيع أن يظل ساكنا ويخرج. هل هذا ما يسمى البقعة السيئة للزواج؟

يونيو ١٩٩٥

إنه يقول إن الأشياء لم تعد في تنظيم جيد على الرغم من أنني أحاول دائما أن أجعله مرتبا جيدا. هو يقول إنني أضع عليه لعنة وهذا سبب أننا نتزوج. يقول كيف تتخذ عائلته زوجة مثلي لابن لها؟

أقول له هذه هي البقعة السيئة للزواج. كل زواج له بقعة سيئة. حتى أختي أحيانا لديها بقعة سيئة وهى محترمة للغاية تعيش في لندن وكل شيء.

أختي العزيزة الحبيبة دائما أحلم بك وأنت ترسلين خطابك وتنتظرين. ليس لدي عنوان لك لكي يصل إلي. عندما أستقر في مكان ما سوف تسمعين مني.

لا تقلقي عندما أحصل على عمل أرسل إليك.

يناير ٢٠٠١

أتمنى أن يصل هذا إليك. أتمنى أن تكوني في العنوان نفسه. في وقت ما بالماضي كنت أعيش هنا وهناك. في وقت ما بالماضي بعض الطعام يكفي ليوم واليوم التالي. كل شيء أخرجه من رأسي الآن. لقد آووني وأنا خادمة في منزل جيد. الجميع طيبون. الأطفال جميلة. حجرتي بجدران صلبة. مكان نظيف. ليس ثمة شيء يجعلني خائفة منه. سيدة المنزل طيبة. السيد طيب. إنهم يمنحون قدرا وافرا من الطعام. لو كنت في العنوان نفسه اكتبي لي الآن ثانية.

الفصل الثامن

أبيض

تاور هامليتس، لندن، ٢٠٠١

وقفت الفتيات أمام أبيهن وثنين أصابع أقدامهن إلى السجادة. كان شانو يجلس القرفصاء على الأرضية. منحنيا إلى الأمام، بطنه يملأ الإطار الذي صنعه الفخذ مع بطن الساق. الكراسي كانت كريهة. لقد أصبح الآن رجل أرض.

قال: «تعالوا، ابدأوا». ضرب يديه معا. لكزت شاهانة بيبي بكوعها. رسمت بيبي دوائر بإصبع قدمها الكبير. كانت ضفائرها تتدلى حول وجهها. حبل يصعد إلى سطح رأسها. راحت نازنين تجذب الملابس من حمالة الغسيل الخشبية وبدأت حملة شرسة من الطي والتصنيف. كان المطلوب نشاطا عاديا اوبيتيا ومسليا. كانت الملابس مازالت منداة.

قالت نازنين «إنها تعرفها. بالأمس فقط استمعت لتمرينها».

تريث شانو وفتح يده. كانت هذه إيماءة بالسلام أو بتهديد لبيبي. في النهاية بدأت:

«أو أمار شونار بانجلا، أمي توماي بهيلوباشي

على الدوام سماواتك وهواؤك يجعلان قلبي في انسجام...».

تنهد شانو وحك بطنه. كان ينفشها مثل وسادة. القبضتان تعملان في حركة دائرية. منذ خمسة أيام كان يعلم ابنته تسميع قصيدة «بنغالي الذهبية». هذا المساء كان عليهم أن يؤدوا القصيدة بكاملها. كان شانو يعيد أسرته إلى الوطن وكان طاغور هو الخطوة الأولى للرحلة. واصلت بيبي:

«... كأنها ناي.

في الربيع، أيا أمي، الأريج القادم من بســاتين المانجو لديك يجعلني عاصفا بالمرح - أه يا لها من رجفة».

لــم يعط صوتها إشــارة على فــرح أو رجفة. بل راح يســير قدمــا متثاقلا في قلق خائفــا أن اندفاع تنغيــم مفاجئ يخرج قطارالاسترجاع عن الخط.

أوقف شــانو تدليكه. قال: «آه » بصوت عال، وراح يبحث في الحجرة. أي رجفة! لفت بيبي رأسها لتنظر إلى الخلف ثم نظرت إلى أبيها. كان جمهوره الخفي بالنســبة إليها حقيقة مربكة ومع ذلك ملموســة. كانت تشعر بالحضور على الرغم من أنه لم يكن في وســعها أن تراه كما يــراه. راح يحثها «حاولــي هذا ثانية». نقل اهتمامه إلى القدم اليســرى، متلمســا ورما جديدا بأصابع رقيقة.

«آهــا. يا لها من رجفة». ضمــت بيبي ضفيرتيها تحت ذقنها كأنما تمنع فمها من أن يفتح مرة ثانية. انتظرت إذنا رسميا.

أمال شانو رأسه جانبا وظل رابط الجأش.

«ألا يمكن أن تتوقعي أن تحمل شجرة الأمرا مانجو».

راحت الآن تتسارع

«في الخريف، أيا أمي

في حقول الأرز المتفتحة،

رأيت ابتسامات حلوة منتشرة في كل مكان

آه، يا له من جمال، يا لها من ظلال، يا لها من محبة

ويا لها من رقة».

هناك توقفت، قبل جرف مباغت من الارتياب. نظر شانو إلى شاهانة. لقد طوت ذراعيها إلى صدرها وزمت شفتها العليا إلى السفلى. راحت نازنين تتجول في الحجرة، بينما تختلق أعمالا منزلية مزعجة وتصدر الضوضاء اليومية. هذا الأداء لم يكن ملائما وقد أصبح طقسا مستمرا. إن لها تأثيرها العكسي على كل فرد من الأسرة ولكن معظمه على شانو. إنه لا مناص من أن شاهانة هي التي كانت تستحث غضبه وأن شاهانة هي التي يبدو أنها تعاني أقل.

«أخبري صاحبة الجلالة الصغيرة أنني سوف أكسر كل عظمة في جسدها».

لم يوجه شانو قط تهديداته على نحو مباشر إلى ابنته الكبرى. كانت نازنين الوسيط المفضل أو في حالة إذا تم ابتكار تهديد رهيب جديد فإنه سيتم اختيار بيبي. «سوف أغمر رأسها في دهن يغلي وسوف أرميها من تلك النافذة. اذهبي واخبري السيدة البيضاء. اذهبي وأخبري صاحبة الجلالة أختك». كان يمكن أن يعتمد على بيبي في نقل الرسالة من أجل الإحاطة على الرغم من أن شاهانة كانت بالكاد على بعد قدمين. في هذا الصدد أثبتت أنها وسيط يعتمد عليه أكثر من أمها التي كانت تهمس فقط لتخفف من الغضب الواقع على الفتاتين.

لم تكن شاهانة تريد أن تستمع إلى الموسيقى البنغالية الكلاسيكية. بنغاليتها المكتوبة كانت مفجعة. أرادت أن ترتدي الجينز. كانت تكره الكاميز(٤٠) الخاص بها وأتلفت دولابها برمته

(٤٠) كاميز: رداء نسائي طويل يشد بحزام إلى الوسط - المترجم.

بدلق الطلاء عليه. لو تسنى لها أن تختار بين البقول المطهوة والدال فليس ثمة منافسة. إذا ذكرت بنغلاديش تتجهم. فلم تعرف ولم تتعلم أن طاغور كان أكثر من شاعر وحائز جائزة نوبل، وليس أقل من أب حقيقي لأمته.

شاهانة لم تكن تعبأ. ولم تكن شاهانة تريد أن تعود إلى الوطن.

سماها شانو صاحبة الجلالة الصغيرة. وكان ينهك نفسه بالتهديدات قبل أن يبدأ الضرب بأي شيء متاح. جريدة، مسطرة، كراسة، أو شبشب رث وذات مرة وعلى نحو مفجع قشرة موزة. لم يتعلم قط أن يختار أداته ولم يفكر قط في استعمال يده. إن الضرب بلا أداة يمثل زلة للواجب الأبوي. كان يضرب متحمسا ولكن بلا مهارة. كانت طاقته تدخل في النية - القيام بما ينوي - وهنا كان متقدما ومحنكا، ولكن الموافاة كانت تخذله. مازال مشغولا بألقاب تعذيبه. كان يخفق برأسه عندما تجري شاهانة وتتملص وتنزل تحت الأثاث أو خلف ساقي أمها. وبيبي تحضن نفسها وتتغطى في ألم، ويد تصل إلى بطن نازنين وتبدأ في شد الأحشاء إلى أعلى حلقومها، وشانو يتوقف عن الصياح والإخفاق برأسه ويبدأ برجفة تسري من حاجبيه إلى أصابعه، وشاهانة تتقبل مزاجه وتصرخ بالانتهاء، الذي يعرفه الجميع.

«لم أطلب أن أولد هنا».

قال شانو. «سوف تواصل أختك»، موجها نفسه إلى بيبي. فتحت بيبي فمها، كما لو كانت تظهر أنها على أهبة الاستعداد.

حررت شـاهانة شـفتيها، ودحرجت عينيها إلـى أعلى نحو السقف، وراحت تتلو بنبرة مستوية:

«أي لحاف بسطتيه عند أقدام
شجرة التين وعلى امتداد ضفاف الأنهار!
أوه يا أمي، الكلمات المنبعثة من شفتيك
مثل الرحيق الإلهي إلى أذني!
لو أن الحزن يا أمي ألقى بالكآبة على وجهك،
سوف تتدفق عيناي بالدموع.....».

أغمض شانو عينيه عندما فاضتا. بطنه تدحرجت إلى الأمام قليـلا في وكر الفخـذ. بدأ يدندن واتخذ المقطع الشعري في أغنية. نظر الأطفال إلى نازنين، وهي وافقت برمشة عين بطيئة مفادها أن الأمر انتهى. نشـرت ذراعيها باتساع وراحت تلملمهم بعيدا إلى حجرتهم.

في المساء المتأخر، وعلى إيقاع الجدران التي تدندن بصلواتها الأبدية للمواسـير والمياه والكهرباء، راحت نازنين تقتلع الشـعر من ثقب أنف زوجها. كان السـكون يجعـل نازنين منتبهة طوال النهار وفي المسـاء كانت منتبهة للحيـاة من حولها، مثل مصباح شـاحب ترك في ركـن الحجرة. لقد اعتادت هذه النشـاطات، المعلبـة والمحكمة جيـدا أن تزعجها. عندمـا قدمت تعلمت في بـادئ الأمـر عن الوحدة، ثـم عن الخصوصية، ثم فـي النهاية عرفت نوعا جديدا من الجالية. الزوجة في الطابق الأعلى التي اعتادت المرحاض ليلا. هي ونازنين قد تتبادلان الدعابات فقط لكـن نازنين كانت تعرفها بمثانتها. منبه بائع الحليب الذي يخبر

نازنين بالساعات المجهدة التي يجب أن تحتفظ بها جارتها. المرأة على الجانب الآخر التي يلكز سريرها الجدار عندما يتصل بها الأصدقاء. هؤلاء أصدقاء نازنين الحميمين غير المعروفين.

فوق في مكان ما، ثمة رجل يكتم ضحكة تنزلق إلى سعال والسعال يصبح ساكنا مع وقع أقدام. من الخلف ثمة دولاب، وتلفاز ينعب كالبوم ويهلل. استراحت نازنين. لقد قصت شعرة سميكة من ثقب الأنف الأيسر وشاهدتها تهبط على أغصان صدر شانو.

قالت: «انتهيت» ركعت على الأرض عند طرف السرير وبدأت في الأجزاء المتصلبة.

قال شانو: «كما ترين، إنها مجرد طفلة». كان صوته متجهما. لقد كان الصوت الذي يمكن لطبيب أن يستخدمه لإبلاغ أخبار سيئة.

راحت نازنين تقطع البشرة الشمعية. لم تكن شاهانة سوى نصف طفلة. أو بالأحرى أحيانا تكون طفلة مكتملة، وأحيانا شيئا آخر. أكثر الأشياء المروعة: شخص آخر.

«ليست سوى مجرد طفلة والفساد بالفعل يبدأ الآن.. لذلك لابد أن نرحل».

عملت نازنين حول الجزء المتصلب. ثمة وقت كان يصيبها بالاشمئزاز، هذه القشارة والقشاطة، ولكنها الآن لا تمثل شيئا. كان الوقت يمثل كل ما تستنفده. تطلعت إلى صورة رقيب على الطاولة القريبة. يحتاج الزجاج إلى إزالة الغبار عنه.

قال شانو: «التخطيط والاستعداد، الفتيات لابد أن نجعلهن مستعدات. من حسن حظهن أنني موجود بالمنزل».. بدا فمه

الذي ينسحب في اتجاهات مختلفة متشككا. التقط كتابه واستلقى على ظهره في السرير.

لملمت نازنين قشارتها. لو مضين إلى دكا يمكنهن أن يكن مع حسينة. كل نهاية عصب تلتوي نحوها كأن محصن الرغبة الحسية يمكن أن تنقلها. غير أن الأطفال سيكونون تعساء. ربما تتماثل بيبي بسرعة. شاهانة لن تغفر لها قط.

في الصورة بدا رقيب يشبه شانو بعض الشيء. أو ربما كل الأطفال ذوي الخدود الممتلئة يشبهون إلى حد ما شانو.

سوف يذهبون. أو يمكثون. الله وحده سوف يبقيهم أو يرسلهم. عرفت نازنين دورها، تعلمته منذ وقت طويل، ودحرجت البشرة الميتة في كفها وجلست في هدوء، منتظرة أن تنقضي المشاعر.

عندما ضلت حسينة ووجدت ثم ضلت من جديد وعادت إليها مرة أخرى، مضت نازنين إلى زوجها «أختي أود أن أحضرها هنا».

أشاح شانو بذراعيه النحيلتين. «أحضريها هنا. أحضريهم كلهم. كوني قرية صغيرة هنا». هز شانو كتفيه النحيلتين في استعراض للضحك. «أحضري صندوقا وابذري أرزا. اصنعي حقل أرز على عتبة النافذة. كل شخص يجب أن يشعر بأنه في بيته».

شعرت نازنين بالخطاب داخل التشولي[٤١] الذي ترتديه. «لقد واجهت مشكلة ما، ليس لدي سوى أخت واحدة».

---

(٤١) تشولي: سترة نصفية تغطي الصدر تلبسها النساء تحت الساري - المترجم.

صفع جانب رأسه وراح يتوسل للجدران. «مشكلة ما! كان هناك مشكلة ما! كيف يسمح بذلك؟ هل ثمة أي شخص هنا يمر بأي مشكلة؟ بالطبع لا! أي شيء نستطيع أن نفعله لإيقاف هذه المشكلة يجب أن يفعل على الفور». صوته على الرغم من أنه استحال إلى صرير فإنه لم يفقد درجته.

لم تستطع أن تشرح. كانت حسينة لاتزال تعمل في المصنع. كان هذا كل ما يعرفه شانو. كانت ترفرف لساعي البريد، تخفي الخطابات، تلفق تصريحات تافهة لحوادث ثانوية محبوكة. كل ما يمكنها أن تفعله لأختها هو تخليصها من مزيد من العار وكان هذا كل ما فعلته. ابتعدت نازنين وسارت إلى الباب. نادى عليها» زوجتي، ألا تنسين شيئا ما الآن؟

توقفت.

«سوف نذهب إلى هناك. لقد قررت. وعندما أقرر شيئا فهو في عداد الحاصل».

لكن ليس لديهم نقود. والنقود لازمة من أجل التذاكر. ومن أجل حقائب السفر ولشحن الأثاث ولشراء مكان في دكا.

قالت نازنين: «بعض النساء يقمن بالخياطة في المنزل، يمكن لرضية أن تحصل لي على عمل»

قال شانو. «را - ض - ية، دائما راضية هذه. كم مرة قلت لك أن تخالطي أشخاصا من النوع المحترم؟ » استلقى على الأريكة بينما يرتدي مئزرا وقميصا داخليا. لم يعد يرتدي البيجاما، إشارة إلى العودة الوشيكة إلى الوطن، وغالبا يقضي النهار مضطجعا على الأريكة من دون أن يلبس، أو ملتصقا

بالأرضية تحت كتبه. لوهلة راح يجتر ويكتشف طيات بطنه.

«بعض من هؤلاء الأشـــخاص غير المتعلمين يقولون: لو كانت الزوجة تعمل فليس هذا سوى لأن الزوج لا يستطيع أن يطعمهم. من حســـن حظك أنني رجل متعلم». انتظرت المزيد، غير أنه راح في حلم يقظة عميق ولم يقل شيئا إضافة إلى ذلك.

في هذه الأيام ومع وجود الأطفال بالمدرسة وشانو يبعثر حجرة الجلوس تنسحب نازنين غالبا إلى المطبخ أو تجلس في حجرة النوم حتى يدفعها الدولاب إلى الخارج لتطوف الشقة بخرقة مبللة، تمسح وترتب. لم يبد إشارة للحصول على عمل. مدخراتهم تضاءلت إلى التراب. في شوط أخير للنشاط ارتدى بزة وخرج ليؤثر في المجلس من أجل الانتداب. الشقة الجديدة في مجمع روزميد السكني على مبعدة دور واحد من الســطح، ودورين فوق راضية وبها حجرة نوم ثانية. قال شانو. ممارسة لعبة التواصل القديمة، حقا لقد تقافزوا بحدة مفرطة عندما رأوني. دالواي القديم صافح يدي.

يأســف لأنه فقــد رجلا جيدا. ذلك ما قالــه. المرحاض كان ينســد في إصرار والجبس تقشر في الردهة. قال شانو. «يجب أن أقوم باتصالاتي» غير أنه لم يقم بحركة واحدة.

جلســت نازنين وراحت تنظر إلى يديها. شانو يقرأ كتابه. لم يعد يأخذ دورات تعليمية. لقد استقر عدد شهاداته، التي تنتظر في قعر الدولاب حتى يكون لدى شخص ما طاقة لتعليقها. الآن كان يُعلِّم أكثر مما كان يتعلم. والمســتفيد الرئيس كانت الفتيات. نازنين بدورها استفادت.

قال شــانو بينما لم يزل مســتلقيا على ظهره وممسكا كتابه

فــوق وجهه «كما ترين كل الناس هنــا الذين يحتقروننا بوصفنا فلاحين لا يعرفون شــيئا عن التاريخ». نهض قليلا وتنحنح «في القرن الســادس عشر كانت بنغال تســمى جنة الأمم. هذه هي جذورنا. هل يدرســون هذه الأشياء في المدرسة هنا؟ هل تعرف شاهانة شيئا عن جنة الأمم؟ كل ما تعرفه هو الفيضان والمجاعة. الشعب اللعين برمته ليس سوى شعب قعيد بالنسبة إليها». تأمل نصه أكثر وأحدث قليلا من التحسين وأصوات مقرقرة.

«إذا كان لديــك تاريخ كما ترين فأنــت لديك كبرياء. العالم بأســره كان يذهب إلى البنغال لمزاولة التجارة. القرن السادس عشــر والقرن السابع عشــر. كانت دكا موطن المنسوجات. من الذي ابتكر الشاش والدمقس وكل شيء رفيع؟ إنه نحن. كل ألمانيا والبرتغال وفرنسا وبريطانيا كانوا يصطفون لكي يشتروا».

نهض الآن وأعاد ربط مئزره. شاهدته نازنين يخطو مسرعا حول الأريكة وعرفت أنه كان يحضّر لدرس المساء مع فتياته. ســوف تجلس بيبي على حجره وتحاول من خلال هدوئها أن تؤكد له أن الدرس كان يتم تعلمه. شــاهانة بالتناوب ســوف تتواثب وتتســكع في عبوس عبر كرسي ذي مسند. بمجرد أن يتوقف عن الكلام ســوف تســرع إلى التلفزيون وتشغله، وهو ســوف يبتســم تســامحا أو يضخ تيارا من القذع يرسل كلا الفتاتين إلى الجانب الآمن لسريرهما.

قال: «الإحســاس بالتاريخ، ذلك ما ينقصهما. ولا تنســي - البنغلاديشــون الذين يختلطون بهم هم سيلهيتيون(*)، ليس أكثر ولا أقل. وهؤلاء لم يروا الوجه الأفضل لأمتنا».

قالت نازنين في هدوء. «العقيد عثماني[٤٢]، والشاه جلال[٤٣]».

قال شانو «ماذا؟ ماذا؟»

«بطلنا القومي و..»

«أعرف من يكونون!»

اعتذرت نازنين بابتسامة، ثم أردفت «وأن كليهما من سيلهيت».

«ولكن تلك هي النقطة التي أريد أن أثيرها. فهؤلاء الناس هنا ببساطة لا يظهرون أمتنا في وهجها الحقيقي». انقض على الكتاب وبدأ يفر الصفحات. «هل تعرفين ماذا يقول ورين هاستينجز[٤٤] عن قومنا؟» قرقر ومرن وجهه بينما يستعد للاستشهاد. «إنهم لطفاء، محسنون...، كثير جدا من الطبائع الحسنة وجدها. إنه باختصار يجدنا خالين من أسوأ خواص العاطفة البشرية مثل أي ناس على وجه الأرض».

لوّح بالكتاب في انتصار: «هل تعتقدين إنهم يعلمون هذا في المدارس الإنجليز».

قالت نازنين: «لا أعلم، هل هذا كتاب إنجليزي؟» تساءلت من عساه يكون ورين هاستينجز هذا.

(*) سيلهيتيون: من سيلهيت، مدينة في بنغلاديش.

(٤٢) عقيد عثماني: هو محمد أتول جاني عثماني القائد الأعلى للقوات المسلحة البنغلاديشية أثناء حرب التحرير- المترجم.

(٤٣) شاه جلال: من أهم الرموز الدينية في مدينة سيلهيت ببنغلاديش، ويعتبر بطلا قوميا - المترجم.

(٤٤) ورين هاستينجز: أول حاكم عام للهند البريطانية، من ١٧٧٣إلى ١٧٨٥. اتهم بالخيانة سنة ١٧٨٧وتمت تبرئته سنة ١٧٩٥ - المترجم.

تجاهلها شانو وراح يؤثر في الجمهور: «كلا. هذا ليس ما يعلمونه. جميعه طوفان هنا ومجاعة هناك والتجمع في مجموعة علب الصفيح». استخدم الكتاب ليهرش داخل أذنه.

فكرت نازنين في شاهانة، كيف أن وجهها الطويل النحيل كان يجمع كل ملامحه الصغيرة كأنما يحاول أن يجعلها تختفي، مصفيا حسابه. كانت لها طريقتها في وضع غشاوة على ما بدا مكتملا، النضج وراء سنواتها. أنا داخلة الآن، كانت تقول ذلك، وربما لا أخرج ثانية. ولكن عندما ينتهي ذلك فليس سوى العبوس، والعبوس يبدو واضحا في نوبة الغضب التي تعقب ذلك. عندها يصبح فمها ثقبا غاضبا مستديرا وتبدأ في الركل. تركل الأثاث، تركل أختها وفي الأغلب تركل أمها.

«أربعة شعوب أوروبية تحاربت على المكان. وعندما أحكمت بريطانيا السيطرة، هذا ما منحهم القوة ليستولوا على الهند كلها». ثمة عَرق كان على جبينه على الرغم من أن الحجرة لم تكن دافئة جدا. مسحها بساعده. «إبان القرن الثامن عشر». - نظر تحت من خلف الأريكة إلى الجودة الناعمة التي تركتها مؤخرته على الوسادة. - «كان هذا الجزء من البلد غنيا. كان مستقرا. كان متعلما. كان يمد - نحن كنا نمد - بثالث دخول إمبراطورية الهند البريطانية». انزلق الكتاب من يده وانثنى ليتناوله. حك طرف الوسادة ونظر إلى الحائط البعيد، إلى حيث علقت شهاداته في الشقة القديمة. ابتسم وارتفع خداه إلى عينيه.

قال متحدثا إلى الحائط: «إن خسارة الكبرياء تعد شيئا مؤسفا».

استيقظت نازنين ليلا وذهبت إلى المطبخ أخذت وعاء لحفظ الطعام من الثلاجة وراحت تأكل الكاري باردا، واقفة أمام الحوض. لو حصلت على عمل سوف تستطيع أن توفر نقودا. وإذا وفرت فسوف يكون معهم مايكفي من النقود للذهاب إلى دكا. أو إذا لم يذهبوا إلى دكا فسوف توفر مايكفي لإرسال نقود إلى حسينة. لن يعرف شانو كم عدد البطانات التي أخاطتها أو كم عدد السترات التي حبكت عرواتها. لن يعرف قدر النقود التي يجب أن تكون هناك، ولسوف تكون قادرة أن تدخر بعضا منها.

كان القمر حائرا الليلة. متقرحا، كان يقبع خلف سحابة بلون الحبر الأرجواني ويحاول أن يغمر نفسه في سماء ضحلة للغاية. كتبت حسينة ذات مرة أنها شاهدت القمر وفكرت فيها، وهي تشاهد القمر نفسه. ولكن السماء هنا منخفضة جدا وواهنة جدا، لذا من الصعب تصديق أنها السماء المرتفعة نفسها التي كانت تحلق فوق حسينة، والقمر لن يكون ظاهرا في دكا، وربما كان في نهاية الأمر قمرا مختلفا.

وضعت وجهها تحت الصنبور وفتحت الماء البارد.

«آما»

كانت بيبي تقف عند الباب. كانت تشاهد بينما تجفف نازنين وجهها بمنشفة المطبخ. جبينها خلق عريضا ليتسع لكل قلقها.

قالت نازنين. «جوعانة؟»

أومأت بيبي. أقبلت وشبت على الحوض وراحت ترتجف. وصلت نازنين إلى علبة البسكويت ولكن بيبي أشارت إلى وعاء

الحفــظ. راحت تــأكل بملعقة نازنين، ولكــن حصلت على لقمة فقط. قضتا هذا الوقت معا ولم تضيعاه بالحديث. كانتا تشاهد إحداهما الأخرى، وتظاهرت نازنين بأنها تنظر إلى خارج النافذة بينما بيبي التي كانت قصيرة على أن تنظر إلى الخارج تظاهرت بأنها تنظر إلى الطوب المكسر خلف الصنبور.

ضغطت راضية كفيها على الجزء الأصغر من ظهرها. «تعرفين مــاذا يقولون في القرية - المرأة تصبح عجوزا في العشــرين - حسنا، إنك تنظرين إلى عجوز، امرأة عجوز الآن».

شعرها كان كثيفا مشوبا بالرمادي. كانت ترتدي نظارة بإطارات سوداء واسعة قصرت أنفها غير أنها كبرت الخطوط الداكنة حول عينيهــا. منــذ حصولها على جواز الســفر البريطاني نالت كنزة فضفاضة مطبوعا عليها من الأمام العلم الوطني البريطاني، وفي تشكيل محبب قرنته ببنطال بني ذي خصر مطاطي. البنطال كان لــه درزة أســفل المقدمة، صممت لتبدو مثل ثنية حادة. بســطت يديها لنازنين. «شاهدي المفاصل؟ التهاب». أعادت يديها لتضغط عليها في مواجهة الألم. «وظهري يقتلني من الألم. خياطة كل يوم وكل يوم. الأطفال يأخذون النقود، وأصاب بالتهاب المفاصل».

قالت نازنين. «الجميع يصابون ببعض الصرير في عظامهم»، طوقت كتفيها لتظهر أنها لم تكن مســتثناة.« إنك لســت عجوزا هكذا».

قالــت راضية: «إه- هررم». متظاهــرة بأنها تتنحنح. «إه- إه- هررم» هزت رأسها وزمت شفتيها وكورتهما. «عزرائيل بالباب. كيف يمكنك أن تنكري ذلك؟ هذه المرأة عجوز. هذه امرأة عجوز».

ضحكت نازنين لنفسها. «دائما معك الحق يا زوجي».

ضحكت راضية ضحكتها المعدنية. لا يهم كم سمعتها مرارا، فالصليل المفاجئ دائما يفزع نازنين. تطلعت الآن لترى إذا كان الباب مغلقا. الفتيات كن في حجرة نومهن منكبات على الواجب، وهي لم ترد أن يسمعن راضية وهي تسخر من أبيهن.

«شيء خطير، على الرغم من ذلك، مسألة الشغل بالماكينة. إنه يتلف اليدين والظهر والعينين. «هزت راضية كتفيها. تجعد العلم الوطني. لا أعبأ بأي سبب آخر خلق له هذا الجسد؟ إنني فقط أستهلكه الآن من أجل أطفالي. شيء واحد يعنيني وهو أنه ليس عليهم أن يعملوا هذا الشيء نفسه مثلي. إقامة منزل أيضا. كراسي جديدة، أريكة جديدة، لا مزيد من فرشات الأسنان المستعملة لأطفالي هذا ما أعمل لأجله».

«هل يستمتع طارق بالآي تي(*).

قالت راضية بالإنجليزية: «إنه أوكيه - مام، كل شيء طوال الوقت أوكيه - مام. الولد يعتقد أنني أدعى أوكيه - مام».

«كم من الوقت عليه أن يدرس؟»

«سنتان، ثلاث سنين أخرى. ماذا أعرف؟ اسألي زوجك كم من الوقت على الولد أن يدرس. إنه يعتمد على كم يبلغ طول الحائط وكم يبلغ حجم الشهادة».

قهقهت نازنين. تساءلت هنيهة أثناء قهقهاتها، إذا كان يجب بالفعل أن تسمح لرضية أن تكون على حريتها هكذا فيما يتعلق

(*) آي تي (IT): تكنولوجيا المعلومات.

بزوجهــا. وعندئذ صعدت القهقهة إلــى أنفها ونخرت وخبطت ساقيها وتهاوت على جانبها فوق الأريكة قبالة صديقتها.

قالت راضية: «حقا، إذا لم تملأ الشــهادات الحائط ســوف تجلد مؤخرته».

قالت نازنين: «كفاية»، وهي تمسح عينيها. قامت بتعديل نفسها.

«آمل فقط أن يملأه بسرعة شديدة لأن كلا منها يكلف أذرعا وســيقانا. أيا كانت كمية النقود التــي أعطيها له فدائما يحتاج إلى المزيد». هل لي بعشــرين جنيها للكتب المدرســية، يا ماما؟ «لقد أعطيته عشــرين جنيها للتو في اليوم السابق. أخبرته، في القرية - كتاب مدرســي واحد يدور فيما بين خمســة أطفال». أوكيه - مام هل لي بعشرين جنيها؟»

«إنهــم يحتاجــون إلى الكتــب للمذاكــرة. مــاذا يمكنك أن تفعليه؟».

«ليس الكتب فقط. هذا الشــيء وذاك مــن أجل الكمبيوتر. قرص ومشــغل وورق إلى آخــره». وضعت راضيــة كاحلا على ركبتها وراحت تتشبث بالحذاء الضخم. أصبحت هادئة، وللحظة توقفت نازنين عن رؤية صديقتها وراحت تنظر إلى المرأة المنهارة المصابة بالتهاب في مفاصل اليد والوجه المهمل.

قالت نازنين. «إنه ولد طيب».

«أوه، حقــا. ولد طيب. يحب أوكيه مام. ولكن أحيانا أقلق من أنــه يذاكر باجتهاد مفرط. وهو هــادئ جدا. دائما في حجرته. أقول له أن يخرج ويزور أصدقاءه. يقول لي أوكيه - مام ثم يعود إلى حجرته».

«شيفالي لديها امتحان في القريب؟».

مالت راضيـــة إلى الخلف بشـــدة وراحت تنقـــب في جيوب بنطالها. أخرجت علبة ســـجائر سيلك كت وقداحة متاحة. كان هذا شيئا جديدا وتأكيدا نهائيا لشانو أن راضية جذع أعوج على نحو غير قابل للتقويم. بدأت نازنين تفكر في مرطب الهواء وهل سيعود شانو قبل أن تتصرف صديقتها. أشعلت راضية سيجارة، وراحت ذيول الرمـــادي الخفيفة المنبعثة من أنفها تمتزج بألياف الرمادي في شعرها.

«نعم. إنها تريد سنة تقاعد». كانت تنطق الكلمات كأنها قطعتا روث تتدليان من طرف عصا.

سألت نازنين: «ما هذا؟ سنة تقاعد؟»

«قبل أن تذهب إلى الجامعة، إنها تريد أن تقضي ســـنة تعمل لا شيء».

ولكن ســـنة تقاعد لها وقع رسمي وعرفت نازنين أنها لم تفهم بعد «أي نوع من اللاشيء؟»

وضعت راضية سيجارتها على الطاولة ذات الأرجل البرتقالية والسطح الزجاجي وبسطت كفين مستويين: «شاهدي اليد اليسرى هذه - لا شيء فيها. شـــاهدي اليد اليمنى هذه - لا شيء فيها. أخبريني الآن كيف أن لا شيء يختلف عن لا شيء آخر؟».

قالت نازنين:« أوه، الســـيجارة». لقد تدحرجت على الطاولة وكانت تحترق على البساط ذي اللون الأخضر والأرجواني.

«اللعنة. إن بساطك تالف».

قالت نازنين. «لا أعرف، لو أن بساطا بحق أخضر وأرجوانيا

فمن الصعب جدا أن تقولي إنه تالف».

كانت الفتيات يغسلن أسنانهن بالفرشاة عندما وصل شانو إلى البيت. ترنح تحت المدخل وأسقط صندوق كرتون كبيرا عند قدميه. تملص من سيور الحقيبة القماش التي كانت تتدلى بين كتفيه وأرجحها إلى أسفل. لقد أزالت قطعة جبس أخرى كبيرة من الحائط. استقر الغبار على شعر شانو.

ضرب يدا بيد بضع مرات، بالطريقة التي يستطيعها رجل عندما يكمل مهماته وينتظر الثناء. قال: «ها هي»، بينما لايزال يحاول أن يلتقط أنفاسه. «ألست أفعل دائما ما تطلبينه؟ لقد أحضرتها». افتر ثغره لنازنين. أطلت الفتيات برؤوسهن من الحمام. نادى عليهن: «تعالين، انظرن ماذا أحضرت لأمكن».

خرجت الفتيات في ملابس نومهن ووقفن بجانب نازنين. كانت تفوح منهن رائحة معجون الأسنان ومسحوق الصابون ورائحة الأجساد الصغيرة النظيفة. لم تفكر نازنين في أي عذر لتنتزعهن الآن وتقبل رؤوسهن المتلألئة.

«تعلمن، أنني لما تزوجت اعتقدت أنني أحظى بفتاة بسيطة من الريف وأنها لن تسبب لي أي متاعب». كان يمثل دور الأحمق لهن. مدحرجا عينيه ونافشا خديه: «ولكنها الآن المرأة القائدة. أي شيء تقوله يهرع أبوكن ويفعله. انظرن. انظرن في الصندوق».

تقدمت الفتاتان معا. بدأت بيبي تشد في الشريط البني. دفعتها شاهانة جانبا وتولت المهمة. فجأة كانت الفتاتان تمزقان

في الكرتون، تغوصان بالأذرع داخله وتتصايحان.

«آه، انتظرا. ادعوا أمكما لترى».

اقتربــت نازنين وجثمت بجانب الصندوق. بداخله ثمة ماكينة خياطة ولفة خيط.

قال شانو. «هدية عيد الميلاد». لم يكن عيد ميلادها.

«هدية عيد ميلاد مبكرة».

«إنها ما كنت أريده».

لم يحتفلا قط بعيد ميلادهما هما، الفتاتان فقط.

قالت بيبي: «دعونا نجربها»

انحنى شــانو وحل زمامــة الحقيبة القمــاش الكبيرة. كانت تحوي حاسوبا.

سألت بيبي. «هل هذه هدية عيد ميلادك؟».

«تلك هي». كان مسرورا. «هي كذلك».

وضعوا الحاسوب على طاولة الطعام وماكينة الخياطة بجانبه. عثروا على خيط وقطع قماش. كســرت نازنين إبرة. أعد شــانو أخرى وراحت تخيط منشــفة أطباق بقماشة كانت تستعملها في مســح الأرضية. قال شانو للأطفال: «من حسن حظ أمكما أنني رجل متعلم».

خاطت شــاهانة طرف قماشــة على كيس وسادة. كان لبيبي دور ولكنها لم تستطع أن تتحكم في الدواسة مع الإبرة في الوقت نفسه. لقد ثبتت القماشة بينما أخذت شاهانة دورا آخر. اكتشف شــانو الضبط الخاص بتعرج الغرز وعمل نموذجا على ســروال قديم. مسحت نازنين الغلاف الأخضر الباهت على الرغم من أن

العلامات الوحيدة عليه كانت خربشـــات داخلية بالية من الممكن ألا تزول. صارت الماكينة دافئة بعض الشيء من الإجهاد وأحست أنها بحاجة إلى الراحة.

صاحت بيبي: «الحاسوب».

قال شـــانو: «دعوني أفعل هذا» عندما احتشدت الفتاتان أمام الشاشـــة. كانت هناك توصيلات كثيـــرة وإعادة توصيل وضرب أزرار قبل أن تبدأ الشاشة في الدمدمة والتحول ببطء من الأســـود إلى الرمادي إلى الأزرق. طوال الوقت كان شانو يواظب على تعليق معلوماتي. كما تروا. هذا ما يســـمى. هذا السلك يسير في الـ . لابد ألا تلمسوا أي. سوف أبين لكم كيف الـ . قوست شاهانة ذراعيها إلى أعلى في القماش الفضفاض لثياب نومهـــا. أرادت أن تقول لأبيها أن يخلع معطفه. منعتها نازنين بنظـــرة اعتراض. فالحالات المبهجـــة هذه كانت تأتي نادرا بما يكفي.

أصغـــت بيبي لأبيهـــا بتركيز كأنها ســـتختبر فيما بعد. كانت الجمل الناقصة عبارة عن اختبارات للمعلومات وربما يطلب من بيبي أن تكمل الكلمات الناقصة.

جلس شـــانو وبدأ يكتب. كان يتفحص لوحة المفاتيح عن كثب قبل كل طرقـــة، مخفضا وجهه لصق الحروف كأن شـــيئا ثمينا انزلـــق بين الفراغات. بعد دقيقة أكمـــل جملة. تدافعت الفتاتان تلقيان نظرة. لقد مر وقت طويل على ميعاد النوم.

قرأتها بيبي بصوت مسموع: «سيدي المحترم، إنني أكتب لكي أحيطكم علما».

قال شـــانو بالإنجليزية: «كل ذلك سنكتسبه سريعا جدا» كان خداه متوردين بالسرور.

بدأت نازنين تتســـاءل عن النقود. من أين حصل على النقود؟ قررت ألا تفكر في هذا.

انصرفت شـــاهانة وتبعتهـــا نازنين إلى غرفة نـــوم الفتيات. شـــاهانة كانت تجلس إلـــى مكتبها. لقد أقام شـــانو لكل واحدة مكتبا من قطعة سطح مطبخ وجدها ملقاة في الشارع. لقد وضع أرففا فوق أسرتهم لتحمل كتب المدرسة، ولكن ليس ثمة قدر من المســـامير أو الغراء أو السباب يمكن أن تحفظها على الحوائط، وفي نهاية المطاف رفضت الفتاتان بشيء قليل من الحكمة وشيء أكثـــر بقليل من الرضوخ أن تناما تحتها. اســـتقر الخشـــب على الأرض وتكومت الكتب فوقها.

وقفت نازنين خلف ابنتها وراحت تخلل أصابعها في شعرها.

قالت شاهانة، متجاوزة حدود الصوت العالي: «ليس مسموحا لنا أن نتحدث بالإنجليزية في هذا البيت».

كان بينهـــم علـــى الدوام هـــذا التوتر. لم يســـتطيعوا قط أن يتغلبـــوا على خيبات أملهم. لو أن شـــاهانة كانـــت ولدا هل كان الأمر يختلف؟ لقـــد كان يلاحظ بيبي بالكاد. كان يتحدث إليها، ولكن كم سيكون مندهشا لو بدأت بالرد عليه.

قالت نازنين: «ونحن على الدوام ملتزمون بالقوانين؟»

«ولكنها قوانين غبية في المقام الأول».

قالت نازنين: «أعرف».

عندما يخرج شانو مرارا كثيرا ما تبدل الفتيات اللغات. كانت

نازنين تترك هذا يمر. وربما حتى كانت تشجعه.

منذ سنوات وقبل حتى أن يولد رقيب حاولت راضية أن تنقل نتاج فصول التعليم في مجتمعها إلى نازنين. لكنها كانت مفردات هشة سهلة الخدش «إنني أريد أن أتمكن من ملء استمارة». كانت تتدرب على هذا نحو مائة مرة كل يوم. وإلى حد بعيد لم تجد جدوى منها.

على مدار العقد والنصف الماضي كانت تلتقط مفردات من هنا وهناك. التلفزيون، التعاملات البسيطة في المحال غير البنغالية القليلة التي دخلتها، طبيب الأسنان، الطبيب، المدرسين في مدرسة الفتيات. ولكن البنات هن اللواتي علمنها. من دون دروس أو كتب مدرسية أو عبارات راضية الأساسية. كانت طريقتهن بسيطة: كن يطلبن أن يستوعبن.

عادت نازنين إلى اللغة البنغالية. «عندما تزوجت للوهلة الأولى، أردت أن أذهب إلى الكلية لتعلم الإنجليزية. ولكن أباكم قال إنه ليس هناك حاجة إلى ذلك».

نفضت شاهانة يد أمها بعيدا عن شعرها. عندما تنهدت وارتفع صدرها أمام القماش الموبر لثياب نومها، رأت نازنين أن نهديها كانا يشرعان في الظهور. «ولقد كان محقا. فأنا أعرف بما فيه الكفاية». يدها كانت تحوم فوق كتف ابنتها». ولكن لما كنت أصغر كنت على الدوام أقلق على كل شيء. «استدارت شاهانة. زمت شفتيها وعينيها وأنفها». وماذا أيضا؟ عم تتحدثين؟ ماذا يعنيني؟ إنني أكرهه. أكرهه». تواثبت وشبكت يديها معا وكزت على أسنانها ورفست ساقي أمها بقدميها اللينتين الصغيرتين.

أسبوعان كانا كافيين لتعلم كل المميزات. تعلمت غرزة الخياطة المؤقتة، رفو الأطراف، عمل العرى والتجميع. كانت راضية تجيء كي تشرف وتصحح الواجب. أدخلت نازنين الزمامات وسارت على خطوط الغرز. قامت برفو طرف قميص شانو الداخلي الممطوط. وقامت بعمل نماذج للغرز المتسلسلة على ثياب الدمى. لم يعد إبر مكسورة. ولا فوط أطباق مشبكة. لقد خيطت كل قطعة قماش فائضة في المنزل معا وانتزعت وقرنت بأخرى. للتمرين على قطعة طويلة حلت الستائر وخيطتها على شكل أنابيب.

كانت ملقاة فوق طاولة الطعام مثل أشرعة مفرغة. ثمة بكرات من الخيط الملون وضعت على كتب شانو، أعلام مشرقة توضح الطريق إلى المعرفة. انكبت نازنين على مهمتها بينما شانو يقرأ وينقر على لوحة المفاتيح، يغني ويتزحزح، ويتذكر كراهيته للكراسي فيهبط إلى الأرض، يتذكر ركبتيه المتخشبتين فيقوم، يدندن ويقرأ، ينقر ويتحدث.

اليوم ذهب ليشتري طعاما. طلبت شاهانة وهي ذاهبة إلى المدرسة هامبورجر بيردز آي. أما شانو فقد كان ينوي كاري رأس السمكة وسمك هلشا مجففا إذا لم يكن هناك سمك طازج. بحافظات قماش مستهلكة راحت نازنين تفك شريط حاشية تنورة داخلية ومعتقدة أنها سوف تحظى بإبرة أدق عندما حدث طرق على الباب.

شاهدت السيدة إسلام في الصالة المشتركة، وفي يديها سبراي رالجيكس هيت. حملت نازنين لها الحقيبة السوداء ذات

المســامات ووضعت ذراعا تحت كوع السيدة إسلام عندما كانتا تدخلان. السـيدة إســلام كان لها كوعان حادان بنحو مفاجئ. نظفت نازنين الأريكة واســتلقت الزائرة. ســحبت ســاريها من عند الــردف، واســتعملت الرالجيكس وتأوهت. رشــت بطنها وأدخلت العلبة في كم ســترتها ورشــت مجددا. ثم رشت منديل ورق ووضعتــه على وجهها. كان مفهوما أن هذه الاجهادات يجب أن تتم في هدوء وفي فترة شــفائية مناسبة مسموح بها. وقفت نازنين بجانبها.

علــى الرغم مــن أنها لا محالة كانت تبــدو أكبر وقتما كانت نازنين عروســا صغيرة فإن السيدة إســلام كانت نفسها تعترف بأنها في شيخوختها. الحقيبة السوداء هي نفسها شاخت بشدة كانــت عبارة عن قرن ممتلئ بالأدويــة وكأن الحقيبة في متأخر العمر وجدت مهمتها الحقيقية. إنها تحمل مستودعا من الأقراص وأقراصا للاســتحلاب، مساحيق وزجاجات. ثمة برطمانات من المرهــم وعلب لحبيبات غريبــة. وكان هناك عليبات من أجناس دوائية وبضع حزم محلولة من أعشــاب. ولكن كل ذلك كان فقط مخزونا لإجراءات الطوارئ، ربما. كلما طُلب من نازنين أن تنقب عن دواء كان دائما بنيلين تشستي كوفس.

أشــارت السـيدة إســلام في وهن نحو الحقيبــة ووثبت نازنين إلى الأمام وحلت الإبــزيم الحجري. ناولتها الزجاجة وتجرعت السيدة إسلام من تحت منديلها الدواء. أثناء العشر ســنوات الماضية لم تســتطع نازنين أن تتذكر مناسبة واحدة سمعت السيدة إسلام تســعل فيها. كان عقار بنيلين تشستي

كوفس فعالا جدا. أحيانا خلال زيارة بعد الظهر كانت تشرب زجاجة كاملة وتروح في النوم لمدة ساعة أو نحو ذلك. كان شانو يتسلل حول المكان ويتحدث في همسات مبالغ فيها إلى نازنين. «أليس ذلك شرفا؟ انظري كم هي مرتاحة هنا. لقد عرفت زوجها».

كذلك كانت تحمل سبراي رالجكس هيت هنا وهناك. كانت الرائحة المختلطة بالنعناع التي تضعه تحت لسانها وتجهيز شراب السعال الحلو يحدث حولها رائحة فراش المرض. ولكن عينيها كانتا حادتين وبراقتين وصوتها كان يجيء كالطلقة.

قالت: «منجم ذهب»، بينما تحرك المنديل عن وجهها وتلقي نظرة في اتجاه ماكينة الخياطة. قالت نازنين: «لقد كنت أتدرب». كانت تجلس في الكرسي ذي المسند والذي بلون روث الماشية وتمسك بممسحة مشبكة كدليل.

«لما كنت بنتا كنا نتعلم كيف نخيط باليد. لم تكن لدينا أشياء بهذه السهولة».

لم تستطع نازنين التي أصيبت ببعض الشد العضلي في يدها اليمنى والتي كانت مشغولة بفكرة استعارة الرالجيكس سوى أن توافق فقط. «حقا إنها سريعة جدا. ماكينة جيدة».

هزت السيدة إسلام شبشبها البيتي. «هل ستبدأين إرسال الفتيات؟ زوجك قال إنك كنت سترسليهن غير أن أحدا لم يرهن».

قالت نازنين. «أوه، نعم». خلال الجو الخانق لرالجيكس هيت اسبراي المستعمل لعظمة الترقوة، قالت السيدة إسلام: «إنني

امــرأة مريضــة الآن. مريضة جدا جدا. أي شــخص يمكنه أن يقول أي شيء ليّ، إنهم يعرفون كم أصبحت ضعيفة. أنت تقولين لي إنهن ســوف يذهبن، لكنك لاترسليهن. غير أنه لامرأة عجوز مريضة يمكنك أن تقولي أي شيء».

كانت تتحدث عن المدرســة، مدرسة المســجد الجديدة. لقد أنشئت بمنحة سخية من السيدة إسلام. كان المفروض أن تذهب شــاهانة وبيبي إليها بعد أن تنتهي المدرسة العادية بالنسبة إلى اليوم ولكن شــانو منع هذا. لقد استشــاط غضبا. «هل يسمون هــذا تعليما؟ التمايل مثل ببغاوات صغيرة فوق مجثم، يســمّعون كلمات لا يفهمونها». ســوف يعلمهن هو القرآن، ولكن ناهيك عن الفلسفة الهندية والفكر البوذي والأمثال المسيحية. قال لنازنين: «لا تنســي، كانت البنغال هندوسية قبل أن تصبح مسلمة وكانت قبل ذلك بوذية وذلك بعد حقبة الهندوس الأولى. إننا مســلمون فقط بســبب المغول. لا تنسي». وقال للسيدة إسلام: «نعم سوف ترســلهن زوجتي. إنني أتذكر زوجك لقــد كان أكثر الرجال من الطراز المحترم. في وقت ما كنا نفكر في القيام بعمل ما. صناعة الخيش. تصدير واستيراد بعض الأشياء».

فتحت نازنين فمها لتعترض ولكن الســيدة إســلام قاطعتها: «لك أن تفعلي ما تشائين. ســوف أخبر أولادي - السيدة أحمد دائما تفعل ما تشاء، أنا لا أعترض لقد حاولت أن أعتني بابنها، أحببت هــذا الولد مثل ابني ولكنها أوقفتنــي وأنا لا أعترض». تناولت جرعة من البنيلين وبدا ســيل أحمر بسيط أسفل جانب ذقنهــا. «يمكنني فقط أن أقول لك ذلك. المــرأة المريضة مازال

لديهــا آذان. لــو كنت تعتقدين أنها أصبحــت صماء، فلأخبرك أن آذاني بخير. أســمع ما يجــري». في حال اســتثارتها كانت تنهض نصف نهوض، ولكنها تذكرت الآن وضعها غير السليم ثم ضبطته وساعداها فوق جبهتها. كانت الزجاجة والبخاخ يؤطران وجهها.

قالت نازنين: «ســوف أتحدث إلى زوجي». بحثت عن مخرج. «كيف حال مفصل الورك الآن؟ هل يسبب معاناة كبيرة؟» زحزحت الســيدة إسلام جانب ساريها إلى أســفل. نخرت كأنها تريد أن تقول، هل أنت راضية الآن؟

«أولادي يقولــون لــيّ أن أذهب لاســتبدال المفصــل، لكنني أعترض. لا أريد أن أضيع مفصلا جديدا ســليما هباء. لا أريد أن أدفــن بمفصل جديد. إن الله لا يحب المرأة المســرفة. وفري المفاصل الجديدة لهؤلاء الذين يســتطيعون استخدامها. أعطي المال للمسجد وأعطيني فقط قليلا من اسبراي الهيت. ذلك كل ما أطلبه». ســكتت هنيهة ثم قالت من جديد بدماثة أكثر: «هذا كل ما أطلبه». عندها أعادت الكرّة مرة أخرى، محاولة التلطف، إيحاء التلاشــي، إيمــاءة بأنها الآن - حتى الآن - تنســحب من الحياة. «ذلك كل ما أطلبه». جلســت نازنين على حافة كرسيها، أثناء الوصول إلى الحقيبة السوداء.

قالت الســيدة إسلام: «افتحي الحقيبة لي يا طفلتي» صوتها كان واهنا. ركعت نازنين وفتحتها.

«ضعي النقود في الجيب الجانبي. أنا لا أعدها».

«أنــت لا تعدينهــا؟» مــررت نازنين أصابعهــا على الإبزيم

الملتوي الــذي انطفأ بريقه.. بحثت فــي الداخل بين العبوات والأنابيــب لترى أيــن يمكن أن تكون النقود. مــن الواضح أنه مناســب أكثر لو حفظت النقود في القسم الجانبي حيث يكون من الســهل إيجادها، بدلا من إخفائها في مكان ما في مجاهل هــذه الصيدليــة. راحت تنقب فــي أرجائها. ثمة شــيء لزج على البطانة. مســحوق ما انفجر من عبــوة كرتونية مهترئة. المحتويات برمتها في حاجة إلى تنظيمها. كانت على وشــك أن تعرض عليها ذلك عندما قالت الســيدة إسلام. «آه حتى أكون صغيرة وقوية من جديد».

ثمــة علبة من حلويــات للمص كانت تقر مســحوقة في قاع الحقيبة. أخرجتها نازنين وعرضتها. «انظري. العسل يتسرب».

لفت الســيدة إسلام نفسها واتكأت بنفســها إلى أعلى على كوع. «هــل وضعت النقود فيها؟» أتى صوتهــا حادا وعلى الفور أردفت في نبرة أكثر وهنا، «هل وضعتيها يا طفلتي؟»

«ليس في وسعي أن أجدها».

«انظري ثانية يا طفلتي خمسون جنيها كما هو مرتب»، نظرت نازنــين عن كثب أكثر، رأســها فعليا كان داخــل الحقيبة. كانت الرائحة كاسحة، جوهر الصحة العليلة.

صرخت السيدة إسلام: «ماذا تفعلين؟ اتركي حقيبتي».

نهضت نازنين وقد تحرق ظاهر عنقها. الحرارة تنتشــر حول جمجمتها وفي خديها. قالت على مهل: «أنت طلبت مني».

قالت السيدة إسلام، وقد دبت فيها الحيوية فجأة: «هل أبدو لك امرأة ميتة؟»

لم تستطع نازنين سوى أن تفتح فمها وتغلقه ثانية.

«هل تحاولين أن تسرقي مقبرتي؟ أعطيني نقودي».

لقــد عرفت الآن. كل شــيء أصبح واضحا. لقد أخذ شــانو قرضا. وقد جاءت الســيدة إسلام لتحصل. ولكن مازالت نازنين لم تتحرك. فلم يكن لديها نقود لتعطيها. كما هو مرتب. مشــيرة باتجــاه ماكينة الخياطــة، وقالت في دفاع عن نفســها: «مازلت أتدرب ليس هناك من عمل بعد».

فكرت الســيدة إســلام لوهلة. ركــزت عينيهــا الصغيرتين الســوداوين التي لطائــر على وجه نازنين المتقــد: «إنني أتفهم. ســامحي امرأة عجــوزا مريضة ومتوترة. هــذا ليكن اتفاقا بين الأصدقاء. ادفعي حينما يتســنى لك». قامت بعرض للمجاهدة في الوقوف علــى قدميها وعاونتها نازنين لــذا عندما نهضت، وقفتا فيما يشبه العناق. قبلتها السيدة إسلام، فم قاس على خد لين. إن كلا منا يفهم الآخر. ســوف آتي مرة ثانية. ســلامي إلى زوجك».

سارتا إلى الباب. دسّت السيدة إسلام حبة نعناع منعشة تحت لســانها ورشت ســحابة عامة من الرالجيكس، إرشادات للعطر وأخذت حقيبتها من نازنين.

قالت: «ســوف تهتدين إلى طريقة ما. الله دائما يهب. عليك فقــط أن تجديها. ولســوف أحضر أولادي المــرة القادمة. إنهم يودون أن يروا زوجك من جديد».

أبيض

الفصل التاسع

أبيض

علـى جهـاز الكمبيوتـر اسـتطاع شـانو أن ينفـذ إلـى العالم بأسـره. قال «أي شـيء، أي شـيء تريدين أن تشـاهديه أخبريني فقط ولسوف أجده. هذا السلك الصغير الذي يسير إلى مقبس التلفون - هل ترينه؟ - كل شيء يسري خلال هذا السلك».

قالـت شـاهانة بالإنجليزيـة: «نحن نسـتخدم الإنترنت في المدرسة». تظاهر شانو بأنه لم يسمع.

راحت بيبي تتشبث بضفائرها. حاولت جاهدة حيث لم تستطع أن تفكر في أي شيء.

قالت نازنين: أود أن أرى كادام مرة ثانية.

أوقف إصبعا. «إذن سوف ترينه». لكز على الفور. «إنني أكتبه في الداخل. الكلمات الرئيسية: أزهار بنجلاديش» فكر الكومبيوتر لوهلـة. نظرت بيبـي عبر كتفها إلى نازنين. زفرت شـاهانة في أهداب شعرها، تطور جديد قرأه شانو بغطرسة. خفقت الشاشة بالحيـاة. «مائة وسـتين مدخلا» اندهش شـانو. تلاعب بالفأرة وراحت صورة تجدل نفسها خيطا بخيط سميك. ثمة عنقود فوق الشاشة عبارة عن باقة من الكرات الشوكية القرنفلية.

قالت نازنين: «كادام»

«ممل» دندنتها شاهانة بالإنجليزية.

ظـل شـانو هادئا «٢٠٠٠ موقـع بنغالي. من يريـد أن يلقي نظرة؟»

اقتربـت بيبي من أبيهـا. لكنه كان ينتظر شـاهانة. وضعت نازنين يدها على ذراع شاهانة. همست «هيا، يا بنت» لم تتزحزح شاهانة. «ألق نظرة بسيطة».

«كلا إنه شيء ممل».

هب شانو واستدار في حركة واحدة فانقلب كرسي السفرة. رعش خديه. «شيء ممل لصاحبة الجلالة؟»

قالت نازنين. «سوف تلقي نظرة الآن» تراجعت بيبي عن أبيها، زحزحة محسوسة بالكاد أعطت الانطباع بأنها كانت تستجيب للجذب الخاص بمجال القوة لأمها.

صاح شانو، متحدثا بالإنجليزية. ما الخط بك؟

قالت شاهانة: «تقصد ما خطبك؟؟» زفرت في أهداب شعرها. «وليس الخطب».لهث بشدة كأنما لكزته في بطنه. على مدار بضع ثوان كان فكه يعمل على نحو مسعور. قال، عائدا إلى اللغة البنغالية. «أخبري أختك أنني سوف أوثقها وأقطع لسانها. أخبري صاحبة الجلالة عندما أسلخ جلدها حية لن تبدو سعيدة بنفسها هكذا».

بدأت بيبي تردد: «سوف يوثقك ويقطع..» تحولت إلى نازنين. «لا أريد أن أقول لها. يمكنك أن تقولي لها نيابة عني، أليس كذلك؟» احتشد القلق في جبينها وأنزله قبالة عينيها.

بداخل شانو ثمة إعصار راح يعتمل. كان يهز جسده ويقلص وجهه. زعق: «سوف أقتلك الآن»، نزع الفأرة من الكمبيوتر ودفع نفسه نحو شاهانة. مس السلك شاهانة على خدها وجرت لتحتمي خلف الأريكة. اقترب شانو من الأريكة لكنه وقف في حيرة أمامها. تحرك إلى اليمين فموهت شاهانة لليسار. خطا خطوة لليسار فراوغت في الاتجاه الآخر. اندفع من فوق وتمكن من رسغ هزيل. بدأ يضرب بالفأرة بينما تتملص شاهانة وتلطش بذراعها الطليقة.

فكرت نازنين، لو استطاعت أن تبكي فتوفر دموعه.

صاح شانو. «لا تقتربي من جهازي، محظور عليك». خاطرت شاهانة بوضع رأسها أعلى ظهر الأريكة. توقف. «محظور على أختك هي الأخرى. هل تسمعونني؟»

قالت بيبي بلباقة: «حاضر يابابا».

قالت شاهانة: «حاضر يابابا، لن أقترب منه».

أخذت نازنين الفتيات إلى حجرتهن. ثمة احمرار أحاط برسغ شاهانة: نزعت ذراعها بعيدا من أمها وامتصت شفتيها في فمها.

قالت نازنين: «ميعاد النوم». قبلت بيبي وحاولت أن تقبل شاهانة. استدارت وهي تغادر الحجرة في الوقت المناسب لترى شاهانة تهبط بركلة على مؤخرة أختها. حكت بيبي مؤخرتها وجلست على سريرها. طرحت شاهانة نفسها ووجهها إلى أسفل وشرعت تركل مفرش السرير.

فرك شانو وجهه بيده بشدة وهز رأسه. أرجح أنفه السمينة بمركز راحته. سأل. «هل ذهبن إلى الفراش؟»

قالت نازنين: «نعم»

لقد انطفأ الكمبيوتر.

ثمة كرسي انقلب على رأسه.

قال شانو، «هؤلاء الفتيات» وقد تحير بوجودهم الفعلي.

«السيدة إسلام جاءت اليوم».

«هؤلاء الفتيات».

«السيدة إسلام».

تضايق. «لا تستمري في أن تقولي لي، السيدة إسلام!».

«لقد جاءت اليوم».

«بالفعل. لقد أخبرتني بذلك». وضع يده تحت بطنه وراح يحركها لأعلى وأسفل.

«من أجل النقود».

بقميصه الداخلي المنحسر فوق صدره، دفع شانو بطنه عاليا كأنها سوف تنطلق. كان التأثير مروعا. لقد أصبحت مشدودة مثل بالون ممتلئ بالماء وأظهر شريطا من اللحم الأرجواني، تواقا لتحية الهواء. أطلق سراحها فارتد اللحم إلى حجره. «النقود؟ أوه، حقا سوف أتولى الأمر في الأسبوع المقبل» ابتسم بطريقة مراوغة وفرك يديه معا. «تبدين جوعانة بعض الشيء لما لا تصنعين بعض الشيمي؟ فلنتناول قليلا من شيء حلو قبل النوم.

بعد ذلك، حينما أعدت الشيمي وأكل شانو بينما كانت نازنين تغسل الأطباق، ذهبا معا ليريا أنهما نامتا، ليسمعاهما تتنفسان، ليضعا أطرافهما تحت البطانيات، وليعطيا جرعات خفية من الحب. سوى شانو شعر شاهانة بعيدا عن وجهها، جلس على حافة السرير ووضع ذراعا عبر هيئتها غير المدركة. عيناه الصغيرتان كانتا غائرتين في التغضنات. تبادلا الأماكن وانتقل شانو إلى بيبي. قبل وجنتها وأمسك يدها ورأته نازنين ورأت أنه لم يكن متحيرا فقط ولكن خائفا. خرجا معا واستدارت بعد غلق الباب ومالت عليه لذا استقر رأسها فوق كتفه وذقنه كانت تخرفش قبالة شعرها.

لقد مرت فترة، أسابيع أو ربما شهور ولكن بالنسبة إلى نازنين بدت مثل أبد، عندما مضى إلى الفراش وظل هناك. توقف عن رسم الخطط. إن خططه التي أعطاها قصارى جهده والتي توقع منها كثيرا قد تخلت عنه. قبل ذلك، كان كل انهيار لطموحه، رغم أنه كان يندب حظه فإنه كان يقوده إلى تصميم جديد إلى مدى أكثر إلحاحا. كان يبدأ كل عمل جديد ببزة أنيقة جديدة ومجموعة متزايدة من الأقلام. كان وجهه يلوح بالأمل. ثم يطفق رماديا بالإحباط والتبرم. لقد بدأ عملا بزيارة لمصلح الأحذية وقام بعمل تكاليف على جانب حافظة أوراق متماسكة وجافة. أرقام ناهضة على خطط عمله المكتوب بنشاط والمعاد كتابته كانت توضح الطريق إلى الثروات. وراح يعمل بكد، فكان يعمل إلى وقت متأخر في خططه ويمزح مع نازنين ويغدو متسامحا مع الأطفال.

ولكن تم تجاهله. من قبل الزبائن، من قبل الموردين، من قبل الرؤساء والوضعاء. عمل بكد من أجل الاحترام بيد أنه لم يجده. ففي العالم ثمة عجز كبير في الاحترام وكان شانو من بين الجوعى.

في نهاية المطاف اضطجع في السرير وبدأ في سخط رتيب. ثم أخذ شهاداته ونثرها حوله وراح ينظر إليها، يوما بعد يوم، توقف عن السخط. توقف عن الأكل وأصبح بطنه صغيرا بشكل مقلق. فضفاضا ومتجعدا، كأنه جوال أرز مستنزف. عندما توقف عن الكتابة استبد بنازنين القلق.

اتصل به مكتب التوظيف لإجراء مقابلة. لقد عرضت عليه وظيفة غسل أطباق في مطعم. عاد إلى السرير ولكنه كان إلى

حـد ما مصدوما. ثمـة قبس من معركة راح يشـتعل من جديد بداخله. وشرع يحدد مهمات لبنتيه.

كان ينادي. «شـاهانة، بسـرعة يا بنت. انظري. كوني سريعة». عندما وصلت إلى حجرة النوم وهي تهرش بحدة في ذراعها، أمرها أن تحضر شبشبه. رفعته من رجل السرير وعلقته من عقبيه.

قالت «هكذا»؟

«ضعيه في قدمي. بسرعة». رفع قدميه.

أثناء خروجها استرجعها لتضبط وسائده، لتناوله إبريق الماء، لتجد قلمه، لتشد الستائر أو لتسحبها.

أو كان ينـادي على بيبي. «بيبي، كل شـيء في هذه الحجرة مبعثر. كم مـرة قلت لك أن تعاوني أمك؟» وكانت بيبي تسـرع، متخبطة بين السـرير والتسـريحة، وواقفة على الفراش، حيث كانـت الطريقة الوحيـدة لها لكي تصل داخل الـدولاب، لتعيد ترتيب البنطالات والقمصان والساريات.

بيـد أن أداء هذه المهام لم يكن مقنعا. كانت الفتاتان تهرولان خلالها وعندما لا يسـتطيع أن يفكر في شـيء آخر تنصرفان. في نهاية المطاف ينقر على شـيء ما. راح يزاول كتبه من جديد واستخدم الفتاتان في قلب الصفحة. كان هذا شيئا تاما. مستلق على مصفوفة من الوسـائد، كان لدى شـانو بنت تمسك الكتاب بينما تجلس على طرف السـرير. كان عليهما أن تشاهدا وجهه من أجل الإشـارات التي مفادها أنه اقتـرب من نهاية الصفحة وعندها تقلب إلى الصفحة التالية. كان لطيفا معهما. كان يعطي إشـارات، قليلا من الرفعات الموحية لحاجبيه المعقودين. الفتاة

الساهية فقط هي التي يتسنى لها أن تخفق في الملاحظة. الفتاة قليلة الأدب. التي تستحق الجلد كلية، لفظيا كان أو غير ذلك هي التي تقع في مثل هذا العجز عن أداء الواجب.

فكرت نازنين في هذا الآن، عندما كانت تخلع ملابسها. العذاب الأبدي ذو الأضلاع الثلاثة المؤلف من البنت - الأب - البنت. كيف انغلقوا على أنفسهم بمعزل في هذه المسافة القريبة جدا. بيبي في هدوء تبحث عن الاستحسان ودائما جائعة. شانو ينتفض مع حاجاته الخاصة ودائما مغتاظ. شاهانة - أسوأ الأمور - كانت تمور في إحراج دائم. غاضبة بشكل مستمر. كان الأمر يشبه المشي في حقل حيات. كانت نازنين قلقة لدى كل خطوة تخطوها.

كان عليها أن تركز بشدة لتجتاز كل يوم. أحيانا كانت تشعر بأنها تحبس أنفاسها المساء بطوله. كان الأمر يرجع إليها لتوازن بين الحاجات المتنازعة، لتهدئ هنا وتعجل هناك، وتدفع اليوم قدما إلى نهايته. عندما كانت تخفق، ويكون ثمة انفجار، جلد أو نوبة غضب أو خد أسيل مبلل بالدموع، تشعر أنها دائخة بالمسؤولية. عندما كانت تنجح، كانت تجعل منها مانترا لا تنساها، ولا تتركها تذهب إلى رأسها. انتبهي، انتبهي، انتبهي. كان الأمر يستنفد كل طاقتها. يستبعد الحنين. كانت حاجاتها قاب قوسين في يدها وتحت سيطرتها. لو فقط ركزت بدرجة كافية. عندما كانت تشرد، كانت تفكر في حسينة، غير أنها جعلت أفكارها مؤثرة على قدر المستطاع. كم يمكنها أن تدخر؟ كم تستطيع أن ترسل؟ كيف ستخفي هذا عن شانو؟

أحيانا عندما تضع رأسها على الوسادة وتبدأ تتساق في النوم، كانت تهز نفســها مستيقظة في ذعر. كيف يتسنى لها أن ترتاح.؟ ساعتها تذهب إلى المطبخ وتأكل من غير ما تعرف ماذا تضع في فمها. في الليالي الســيئة عندما لا تســتطيع أن تطمر أفكارها بالأرز أو الخبز أو المقرمشــات، كانت تبدأ في التساؤل إذا كانت تحــب بناتها كما ينبغي. هل تحبهن كما أحبت ابنها؟ عندما كانت تفكــر فيهن على هذا النحو - حين كن يكبرن على مبعدة منها - كان بطنهــا يقع في رجليها ورئتاهــا تصعدان قبالة قلبها. حيث كان يشبه بالضبط الإحساس الذي كان لديها عندما كانت تنزل إلى البحيرة في ليلة شتوية باردة مع حسينة. إنه الإحساس الذي اعتراها عندما كانت على وشــك القفز، بينما تعرف أن الماء كان باردا بما يكفي لجعلها تصرخ.

وراحت تستخرج رقيب من عقلها. بتلك الطريقة تخمد جهنم. لذا كانت تبلع بجد وتصلي بجد، وتستخدم الصلوات، في مواجهة عهودها، لتحد من المشاعر وتحد من الألم.

عائدة من إحضار الفتيات، أعدت نازنين فنجان شاي وراحت تفكر مليا في النميمة أمام بوابة المدرســة. لم تحضر الآن سوى بيبي لأن شــاهانة كانت تذهب إلى مدرسة أكبر وتفضل أن تعود بصحبــة أصدقائهــا، ولكنها مــا زالت تفكر في هــذا باعتباره «إحضار الفتيات». قالت جورينا إن الشــرطة جاءت إلى المسجد وأخذت تســتجوب الإمام لمدة ساعتين. ليس من أحد لديه فكرة عن الســبب، على الرغم من وجــود عديد من المتاعب المتنبأ بها والجميع يشك في أن الكنيســة كانت دائما تتعامل مع مثل هذه

الوقاحة البذيئة. كانت ناظمة تتحدث عن راضية مع سوروبا وسكتت في نصف الكلام عندما وصلت نازنين. ثمة كثير من التآمر تمثل في حوار عام بين امرأتين بيضاوين تناقشان كيفية إنقاص وزن كلابهما. إحداهما آثرت ريجيما منزليا إجباريا، بينما الأخرى أخذت حيوانها إلى عيادة إنقاص الوزن. على الرغم من أن الكلمات الإنجليزية لم تكن تنساب بسهولة من فمها، غير أن نازنين كانت قادرة على متابعة حوار لفترة طويلة. لم يعد يدهشها شيء ولكن بعض الأشياء مازالت تدهشها.

كانت تعد فنجان شاي ثانيا بينما تفكر في الكلاب الضامرة ذات اللونين في جوريبور عندما عاد شانو إلى البيت بحزمة ملفوفة بالبلاستيك.

قال: «ليس هناك وقت لشرب الشاي، هيا. تعالي». أسرع إلى حجرة الجلوس وتبعته نازنين.

شق كيس البلاستيك وفرد أرجل دستة أو قرابة دستة من البنطالات الرجالية. «رفو الحاشية» أعلنها للعالم بطلاقة. «مجموعة للاختبار». شد في الطرف الآخر من الحزمة. قال: «زمامات، كل ذلك سوف نفحصه».

أرادت نازنين أن تبدأ على الفور، لكن شانو أصر على مناداة البنات.

«عندما تزوجتها قلت: إنها عاملة ماهرة. فتاة من الريف. غير مدللة. كل الفتيات - الفتيات الماهرات - «سكت ونظر إلى شاهانة». كل الفتيات - الفتيات الماهرات لا يساوين شعرة واحدة في رأسها».

فتحت بيبي فمها وأغلقته. لقد نزل جوربها الأبيض الشريطي حول كاحلها بينما بدت ساقاها جافتين ومتربتين. أما شاهانة فقد بدأت تستعمل مرطبا للبشرة. بالأمس رفضت أن تغسل شعرها بالفيري ليكويد(*). فهي تريد شامبو الآن. قبضت نازنين على الغطاء الواقي لماكينة الخياطة. هز شانو رأسه وابتسم لها. لضمت الخيط وبدأت. رجل بنطلون واحدة، ثم الأخرى. عندما انتهت، قاموا بالتصفيق. طفقت بيبي مفتونة بما فيه الكفاية لتغامر بهتاف محدود. كان هتاف شانو حاسما وابتسمت شاهانة باختصار وعادت أدراجها إلى حجرة النوم.

أحضر شانو إلى البيت حقائب من قمصان من دون أزرار، وأكياس من فساتين غير مبطنة، حوض غسل مملوء بحمالات صدر من دون مشجب. راح يعدها وهو يخرجها منه ثم أعدها وهو يعيدها فيه. كل يومين كان يخرج من أجل شحنات جديدة. كان يجري نوعا من ضبط الجودة، يسحب زمامات ويقلب ياقات بينما يجس خديه بلسانه. كدس شانو المكاسب وجمعها. كان هو الوسيط، يرى أن دوره قانوني وراح يناضل فيه. على مدار أسبوعين تحير على نحو محموم بالحسابات، محاولا أن يحسب أي نوع من مهام الملابس أكثر ربحا. حساب هامش الربح الأعلى. لكن كان عليه أن يأخذ ما هو متاح والحسابات نفسها كانت محاولة لهامش ربح قليل. عندها كان لديه وقت للإشراف في جد وجعل من نفسه متاحا عند طرف يدها، يناول الخيط، يناول المقص، يقدم نصيحة، يصنع شايا، يطبق ملابس.

(*) فيري ليكويد: سائل لتنظيف الأواني.

قال: «كل ما عليك أن تجلسي هناك».

وقفت لتفرد ساقيها. التقطت كتابا من كتبه ونفخت عنه بعض نسالة الملابس، آملة أن شيئا ما بداخله سوف يستجيب للنداء المهمل. كز على شفته السفلى. «إننا ندر نقودا جيدة هذا الأسبوع. لا تقلقي سوف أتولى العناية بكل شيء».

لمدة شهرين كاملين لم تعرف حتى كم كسبت. كان ثمة راحة عندما ولأول مرة منذ أن بدأ الشغل بالقطعة تراجع شانو إلى حجرة النوم ذات مساء ونادى على المختص بقلب الصفحة.

في يوم السبت، اليوم التالي صنع ما يشبه حصنا من الكتب حوله على أرضية حجرة الجلوس. وألقى حديثا حارا عن تاريخ البنغال القديم. في يوم الأحد حلق بعناية فائقة وتمرن أمام مرآة في بزة، غير أنه لم يخرج. في اليوم التالي خرج وعاد وهو يغني مقاطع لطاغور. كانت هذه علامة جيدة.

يوم الثلاثاء والأربعاء مرا على الوتيرة نفسها وشطبت نازنين بطانات سبع وثلاثين تنورة قصيرة. لم يكن لديها مزيد من الخياطة لتنجزه.

جمع شانو أسرته معا وطرد بعض العراقيل الضارة في حلقه. «كما أنتم مدركون كلكم». انتبه إلى ثياب شاهانة. لقد رفعت زيها بالمدرسة لذا كان يتدلى على الحزام وينحسر إلى فخذها. من دون أن تغير سيماءها بدأت تزحزحه إلى أسفل شيئا فشيئا. «كما أنتم مدركون كلكم، لقد قررنا – كأسرة – أن نعود إلى الوطن. أمكما تفعل كل ماهو ممكن لتسهيل حلمنا من خلال مهنة الخياطة القديمة والمشرفة. ولا تنسوا أننا نحن الذين ابتكرنا كل

أقمشـــة الملابس هذه - الموســـلين والدمقس وكل شيء أيا كان».
كان يبدو متذبذبا. نظر إلى ابنتيه كأنما نســـي من تكونان. فقط عندما تركزت نظرته المنطلقة على نازنين تذكر نفسه.

«إحم. إذن سوف نعود إلى الوطن. لقد أصبحت اليوم موظفا في كيمبتون كارز، ســـائق رقم واحد - ســـتة - واحد - تســـعة، والمدخـــرات الخاصة بالمنزل ســـوف تزدهر. هذا كل ما يجب أن أقوله».

صفقت نازنين وبيبي. جاء الأمر كمفاجأة أن شـــانو يستطيع قيادة ســـيارة. وكأنه يبدد شكوكهم الصامتة أخذ قطعة ورق من جيبه. قال بالإنجليزية «رخصة قيادة» تفحص في الوثيقة. «ألف وتسعمائة وست وسبعون. لم تبرز لي قط».

وهكذا أصبح شـــانو رجل تاكســـي وكف عـــن أن يكون رجلا وســـيطا. وفـــي أول يوم حار من الســـنة، عندما كانـــت النوافذ مغلقة في مواجهة تحلل صناديق القمامة والشـــقة تدندن بلحن مواسيرها وقد سلكت نازنين الطفح من الحمام المسدود وغسلت يديها وتنهدت في المرآة. ظهر رجل وســـيط جديد. كريم، بصرة ملابس جينز فوق كتفه العريض. هكذا دخل إلى حياتها.

الفصل العاشر

أبيض

كان شيئا غريبا، واستغرق منها بعض الوقت لتدركه. عندما تحدث بالبنغالية راح يتلعثم. وفي الإنجليزية، وجد صوته ولم تسبب له صعوبة. وعلى الرغم من الاكتشاف، عادت إلى نقطة البداية وصاغتها مجددا. فكرت فيه. الطريقة التي يقف بها وساقاه منفرجتان وذراعاه مطويتان. شعره. محلوق قريبا من جلد الرأس. الطريقة التي يؤول بها إلى مثلث عند المقدمة والقليل يقف منتصبا عند منتصف جبينه. كان مرتديا بنطاله الجينز الضيق، كما قميصه مشمران إلى المرفق. كلا، لم يكن ثمة شيء. ليس من دلالة على خلل في صوته البنغالي.

وكان واثقا بنفسه. كان يتخذ وقفة قوية. أحيانا كانت ساقه اليمنى تعمل وفق إيقاع عشوائي. كان يلبس حذاء رياضيا وحول رقبته سلسلة ذهبية دقيقة. قال: «عمي صاحب المصنع». ثم قال، «مصنع تشغيل العمالة. عمي صاحبه». دبدب بساقه وعبث بهاتفه المحمول، منتظرا أن تعد البطانات.

كان يحمل هاتفه عند ردفه في جراب جلدي أسود صغير. كان يشعر بطوله وعرضه ويتحسس سطحه بإبهامه، كأنما قد اكتشف زيادة، هذا الورم الخبيث على جنبه. ثم أعاد طي ذراعيه. كانتا تبدوان قويتين، شعره بحلاقة الموسى على جلد الرأس كان غريبا. إن شكل فروة يمكن أن يكون مبهجا.

عندما رن هاتفه خرج به إلى الصالة. لم تلتقط سوى شذرات. كلمة، عبارة، كلمة مكررة، كلمة تجاهد لتطلق سراحها. الطالب لم يتركه يتحدث. هكذا كان يبدو. استغرق الأمر بعض الوقت لاكتشاف أن صوته، ليس مستمعه هو الذي خذله.

أخبرته «زوجي كان لديه هاتف محمول، لكنه تخلى عنه. قال إنه مكلف للغاية».

«ز ز زوجك على حق».

تحولت إلى الإنجليزية. «إنه لشيء مفيد جدا».

«أ - أ - أجل، ولكن م - م - مكلف للغاية».

أدركت على الفور أنها ارتكبت خطأ. فقد لفتت الانتباه إلى الشيء المحدد الذي فكرت أن تخفيه. لن يتحدث الإنجليزية الآن. لن يتبرأ من نفسه الآن. فكرت فيما تقوله وكيف تقوله ولكن عندئذ كان قد وضع النقود على الطاولة وانصرف.

مازال أمامها خمس حاشيات أخرى لتنجزها إلى أن يأتي في المرة المقبلة.

عرفت وهي تفتح الباب أن ثمة شيئا خطأ. التعبير الذي على وجهه. اندفع أمامها ثم إلى حجرة الجلوس. تذرع بإطار النافذة. قال: «ذهبوا، لقد ذهبوا». تدلى رأسه وكتفاه إلى الأمام ثم بدأ يتنفس الصعداء عندئذ فقط على الرغم من أن الحدث قد انتهى.

«ماذا كان هذا؟».

استدار. ثمة عرق كان أعلى شفته. أشعة الشمس تخللت شعره فجعلته يتلألأ. نوعا ما من الزيت. أو مزيد من العرق. أخبرها عن الرجلين اللذين يدفعان المنشورات خلال الأبواب الأمامية. يدفعان منشوراتهما الحقيرة في صناديق الخطابات. لقد أخذ العلبة منهما على الفور رغم أنفهما وراح يعدو بها.

عاد إلى وضعيته الآن. الساقان منفرجتان، الساق اليمنى

تعمل، ولاحظت وتر الفخذ داخل نسيج الجينز وراحت تخفض عينيها إلى خياطتها التي لم تنته منها. لقد طارداه غير أنه كان أسرع. لقد وضع العلبة في صندوق القمامة حيث تنتمي. دار حول المجمع السكني ولم يعرفا أين ذهب. ثم دار عائدا مرة ثانية ليتحرى، ولم يره أحد وهو يصعد إلى الشقة. آمن تماما.

«سوف يحصلون على ما يخطر لهم، يا صاح. ليست تلك نهاية الأمر».

«ماذا تقول؟ المنشورات». لقد نسيت أن تغطي شعرها. جلس قبالتها على الطاولة، وهنا كانت الشمس خلفه مباشرة لذا رأته من طرف عينها في صورة ظلية. كانت أول مرة يجلس في منزلها. فكرت في إعداد الشاي لكنها كانت مترددة ماذا سيعني، أن تشرب الشاي مع هذا الفتى. إنه لم يكن قريبا.

«أعرف من هما».

«هذان الرجلان».

«أعرفهما، يا صاح. أعرفهما».

«نعم».

«جماعة قلوب الأسد. هم وراء الأمر. سوف نجعلهم يدفعون الثمن، يا صاح».

«من يكونون؟».

«مجرد ستار. إنهم فقط مجرد ستار. إننا نعرف كل شيء عنهم. كل شيء». نصب راحتيه على الطاولة، مضمومتين بعض الشيء، يتذبذبان. كان يزن أهمية الأمر برمته، أو يبحث عن المتاعب.

وضع يديه تحت الطاولة. شاهدته على نحو مائل.

قالت: « في بلدنا كل شخص لابد أن يأتي ويساعدك».

رجع إلى الوراء في كرسيه. «هذه بلدي».

أخبرته أنه مازال أمامها خمس حاشـيات لتتجزها، وقال إنه سـينتظر. على الرغم من أنها خلت عينيهـا في عملها غير أنها أحست بنظرته. الشمس على محيط الإبرة ترسل مناشير قزحية فوق أظافرها. راحت تخيط في دفقات وفكرت في سحب الستارة لكن الفكرة كانت مربكة على نحو ما بالنسبة إليها ولم تفعل ذلك. علقت آخر حاشية فاضطرت أن تقوم من أجل المقص.

سـاعتها رأت أنه كان يقرأ طوال الوقت فسارت سخونة في وجهها. تطلع إليها بينما أشاحت هي بوجهها.

قال: «هذا الساري، كانت أمي لديها واحد. أقصد من القماش نفسه».

كان أزرق فاتحا ومن حوله شريط أخضر غامق... لقد انتقاه شـانو. كان يسميه لطيفا وقال إنه يشـبهها، جمال رقيق، حيث أحبتـه على الرغم مـن أنها كانت تعـرف أن الكلمات هي التي كانت تسعده.

لم تقل شيئا.

«إنها الآن في عداد الموتى». راح ينظر في مجلته وكأن أمه لم تعن شيئا بالنسبة إليه.

«أنا آسفة».

قـال «أجل، يا صاح». وقلب الصفحة، «هل أنت مسـلمة كما ينبغي؟ ثمة عشـرون طريقة للجواب». رفـع المجلة ورأت نازنين

أنها لم تكن أكثر من بضع صفحات منسوخة بالأبيض والأسود ومدبسة معا من الجانب.

السائق رقم ١-٦-١-٩ غالبا ما يكون في الخدمة خلال المساءات. طفقت المساءات في الشقة أكثر راحة. الفتاتان كانتا تعملان واجبهما أمام التلفزيون. قالت شاهانة إن هذا يساعدها على التركيز. بيبي كانت تلوك طرف قلمها. الضحك الموجود على الموسيقى المصاحبة للفيلم لم يجعلها تضحك قط، على الرغم من أن شاهانة كانت تبدي قهقهة متكلفة. استمرت نازنين في شغلها. لو عملت بسرعة، لو لم تحدث أخطاء، لاستطاعت أن تكسب قدر ثلاثة جنيهات وخمسين بنسا في الساعة الواحدة. وربما أكثر قليلا. كانت تسمع التلفزيون وتخطف النظرات لشاهانة وهي تستلقي على بطنها، وساقاها في الهواء تعقدهما وتحلهما. فكرت في الأوراق فئة الخمسة جنيهات داخل البرطمان والملفوفة في قماشة بداخل كيس بلاستيك في حاوية شفافة موضوعة في الخزانة تحت حوض المطبخ. ذكرت نفسها بالنقود الموجودة داخل ظرف في الرف العلوي بجوار القرآن، وقررت أن ذلك حرام ويجب عليها أن تنقلها. عدت النقود المكبوسة في رجل جورب ملفوفة على هيئة كرة في ظاهر درج ملابسها الداخلية. ثمة خمسة جنيهات أخرى تم وضعها اليوم. خمسة عشر جنيها أخرى ملفوفة في سوليفان داخل حقيبة ساندويتشات محشورة في كوة بالحائط بجانب السخان. سوف تأخذها على بنك سونالي[٤٥] في الصباح. سوف تصل إلى

---

(٤٥) سونالي: بنك بنجلاديشي - المترجم.

حســينة قبل نهاية الشهر. سوف تعطي بعضا منها لشاهانة من أجل الأشياء التي تطلبها، شامبو وكريم وملقاط للشعر.

أحيانا كان شـانو يظل في الخـارج طوال الليل. وتباعا كانت تسـتيقظ مبكرا وتسخن الطعام، الأرز مطبوخ طازجا. جاهز له على الطاولة. «سوف آكل الآن». كان يقولها عندما يجتاز الباب. ويجلس ومازال مرتديا معطفه ويأكل، قافزا عندما يتذكر أنه لم يغسل يديه، مجهزا جرعة أخرى حتى قبل أن يغادر مكانه ثانية، طالبا الطرشـي ومخللات حلوة وشـريحة ليمون وبعض شرائح البصل وكوب ماء. قال « أوه، حسـنا، ضعيها هنا» عندما أخبرته أنهـا بالفعل على الطاولة قال لها «ضعيها هنا حتى يتسـنى لي أن أطولها».

كان يقول: «هؤلاء الأناس من الأنواع الجاهلة. ماذا يمكنك أن تفعلي؟» إنها لم تعرف شـيئا عن شركة كيمبتون كارز. لم تسمع عن أي سـيد دالواي أو أي ويلكيز. فالزبائن يحتفظون بسرهم. كل ما عرفته هو ما قاله لها بأنهم أناس من الأنواع الجاهلة.

ولكنه كان رابط الجأش، «كما ترين، لقد جاهدت طوال حياتي ومـن أجل ماذا؟ أي خير عـاد علي من هذا؟ لقد انتهيت من كل ذلك. والآن أنا فقط آخذ النقود. أقول شكرا. أعدها».

وضـع كرة من الأرز والدال في فمه وضغطها في داخل خده، «كمـا ترين عندما ذهب الإنجليز إلـى بلدنا لم يذهبوا ليمكثوا. لقـد ذهبوا ليدروا نقـودا، والنقود التي أدروهـا أخذوها خارج البلد. إنهم لا يغادرون وطنهم قط. ذهنيا، يخرجون النقود، وهذا ما أفعله الآن. ماذا بوسعك أن تفعليه غير ذلك؟».

هذه الأحاديث كان يصوغها بلغة بسـيطة من رجل بسيط - على الرغم من أنه لم يكن من النوع الجاهل - ولكن عندما أخرج كتبه في المساء الذي قضاه بالبيت، شرع يتكلم بطريقة مغايرة.

كانت برفقته شاهانة تقلب الصفحات بينما هو يستلقي على الأريكة. أما بيبي فكانت في حجرة النوم تلوي كاحليها معا تحت المكتب وتلوك قطعة ورق. وجه شاهانة كان مشدودا على نفسه، موضوعـا في قناع من التجاهل. جثت بجوار الأريكة وأمسـكت كتابا في شـكل زاوية بالنسـبة إلى وجه أبيها. رفع حاجبيه. ثم رفعهما ثانية أعلى هذه المرة لذا انفصل كل منهما عن الآخر عند المنتصف. قامت شاهانة بقلب الصفحة.

قال شـانو «آه، البحث عـن المعرفة. وهل هنـاك رحلة أكثر إشباعا؟ نادي أختك». لكنه ناداها بنفسه. «بيبي تعالي بسرعة». أقبلت عدوا ووقفت خلف شاهانة. أخذ شانو الكتاب في يده هو، جلس، لاك بعض المعرفة التي كان يخطط لاقتسامها معهما.

«سأقول لكما شـيئا ما. كل هؤلاء الناس الذين يحتقروننا لا يعرفون ما سـأقوله لكما. إنني أحتفظ به هنا بوضوح تام». لوح بالكتاب، «من ذلك الذي حفظ أعمال أفلاطون وأرسـطو للغرب في العصور المظلمة؟ نحن. المسـلمين. نحن حفظنا الأعمال لكي يتسـنى للمسمى بقديسكم توماس[٤٦] أن يدعي أنها من اكتشافه هـو؟ هذا هو مسـتوى ثقافتنا وذلـك هو مسـتوى عرفانهم». أخـذت بيبي طرف ضفيرة وثنته في فمها. قال شـانو العصور المظلمـة، بينما فزع وجهـه من الإهانة. هذا مـا ينادون به في

(٤٦) المقصود القديس توما الأكويني الذي ادعى أنه أعاد اكتشاف فلسفة أرسطو وحاول مصالحتها على اللاهوت الكاثوليكي الروماني السائد آنذاك - المترجم.

الكتب المسيحية. هل هذا ما يدرسونه لكم في المدرسة؟ «رمى الكتاب على الأرض». كان هذا هو العصر الذهبي للإسلام، أوج الحضارة. لا تنسيا ذلك. لكما أن تفخرا وإلا لضاع كل شيء. استلقى ثانية، مجهدا من الافتراء وبدأت الفتاتان تنسحبان.

صاح وراءهما، «هل تعلمان ماذا قال غاندي عندما سئل عن رأيه في الحضارة الغربية؟».

تلكأت الفتاتان عند الأريكة.

«قال إنه كان يعتقد أنها ستكون فكرة جيدة». ضحك شانو وابتسمت بيبي. قال: «سوف أعلمكم، المزيد عن ديننا. ولسوف نتدارس الفلسفة الهندية. بعد ذلك الفكر البوذي». ثم وضع مسندا تحت رأسه وشرع يدندن.

كانت نازنين تساعد الفتاتين في ترتيب حجرتهما. ثمة رقاقة من ورق الحائط تقشرت عن الحائط فوق سرير بيبي وكانت تحول نفسها إلى لفافة. رفعت دمية من الأرض ووضعتها في نهاية السرير. كانت هناك دمية على هيئة رجل تحت الكرسي وقد أصبحت بلا عينين وبذراع واحدة، عارية وموسومة بالتراب. نظرت نازنين إليها لكنها لم ترفعها.

قالت شاهانة «أنا لن أذهب، سوف أهرب». فتحت خزانة وأخرجت حقيبة. في داخلها قد وضعت ثوبا للنوم وحذاء وبنطلونا وتي شيرت. إنني مستعدة للهروب. فركت بيبي قبضتها في خدها. لقد احمرت عيناها. أريد أن أبقى معها.

قالت نازنين «شش. بلا كلام سخيف».

صاحت شاهانة «ليس كلاما سخيفا. لن أذهب».

رتبت نازنين المكتب. رفعت كومة من الملابس المتسخة وحملتها إلى صدرها. تحسست بيبي السجادة الرقيقة بإصبعها الكبيرة وكانت شاهانة مشغولة بخربشة ساعديها.

«علينا فقط أن ننتظر». جلست نازنين في سرير بيبي وكومة الملابس المتسخة في حجرها «إننا لا نعلم ماذا يدبر الله».

لم يكن هذا كافيا فراحت نازنين تبحث عن شيء آخر. ولوهلة واحدة مدوخة تدفقت بالقوة: سوف أعتني بالأمر لمصلحة الفتاتين. كان يكبحها في أحشائها كأنها ستتقيأ وعندئذ بالسرعة نفسها غادرها ذاك الشعور.

أقبلت بيبي وجلست بجانبها حتى تشعر بحرارة جسدها. كانت هناك بقعة حبر على بلوزتها المدرسية ولمعان أبيض على البشرة الجافة في قصبة ساقيها.

«هل تريدين أن تذهبي؟»، أدارت بيبي وجهها العريض لتنظر إلى أمها كأنها سوف تتصيد الإجابة من بين شفتيها.

روت نازنين للفتاتين حكاية «كيف تركت لقدرها». لم تكن المرة الأولى التي تسمعانها، لكنهما سمعتاها جيدا. بدأت بالكلمات «لقد كنت طفلة مولودة ميتة» وختمت بـ «كانت تلك إرادة الله». هذه هي الطريقة التي كانت دائما ترويها بها. اكتشفت بيبي ندبة على ركبتها وعبثت بها. بدأت نازنين في طي الملابس التي في حجرها، تذكرت أنها متسخة فكورتها ووقفت. عندما وصلت إلى الباب نادت لها شاهانة.

«أنت لم تجيبي. إنها ليست إجابة».

قالت نازنين. «إنها إجابتي».

كانت القرية تغادرها. أحيانا ثمة صورة تأتي. حية وقوية إلى درجة أنه باستطاعتها أن تشمها. غالبا كانت تحاول أن ترى ولا تستطيع. كان الأمر وكأن القرية علقت في شبكة صياد هائلة وكانت هي تشد في عين الشبكة الرقيقة بأصابع دامية، نصف مغمضة في الشمس، تبقعت الرؤية بالشباك والأهداب. بمرور السنوات تضاعفت طبقات الشباك وبدأت تعتمد على نوع آخر من الذاكرة. ذاكرة الأشياء التي عرفتها ولم تعد تراها.

لم يكن سوى في نومها أن تأتيها القرية بكاملها. حلمت بممتاز تلك الليلة وطائر المينه خاصتها. الطائر ينام في راحة ممتاز على ظهره بينما تدغدغ صدره الأسود اللامع. صلصلة قدميه عبر قمة مزيتة والشريط الأبيض حول عنقه. «أنت تجعلني أضحك. ها ها ها». أرجع رأسه إلى الوراء ونكسها، ثم نكسها ثانية. «أنت تجعلني أضحك».

كانت ممتاز تطعمه بيدها هي. كان ينام على سطح كوخها وكانت تكنس له فضلاته كل صباح. على مدار سنتين كانا متلازمين. مصمصت آما أسنانها المعوجة الكبيرة «تعاملي معه كطفل لكنه سوف يطير بعيدا. ضيعي حبك على طائر لكنه لا يستطيع أن يحبك في المقابل. سوف يطير بعيدا».

قالت ممتاز للطائر «أنت سيئ، ابتعد». لكنها ابتسمت لآما «لو كانت هذه إرادة الله فسوف يطير بعيدا».

أخبرت آما نازنين «إنه لشيء مؤسف، أرملة وبلا أطفال وكان عليها أن تعود إلى أخيها. إنها تمنح حبها لطائر. معتمدة على رجل كذلك».

قالت نازنين «شيء مؤسف».

بيد أن ممتاز لم يبد أنها تعرف كم كان هذا مؤسفا. كانت تغني للطائر والطائر يجعلها تضحك. تقول له «أنت تجعلني أضحك» والطائر يضحك في المقابل. كانا يلعبان معا لعبة بكرة مطاطية صغيرة. ممتاز تقذف الكرة والطائر يلتقطها في منقاره.

قالت آما «سوف يطير بعيدا». بينما تطحن التوابل وتتحسس أسنانها على شفتها. التفت مشطا قدميها في الأرضية الموحلة للساحة. من ظلال شجرة الرمان راحت تقاوم بضع دقائق أخرى من حياتها العاثرة. صاحت في الفتى الخادم لأن الساحة لم تكنس كما ينبغي وصاحت في الأرملة الوافدة (قريبة تم ضمها ولكن قريبة بدرجة أقل والتي كانت تعاني طيلة مدة خدمتها).

واصلت الطحن متأوهة.

قال الطائر لنازنين يوما ما، «أنت سيئة، ابتعدي». مضت ممتثلة.

ضحك الجميع وأخذت نازنين قرارها بالعودة والانضمام للضحك ولكن ساقيها كانتا لاتزالان تحملانها. راحت تسير حتى أطراف القرية وتطلعت عبر الحقول والنهر، شاهدت قاربا بشراعه البالي كسولا في الهواء الساكن، كان المراكبي يجلس غير مبال على مقعدته. عندما بدأ الدخان يتصاعد من رابية أبعد قرية جذبتها فكرة العشاء للعودة. قالت ممتاز، «حسن يا صديقتي الرزينة أمازلت سعيدة بعودتك للحياة؟».

لم يطر الطائر بعيدا. علمه شخص ما كلمة بذيئة. كانت آما مستاءة. ضحك آبا وقال: «طبيعي أن تكون غاضبة. فهي تتحدر

من عائلة أولياء». ابتعـــد بضعة أيام وعندما عاد كانت ثمة وثبة فـــي خطوته. تعلم الطائر كلمة بذيئة أخـــرى. كان ينادي بها كل شخص يمر وكانت لها ضحكة جديدة، ضحكة من مؤخرة حلقه، وعندما كان يضحك آبا هو الآخر كانا يبدوان إخوة.

تم إخراج طاولة إلى الســـاحة الكبيرة. رصت حولها مقاعد. ظل النســـوة في ناحيتها وراح الرجال يلوكون غلايينهم. شاهدت نازنين وحسينة الكبار وهم يصلون ويأخذون مقاعدهم. سحبت حسينة لحية خيالية وسعلت وبصقت. لكزتها نازنين في ذراعها. بدأ آبـــا في الحديـــث وراح الرجال يســـحبون بـــكل قوتهم من نراجيلهم ويرشفون الشاي. انتهى آبا وبدأ رجل آخر في الحديث شـــاركه آخر ثم آخر وسرعان ما راح كل شخص يصارع ليسمعه الآخرون. انطلقت صرخة من أماكن النساء بعثرت كلماتهم كأنها حفنة من بذور. ســـكتوا وطفقوا شاردين. حتى هذه اللحظة كان الجو هادئا، ونهض آبا وســـار مســـرعا عبر الباحة بينما تلكأت نازنين وحســـينة في الخلفية. لذا وصلـــوا من اتجاهات مختلفة إلى ممتاز في الوقت نفســـه. كانت تحمل الطائر، مستلقيا على ظهره في راحة يدها بينما تدغدغ صدره الأســـود. اقتربوا أكثر ورأوا كيف كانت رأســـه تتدلى لأسفل. لقد أصبح مؤكدا الآن أنه لن يطير بعيدا.

اســـتيقظت من الحلم ونظرت إلى وجه زوجها مهصورا على الوســـادة. ساقاها لم تزلا متشـــابكتين مع قدميه. عدلتهما. ثم ذهبت إلى حجرة الجلوس وبدأت في الخياطة. بعد فترة وجيزة أمست الماكينة مملة فجلست فقط بعيدا عنها.

ثمة كومة من الصدريات الموشـــاة تســـتلقي إلى الجانب. لقد وضعــت الزمامات لثلاث منها. رفعت واحـــدة وفردتها أمامها. الأقراص البلاســـتيكية تجعــل الضوء، يتذبذب بـــين القرمزي والأبيــض. أخذتها إلى الحمام وأغلقــت الباب. فكت أزرار ثوب نومها وأخرجت ذراعيها من الكمين وربطت الكمين حول خصرها. أصبحـــت الزمامة في الخلف فكان من الصعب أن تشـــدها إلى أعلى. لكنها تدبرت الأمر. نظرت في المرآة. وبســـرعة أشـــاحت بوجهها بعيدا. في الخزانة وجدت شـــريطا لشـــعرها لفته أعلى رأســـها. نظرت في المرآة لكنها لم تر نفســـها، فقط وهج الترتر وعندها أغمضت عينيها فـــكان الجليد يضوع برائحة الزيزفون ثم راحت تتحرك في خفة وكان ثمة شـــخص بجانبها، يدها في يد أخرى، ودارا معا والأذرع حول الخصور، ومن خلال رموشـــها نصـــف المغمضة رأته، السلســـلة الذهبية الدقيقـــة حول رقبته. وعندئذ فتحت عينيها وخلعــت الصدرية. فردتها نصب عينيها مرة ثانيـــة ورأت أن الترتر رخيص. قلبتها في يديها. كان الترتر يشبه قشور السمك.

دهانموندي، دكا

يناير ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

كم علي أن أغدق الثناء لله! كم منحني الكثير! طوال الأوقات أقترف أخطاء، طوال الأوقات أحيد عن الطريق المستقيم، والله يمنحني الفرصة من جديد ثم من جديد.

أخذوني من بيت النساء الساقطات عبارة عن بنسيون فقير في هازاريباخ تحت جناح الأخ أندرو الذي وصل هنا من كندا لإنقاذنا. صديق لافلي أخرج امرأة أخرى من هناك ولافلي تقول «إنها ليست المرأة الوحيدة المحسنة في دكا بأسرها. فلنأخذ واحدة أخرى». كذلك قالت للزوج جيمس.

في الحقيقة الواقعية اسم زوج هو جامشيد راشد ولكن الجميع ينادون بجيمس. لافلي لها اسم أنورة بيجم ولكن ليس من أحد يناديها هكذا.

كل شخص ينادي بلافلي حتى أطفالها هي.

المنزل في دهانموندي. مكان جيد والمنزل جيد للغاية هو أيضا. في الطابق السفلي حجرة كبيرة بأثاث خشبي كثير، تلفزيون، فيديو، ماكينة. خشب خاص، الأثاث أنت لن تري مثله قط كم هو يلمع. هذه الحجرة تعرف بأنها حجرة الاستقبال. حجرة صغيرة مملوءة باللعب والكتب هي حجرة اللعب. هي حجرة واحدة كاملة للأطفال مخصصة للعب. الحمام في الطابق الأسفل والمطبخ بجانبه. حجرتي بجوار المطبخ. بها

مصباح كهربي.

في الطابق العلوي حجرة للافلي وجيمس. تسمى حجرة نوم السيد. الولد يسمى جيمي. له حجرة كبيرة مجاورة. اسم الطفلة ديزي. لها حجرة خاصة الكل لها. حجرة نوم أخرى تسمى حجرة نوم الضيوف. كل يوم أدخلها وأرفع الملاءة من أجل تهوية السرير. تقول لافلي: « في إدارة المنزل الجيدة يكون سرير الضيف دائما يتهوى جيدا». كل مساء لابد أن أتذكر رفع الملاءة من جديد.

أختاه الله لم يحول وجهه عني. كل الأخطاء التي أقترفها. هأنذا على الرغم ومع ذلك.

الشارع عريض وجميل. ولكن كيس البلاستيك يهب من كل مكان. امش في الشارع لمدة عشر دقائق وفي النهاية تتغطين بكيس على الساقين والذراعين والبطن. الجميع يكرهون الكيس لكن أيضا الجميع يتقبلون، ماذا بوسعك أن تفعليه؟ مثل كأنما خلق الله الذبابة وكيس البلاستيك متكافئين، متكافئين بالنسبة إلى الوجود في هذا العالم.

نهاية الشارع تغدو ضيقة ويوجد محل أو محلان وأيضا ورشة لعربات الريكاشة. ترينهم يرسمون اللوحات الخلفية وكذلك على تاكسي الطفل. أحب أن أشاهد أكثر ما يرسمونه، غالبا هو تاج محل أو مسجد ولكن كذلك الطاووس، النمر، الفيل، ونجم فيلم. أحدهم يرسم صورة لوجه امرأة وأتوقف وأسال. وجهها يخص مغنية في الولايات المتحدة تسمى بريتني سبيرز. جميلة جدا هي أيضا. ولكن عندما أجد النفس هناك أتباطأ وأتوقف

عندئـذ أتذكـر أنني لابد أن أسـرع وأقوم بالمهمـة للافلي. كم مرة يجلب الله لي الحظ من جديد.

مهمتي في المنزل من أجل العناية بالأطفال، التنظيف، غسل الأطباق، غسـل الملابس، التسوق، هذا كل ما هنالك. يوجد رجل مـن أجل الطهي وهو أيضا يتحمل عملا ثقيلا في الحديقة وأنا فقط أفعل بعض الري وقطع الحشائش وزرع بعض خضار خاصة قليلة خلف المنزل. ترين طبيعة الحال. مكانة جيدة جدا.

أختاه أنتظر خطابك وأدعو. لكن ربما منذ وقت طويل انتقلت وهـذه الكلمات ظلت كلمات مادام أنهـا لا تذهب إليك وإنه حبي فقـط هو الذي يصـل إليك. أينما كنت لايزال يصل إليك ويعثر عليك دائما.

حسينة

فبراير

أتسلم خطابك. كل الخطابات الأخرى ضاعت. ذهبت في ذلك الوقت الذي لم أكن أتشبث بشيء فيه. أتسلم خطابك. الكثير جدا أريده منه إلى درجة أنني أرغب في أكله وأجعله جزءا مني. ولكن يكون عندئذ ذهب، أيضا علي أن أنظر إليه.

البنات فخورات بك. قولي لهم إن عمتو تبعث لهم الحب ولا تنسي أبدا. تقولين إن زوجك يعلمهم الشعر. كيف يسبب ذلك المتاعب؟ رجل جيد له لكي يؤدي هذه المهمة. نحن لا نتعلم قط هذه الأشياء لكن أحيانا هناك تتشابك معنا. إنها تظل بالعظام. تقولين ليس من شيء تغير. أحيانا تقولين إنك حزينة بخصوص هذا. ولكن يا أختاه عددي نعمك. إن عدم التغير هذا الشيء هو نعمة رقم واحد. والدكتور مازال يأتي ليأكل في منزلكم. كم أحب أن أفكر في هذا. أختي تقدم الطعام لدكتور! الزوج يحصل على وظيفة كبيرة الآن بعد هذا الوقت أعتقد. التسلية من دون دكتور. هذه كلمة جميلة مقابلة لها.

هي تحب كثيرا جدا أن تتسلى. إنه في طبيعتها الخاصة أن تقيم عشاء وحفلا لا يهم ما وكيف تجعلها متعبة. فقط بضع سنوات قصيرة مرت لافلي هي مس كاميليا في المهرجان الإقليمي للجمال. كانت يقينا متأكدة أنها كانت مس بنجلاديش لكن الزواج اعترض الطريق ويوقف هذا كله. إنها تقول «أذهب حول العالم لكن من أجل زوجي. كثيرا جدا هو يحبني لا يستطيع أن ينتظر».

أحيانا تأتي إلى حجرة اللعب وتستلقي على الأريكة. الأطفال يتقافزون فوقها ويضعون أذرعا صغيرة حول الرقبة. أحباء قلبي (هكذا تناديهم). لو حاولت أن تحصري العدد تنفد الأرقام قبل أن تنفد اللعب. جيمي عنده ثلاث سنوات ونصف ويمضي مثل ذبابة زرقاء في برطمان. أغلب الوقت يلعب لعبة الجيش ويحب أن يوجه ضربة على الذراع والساق. اللعبة الوحيدة التي يأخذها البندقية والسيف. طاقة كاملة جدا هذا الولد، عندما يجهد يهوي في أي مكان وأحمله إلى السرير. الطفلة ديزي بدأت تسير للتو. الآن تمشي ورائي في كل مكان مثل بطة صغيرة ولا أتركها تبعد عن ناظري قط ولا توقوق. مرة حملتها لافلي وخرجت بها لكنها عادت وتقول لا أدري ماذا أصاب هذه البنت. في البداية تفقد ديزي خادمة عجوز رحلت بسبب أنها تغش في نقود التسوق. لكنها الآن على ما يرام معي. عندما تأخذ لافلي الأطفال ليخرجوا للزيارة تضع الحلوى في فم الطفلة وهذا يمنع الصوت من الصدور.

إنني أبلي بلاء حسنا في الخدمة. تقول لافلي أوه لقد أنقذت حياتي إنك ملاك. إنها سيدة لطيفة عطوفة. «سوف أتحدث مع جيمس لبناء توسع. مكان مناسب للخادم. هذا المنزل صغير جدا». لا أنام في حجرتي في الوقت الحاضر. الطفلة ديزي تبدأ في الاستيقاظ ليلا ومن حجرتي صعب جدا أن أسمعها. بضع ليال أنام على الأرض لكن الزوج يضرب في الأرض ويرتطم مشط قدمه بالرأس. لذا آخذ الفرشة وأنام على أرضية حجرة الأطفال. أحسن في الواقع الحقيقي من حجرتي الخاصة.

الآن لـو تقلبـت بالليـل لا أرتطـم بالبـاب. ويوجد نافـذة للهواء أيضـا... حجرة جميلة. زيد (الطبـاخ) وضع أجولة الأرز وأجولة الدقيـق في حجرتي كله فوق أشـيائي وأنـا تحدثت إليه بالفعل. يقـول «حجـرة؟ أي حجرة؟ أرى خزانة. أرى رفا. لا أرى أي حجرة لعينة». زيد ينام في المطبخ على طاولة. إذا كان هنا ليلا... ليال كثيـرة ذهـب بعيدا ولا يعود إلا فـي الصباح متأخـرا. تقول «هل تعتقديـن أن لديه امرأة؟ هل تعتقدين أنه سـوف يتركنا؟ يمكنه أن يحصـل على عمل في أي مكان. إن الكيتشـاري الذي يعده[٤٧] مشـهور علـى امتـداد نهر بوريجانجا. شـخص ما سـرقه. أعرف هذا. أعرف هذا».

ليس شـيئا سهلا أن تتولي إدارة منزل. أحيانا أحس أن لافلي لديها أشياء كثيرة جدا تثقل عليها.

أبريل

الطفـلان كلاهمـا نائـم الآن وقـت بعـد الظهر هـو الطريقة التـي أجلس بها مع القلم لأجلك. أيام كثيرة ينام فيها الأطفال أوقاتا مختلفة وعندئذ يجعلني هذا مشغولة اليوم كله. الطفلة ديزي تسـتيقظ مبكرا ربما في السـاعة الخامسة والنصف. الأخ يستيقظ فيما بعد ويتأخر جدا في المساء للذهاب إلى الفراش. عندما أستلقي في الليل رأسي يلمس الأرض وبعد ثانيتين ثلاثة يأتي النوم. البارحة تقيم لافلي حفلا لأحد عشر شخصا ضيفا. زيـد يـدور حول المطبخ بسـرعة إلـى درجة أنه يبـدو مثل صوفي

---

(٤٧) كيتشاري: طبق يشبه الكشري المصري، يحتوي على الأرز والعدس والتوابل - المترجم.

فـي دورانهـم الراقـص. الأطفال أيضا أكثر إثـارة مـع كل الضيف والهدية والحلوى. يسـتغرق الأمر طويلا حتى يهدأ. عندئذ بعد الغسـيل والتنظيـف يراقبني زيد بعض الوقت. ثـم يقول «وقتي يحين». ويخرج.

تجـيء هنا لافلي الآن فقط تـرى الأطفال. تراني بقلم فأثب لكنهـا تقـول لـي أن أهـدأ. أخبرها عنك يـا أختاه. تقـول لافلي كـم هو جميل. هذه سـيدة طيبة. ليـس ثمة كلمة غضب تمر من شفتها... إنها تجلس معي وتنـاقش. تلبس روبا بلون يشبه الخوخ الناضج. الشـعر دائما مرسـل إلـى الوراء جميل جـدا. هل رأيت بريتني سبيرز هذه؟ هكذا أكثر قليلا تبدو لافلي. ورشة الريكاشة تصنـع مزيـدا من العربات برسـم لصورة هذه المغنية. يدهشـني كثيـرا أحيانـا كم تبـدو مثل فتاة بنغالية لها شـعر طويل أسـود وعين سوداء.

لافلـي تقـوم بتمرين للوجه. مرة ما قـال محكم في مهرجان الجمـال الإقليمي الذقـن ضعيفة. كل يوم تقـوم بتمرين للوجه للتقويـة رغـم أنها تبـدو وفيرة قوية من أجـل الأكل والكلام وكل شـيء. عندمـا تنتهي تقول« تعلمين أننا نعيـش في مدينة كبيرة لكنهـا بالفعل قروية جدا». ثـم تخبرني عن معرض موضة كبير يسـمى «بـات إكسـبو». يعنـي المعـرض البنجلاديشـي للملابس والمنسوجات. إنها تتنهد كأنها رأت قطعة من الجنة. المعرض يقام في فندق بان باسـيفيك سـونارجون إنه مكان فاخر جدا وتقريبا ليس قرويا. كيف جعلته يبدو. إنها تبين لي كيف تسير الموديلات تقول هذه المشية تجيء بطبيعتها معي على الرغم من أن بعض

الموديلات يعانون معها. طريقة رائعة جدا تسير ويد على ردف مثلما تنصهر ويمكنك أن تتمايلي وتتدفقي. ثمة موديلات شهيرات هناك. ملكة جمال الهند هناك. إنها شهيرة في أنحاء العالم. لافلي تصف لي كل الملابس، الطعام، الرقص، الموسيقى. هل سمعت أغنية «باربي جيرل»؟ هي المغنية المفضلة للجميع.

لافلي تجلس معي لكل هذا الوصف. إنها تسأل «هل تقولين لي شيئا ما وتقسمين أن تقولي الحقيقة؟»، لن أكذب عليك أبدا، «من الذي يمنح هذا السقف فوق الرأس. هل تعتقدين أن بيتي أجمل مني؟»، وجهها يصبح جادا كلية. بيتي صديقتها وهي كانت مس شيتاجونج(٤٨) ١٩٩٧ أقول لها لا وهذا حقيقي لأن لافلي أجمل في عيني. تبدو مسرورة بعض الشيء «أسمع هذا يقال مرات كثيرة أن بيتي أجمل من مس أجمل ابتسامة». ثم راحت تشرح بخصوص مس أجمل ابتسامة التي هي بنت وزير حكومة. أوه من العار عندما تقول هذه الفتاة إنها ستصبح محامية وتساعد النساء المعدمات وكل المصورين والمراسلين يتجمعون حولها ويتشبثون بالكلمات عندما تفعله من قبل مطلقا للنساء المعدمات وأليس عند لافلي هنا معدمة نعيش معها هنا... أقول إنه عار شديد. تعتقد لافلي أن تلك الفتاة تحتل مرتبة عالية في مهرجان الجمال بسبب اسم أبيها. أتفق معها. ثم تقول لي إن كاميرا التلفزيون تأتي لتلتقط فيلما لبات إكسبو. مصمم الموضة الهندي يتحدث على الكاميرا ويسجل رأيها بالفيلم في أن شعب بنجلاديش يجب أن يكون أكثر وعيا

(٤٨) شيتاجونج: الميناء الرئيسي وثاني أكبر مدينة في بنجلاديش - المترجم.

بالموضة. تتنهد لافلي وتقول «كيف تتوقعين هذا في مكان حتى مدينة العاصمة فيه قروية للغاية».

إنها تتحدث معي كثيرا جدا وتشرح لي مشاكلها. لو أكنس الأرضية عندئذ تتعلق الطفلة ديزي بالساق جيمي يعدو هنا وهناك ويتخفى في كومة متسخة ولافلي من وقت إلى آخر تجلس وتقول لي. بيتي أفضل صديقة وهي تحظى بكل شيء يبدو أن كل شيء يأتي إليها بلا عناء مطلقا. هذا على سبيل المثال، الزوج جيمس لديه سائق، أحيانا يأتي السائق للافلي ويصطحبها. لكن السائق يأتي بمهمة والوقت ليس متاحا دائما للافلي. تطلب بيتي من زوجها سيارة وسائقا وعلى الفور تحصل عليهما بلا سؤال يسأل لافلي مازالت تنتظر السائق. كذلك هذا المنزل ليس كبيرا بما يكفي، في هذا الشارع بيوت كثيرة أكبر حجما من هذا البيت. بالاضافة إلى أن لافلي لابد أن تتدبر المنزل وأطفال مع خادمة واحدة فقط وطباخ واحد. الزوج جيمس يقول ليس هناك حاجة لخادمة بالإضافة إلى خادمة. ولكن في الواقع الحقيقي تحتاج لافلي إلى خادمة أيضا كذلك. وتتوقع أن تقضي وقتا كثيرا لعمل الإحسان وللحفل الذي يعتبر مهما لمركز الزوج ووظيفته.

جيمس لديه عمل مع شركة تسمى بانجالا الوطنية للبلاستيك. تبدو شركة كبيرة جدا ولكن في الواقع الحقيقي هي شركة من الحجم المتوسط. تقول لافلي «إنها تبدو كثيرا مثل شركة كبيرة». بضع مرات تقول هذا. تحب كثيرا الزوج جيمس وهذا أيضا سبب للحزن في داخلها على اعتبار أنه لابد أن يعمل ساعات كثيرة بعيدا عن المنزل. هذا الرجل أعرفه بالركبة فقط.

عندما يكون في المنزل يدفع الكرسي بعيدا عن الطاولة ويجلس والأرجل متقاطعة والوجه في جريدة حتى إنه يأكل الوجبة مرات عديدة ووجهه في الجريدة. دائما أرى ركبته. لو يمر بي وأنا أغسل الأرضية أو ألعب مع الطفلة وأخفض عيني على ارتفاع الركبة كل ثنية للبنطلون تعلمتها.

تقول لافلي ثمة شيء صعب في العمل. سنتان الآن ينتظر قاضي محكمة ليبرئ اسم بنجالا الوطنية للبلاستيك. كذلك ثمة كلام لمنع أكياس البلاستيك. تقول لافلي «عندما يروننا في الشارع سوف يسعدون». إنها لديها بالفعل عناية برأسها.

رغم ذلك ومع ذلك فهي كثيرا ما تكون روحها المعنوية عالية جيدة ولا سيما في الحفل عندما تسمعين ضحكتها لطيفة جدا للجميع. يوما ما تخبرني «لقد ضيعت فرصتي في الحياة يا حسينة». لا لا تتحدثي هكذا ما أقوله لخليلتي. الله دائما يعطي فرصة أخرى. هو يعطيني وهو يعطيك. تبتسم لي فقط وتقول «كم أنت جميلة».

إنها قلقة على الطاهي أن ينصرف من أجل وظيفة أخرى في منزل مزود بمكان خاص للخادم. إنه طاه خبير جدا وطعامه دائما يعجب الضيف والصديق. لكنني أعتقد أن زيدا سوف يبقى. إنه يأتي ويذهب إلى أي مكان كما يشاء. يفوته الإفطار وأحيانا الغداء إنه كذلك يفوته أن يطبخ العشاء. لافلي تقول فقط أنت هنا هل تتعبين لتجهزي بعضا من الناراميش[٤٩] الرائع لوجبة المساء؟

---

(٤٩) ناراميش: طبق يعد من الخضراوات وأحيانا يضاف إليه العدس - المترجم.

إنــه رجل غريب. دائما يمارس كونغ فــو، يتحرك، يركل، يقذف الـذراع يـد تفـرم حتـى وهـو يطهو. إنـه رجـل صغير صلـب كأنه مصنوع من السلك ببشرة رقيقة فوقه. ليس ثمة رقة في أي مكان يمكنه أن يكسر جوز الهند بين مشطي قدميه. عندما تخرج لافلي يشـاهد فيلم الكونغ فو على ماكينة الفيديو. جيمي يشـاهد معه فقـط عندمـا يصبح هادئا. في الليل غالبـا يخرج زيد.. إنه يقول لمدة شهور قليلة مقبلة لابد أن يخرج لأن الانتخابات مقبلة ووقته يحـين. أسـأله أي حزب تؤيده لكنه لا يقـول. ربما الحزب الوطني البنجلاديشـي، ربما حزب آل[٥٠]، ربما جماعة الإسلام هكذا يقول. فـي وقت الصباح يكون لديه شـج جديد أو كدمة لكنه لا يقول أي شيء وأنا لا أسأل. جيمي يجري عليه بذراعين صغيرتين تدور مثل مروحـة ويصيح اقتل مت اقتل اقتل اقتل. إنهما يمارسـان الكونغ فو سويا. ميعاد النوم الآن الولد يقبلني ويحضنني. الطفلة ديزي دائما تدير وجهها دائما لي وتجلس على رجلي طوال اليوم إذا لم يكن هناك عمل أؤديه. عندما تبتسـم ترجع رأسـها وتظهر جميع أسنانها. طوال حياتي أبحث عن شيء واحد فقط من أجل الحب من أجل العطاء والأخذ ويبدو أن مثل هذا الشـيء مليء بالخطر يمكـن أن يفترسـك حيـة والآن أتوقف عـن البحث إنـه يظهر لي ويظهر كله هذه الأسنان الصغيرة.

جاءت راضية عندما كانت تقرأ خطابات حسينة. لقد قرأتها بالفعــل مرات كثيرة لذا فالكلمات أصبحت الآن في ذهنها حتى قبل أن تمر عيناها عليها.

---

(٥٠) آل: المقصود Awami League وهو الحزب العلماني الرئيسي في بنجلاديش - المترجم.

خبأت نازنين الخطابات تحت بكرات القطن.

راحـــت راضية تهوي على نفســـها بكتـــاب. كانت ترتدي حلة العلم الوطني على ســـروال شالوار. الطيات الفضفاضة للقماش في الســـروال جعلت مؤخرتها تبدو هائلة. لقد صمم الســـروال ليتم لبســـه مـــع حلة طويلة وكان حارا للغايـــة أن يرتدى مع حلة رياضية.

قالت راضية «مفتشـــو الصحة اللعنـــاء هؤلاء أغلقوا المصنع. أتوا مع مترجم وراحوا يتجولون بينما يســـألون أسئلة بلهاء، هل الجـــو حار دائما هنا؟ قلت لهم لا. في الشـــتاء هل تضطرين أن تأخذي إزميلا وتكسري الثلج بين أصابع قدمك». وراحوا يدونون ذلك كله في دفترهم الغبي.

«كم سيظل مغلقا؟».

خلعت راضية نظارتها، «علـــى الأقل هذا يمنح عيني راحة». رمشت بشدة. التقطت إحدى الحلل الموشاة.

«لقد حاولت شـــيفالي أن تخرج من المنزل وهي ترتدي بعض الأشـــياء القليلة مثـــل هذه. قلت لها مســـتحيل». بدلت نظارتها ودحرجت عينيها، «البنات. إنهم مشكلة».

«كيف حال طارق؟».

قالت راضية «الأولاد!» وضعت الحلة وأشعلت سيجارة سيلك كت «يقولـــون إنهم يغلقون المصنع من أجل الصحة والأمان ولكن الجميع يعتقدون أن ثمة شـــيئا آخر. الأنـــاس الذين أتوا هم من الهجرة. لكنني لدي جواز سفري. قلت سوف أحضر جواز سفري لكنهم لم يريدوا أن يعرفوا». شدت حلتها.

«مواطنة بريطانية. ليس هناك ما أخفيه».

هوّت على نفسها من جديد ولوحت بسيجارتها إلى نازنين.

«هذه الحلة حارة جدا. حارة جدا».

«نعم إنها تبدو حارة».

تنهــدت راضية «لكنني لابد أن ألبســها مــن وقت إلى آخر. إنني أســمع ما يقولونه. راضية ممسوسة بعض الشيء. مخبولة مخبولة». قوقأت قليلا وأحدثت بعض الضوضاء المدندنة، «رضية أصبحت إنجليزية صرفة. إنها تطفق كالملكة ذاتها».

«إنهم دائما يتكلمــون». البارحة مرت نازمة - التي ظهر أخو زوجها فجأة - لتستعير حفنة زعفران. تهادت إلى حجرة الجلوس وهي ترفع يديها. قالت لا أســتطيع أن أمكث، «مســتعدة لصد أي انقضاض على الاســتضافة... لكنها مكثت بما يكفي للإدلاء ببعض التلميحات عن راضية، «هل تعلمين؟ إن المرأة تدخن».

قالــت راضية، «دعيهم يتحدثوا، لو توقفت عن لبس هذا الآن سوف يعتقدون أنني أصغي إليهم».

«لو كان لديه الوقت دعيهم ينموا».

قالت راضية، «هيا، دعيني أســاعدك. أو أنني سأجن، أجن بكل هذا المهمل من حولي. ســوف أركــب خمس زمامات مقابل فنجان شاي واحد».

راحت نازنين تشــرب شــايها وتشــاهد صديقتها. من خلال النافــذة المفتوحة كانت أمواج الموســيقى تتهادى وشــذرات من الكاري. كانت وردية العمل. الوجبات الرئيسية كانت تطهى طوال أوقات النهار أو الليل ليس من شــيء يوقفها. ثمة أصوات ترتفع

في الســاحة، فأطلت إلــى الخارج نحو مجموعــة من الصبيان البنغال. أحدهم كان يجثو بجوار كومة كبيرة من المنشورات، كان يقســمها إلى كومات أصغر. عندما نظــرت إلى الوراء اعتقدت أن واحدا منهم ربما يكون كريم، لكنها أجبرت نفســها ألا تنظر ثانية.

تقول راضيــة «ليس لديهم وظائف، إنهــم لا يذاكرون وليس لديهم وظائف».

«إنك محظوظة مع ابنك».

«أوكيه، أنا محظوظة. غير أنني أتمنى أن يخرج ويكون بعض الصداقات. أخبرته أن يذهب إلى المسجد ويكون صداقات لكنه لم يكن ليفعل».

«وماذا عن الكلية؟ لديه أصدقاء هناك؟».

فكرت راضية «أجل لابد أن يكون ذلك صحيحا».

راحــت كلتاهما تصغي إلى ماكينة الخياطــة. فكرت نازنين في حســينة وهي في مصنع الملابس. كم كانت سعيدة. خطرت على بالها زوجة أبيها، امرأة شــابة بحلقة أنف كبيرة، خلاخيل ذهبية ســميكة حول كاحليها. جاءت إلى الحي الســكني ونامت فــي ثكنات آبا المخصصة للنوم. جــاءت فجأة ومضت، ولم يقل عنها أي شيء آخر.

لم تترك عنها أي انطباع ســوى أنها امرأة شــابة بحلق زينة للأنف وخلاخيل ذهبية. أين ذهبت؟ أين أرســلت؟ كم من الوقت قبل أن تنصهر الخلاخيل وتنفق؟ كم من الوقت حتى تسنى لها أن تكون حيث كانت حســينة أيضا؟ لكزت نازنين خافقيها بإبهامها.

كان ذهنها يبدأ في التشـــتت من جديد. يتسكع في هذا الطريق وذاك من دون نظام. في سرها بدأت تتلو سورة الفاتحة: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم...»

قالت لنفسها «وأرنا إلى أين يؤدي»، قالت راضية «ماذا؟».

عبثت نازنين بفنجان شـــايها. تســـاءلت إذا كانوا سيأخذون فناجين الشاي معهم إلى دكا أو هل سيخلفونها وراءهم.

انتهت راضية من آخر رشـــفة وشربت شايها على الرغم من أنـــه كان تقريبا باردا. «يجب أن أعود إلـــى العمل. الأطفال في حاجـــة إلى النقود. طارق يصبـــح مجنونا. هذا الصباح لم يغادر حتى الســـرير. إنه في حاجة إلى نقود من أجل الكتب وإلا سوف يرسب في الامتحان».

«متى أغلق المصنع؟».

«منذ ثلاثة أيام. ليس منذ فترة طويلة، لكن طارقا قلق للغاية. ســـوف أفتح الباب بالقوة بنفســـي إذا لم يفتحوه. أو أذهب إلى زيارة السيدة إسلام». رفعت نازنين الفنجان إلى شفتيها وأمالته حتى تغطى وجهها. كان فارغـــا. كررت الحركة. لكنها الآن رأت أن راضية لم تكن تلمح إلى أي شـــيء. لم تكن تعرف عن «تسوية شانو الصغيرة» مع السيدة إسلام. ونازنين، متورطة في الخطيئة لم تكن لتقول. مسحت راضية على وركها واتخذت صوتا واهنا.

«ادفنيني فقط الآن إنني مناسبة للموت».

ضحكـــت نازنين «لا تقلقي بنيلين تشيســـتي كوفس يمكن أن يعالج أي شيء».

نبحـــت راضية «حينما كنـــت بنتا كنا نولـــي كبارنا الاحترام. أصبحت واهنة من جديد. لكنني من الناحية العملية ميتة. خذي دعابتك. خذي أي شـــيء تريدينه. خذي ردفي. سوف أترك لك الرالجكـــس». نخرت نازنين، غير أن راضية طفقت مســـتغرقة، «إننا جميعا نفكر: كيف ترتقي هذه المرأة عاليا؟ هل تعتقدين أن هـــؤلاء الذين يصعدون عاليا يفكرون فينا: كيف يبقون في وضع متـــرد؟»، هزت كتفيها الكبيرتين «لكننـــا نعرف بالفعل عنها. إنه فقط من الصعب تصديقه».

لقد ذهبت الســـيدة إســـلام اليوم الســـابق. لقـــد أتت بصحبة أولادها، بينما راح شـــانو يتقافز في أنحـــاء الحجرة كأنها متاثرة بالمسامير. عد النقود حتى وصل إلى خمسة وسبعين عندها رفعت السيدة إسلام منديلا ورقيا مخرما وتركته يطفو على صدرها. أحد الأولاد فتح الحقيبة. قال الآخر، «ضعها في الداخل». أعاد شـــانو بقية أوراق النقدية في حقيبة الســـفر. ساعدها الأولاد في السير نحو الباب. أحدهم كان موثوقا به بما يكفي ليحمل الرالجكس.

قالت نازنين « كم ندفع؟».

قال شانو «إن الأمر بين أصدقاء، إنها تقدم لي معروفا. فقد كنت على معرفة بزوجها».

عـــاد كريم في الصبـــاح التالي ليجمع الصدريـــات. وقبل أن يتبادلا كلمتين رن هاتفه. انتحى بنفســـه في الصالة. رأته نازنين يتكئ إلـــى الحائط وإحدى فردتي حذائـــه الرياضي على حافة الجدار. عادت إلى حجـــرة الجلوس لكنها لم تعرف هل تقف أم تجلس. عندما عاد تظاهرت بأنها مشغولة بالطي.

قـــال «أبي»، أغلـــق الهاتف ووضعه في جرابـــه. نظرت إليه. شـــعره منتصب عند المقدمة زغب دقيق صغير أسود. إنه دائما يتصل بالهاتف المحمول. أقول له ألا يضيع النقود هكذا. لكنه لا يصغي، «ثنى ساقه مختبرا أنها مازالت تعمل». وعلام يتصل على أي حال؟ ليس لديه أي شيء يقوله لي يا صاح.

«ربما كان قلقا».

«أجـــل يا صـــاح. قلق وعصبـــي. إنه يفقـــد توازنـــه بالقلق والعصبية».

جلست نازنين. طوت يديها في حجرها. سوت قماش ساريها ذي اللون الأزرق الفاتح وطوت يديها ثانية. لقد نسيت مرة أخرى أن تغطي شعرها.

جلـــس كريم وذراعاه على الأريكة. لـــم تعرف ماذا يمكنها أن تقول، لذا لم تقل شـــيئا. كان كريم يجلس في المكان الذي يسند فيه شانو رأسه. الأكياس البلاستيكية بليت من فترة طويلة وزيت الشعر جعل القماش لامعا. تذكرت أن مكالمات الهاتف على وشك العمل، أو أشـــياء أخرى - لم تســـتطع أن تتخيلها - تخص عالما هناك بالخارج والتي لـــم تكن لتفهمها قط. كانت من أبيه وذلك الذي أحضره علـــى مبعدة خطوة صغيرة من عالمها. مازال ليس في استطاعتها أن تفكر في شيء تقوله.

«كان يجب أن يتقاعد بسبب الأعصاب. لم يستطع أن يتحمل وقتـــا أطول من هذا. خمس وعشـــرون ســـنة كمفتش تذاكر في الحافلات، والآن لا يســـتطيع حتـــى أن يغادر الشـــقة. ذلك ما تحصلين عليه يا صاح. ذلك ما تحصلين عليه».

«حقا هذا ما تحصل عليه».

أومأ بحيوية بالغة كأنما قد سمع فكرة جديدة، فكرة بمقدورها أن تغير حياته للأبد.

«أعلم ما تقوله. ذلك ما تحصل عليه. طيلة كل هذه السنوات في الحافلة. وهو يسب بكل الشتائم، يستقبل كل الوقاحات. الأطفال يمنحونه وقاحات. الرجال يسخطون عليه. تقتلع له سن. شخص ما يتقيأ على حذائه، يا صاح». نظر إلى حذائه الرياضي. كان نظيفا.

«سوف أعد شايا».

سارت إلى المطبخ وتبعها. استند بظهره إلى الخزانة. عندما يكون شانو في المطبخ يستند هو أيضا، ولكن يواجه الجهة الأخرى وبطنه يستند إلى سطح المطبخ.

«كان عليه أن يأخذ معاشا مبكرا والآن يجلس فقط في المنزل يقضم أظافره ويتصل بالهاتف، لا تثر المشاكل، إنه لم يثر أي مشكلة لأي شخص. المشكلة الوحيدة التي يثيرها هي لنفسه».

مرت أمامه نازنين لتحضر اللبن. كانت تضوع منه رائحة منظف. رائحة ليمون هشة للملابس النظيفة.

كان الشاي جاهزا. لكنه لم يبد أي إشارة على الحركة. هل يشربان الشاي وهما واقفان في المطبخ؟ هل ستدعوه ليجلس معها في الحجرة الأخرى؟ كيف سيبدو ذلك؟ هل سيكون من الأفضل أن تجعله يجلس، بينما تواصل هي العمل؟ قررت أن تلك أفضل خطة.

«هو يعتقد أنه المهاتما غاندي. يعتقد أنه المسيح عيسى (عليه السلام). أدر الخد يا صاح. أدر الخد».

رفعت الفناجين.

«وماذا عن محمد عليه الصلاة السلام. كان مجاهدا».

قالت نازنين «أجل».

نظر إليها كأنما يحتاج مزيدا من الوقت ليستوعب تأثير ما قالته. اعتصر ظاهر عنقه.

كانت لاتزال تحمل كلا الفنجانين عندما شرع هاتفه يصفر. نقره فاتحا إياه.

قال: «منبه الصلاة».

كانت مندهشة إلى درجة أنها انزلقت إلى البنغالية «ماذا تقصد؟».

«في ال، ال، الهاتف. إنها خدمة يمكنك الحصول عليها. لتنبهك إلى وقت الصلاة». هل ستقوم بالصلاة هنا؟، قالت هذا من دون التفكير، بالطريقة ذاتها التي تحولت بها في وقت آخر إلى الإنجليزية.

هز كتفيه. كف عن الاستناد، «أجل سوف أفعل».

سار إلى الحمام ليتوضأ. في حجرة الجلوس، وفي الحيز الصغير خلف الأريكة، وأمام الباب بسطت سجادة الصلاة خاصتها. قالت «سوف أصلي بعد ذلك بقليل»، لم يكن ثمة خطأ في هذا. ليس ثمة سبب لكي لا يجب أن يصلى هنا، فقط كان هذا سيؤخرها قليلا.

«الله أكبر».

وقف منتبهــا، ويداه مرفوعتان في مســتوى كتفه. وضع يده اليمنى فوق اليسرى على صدره. حاولت أن تمنع كلمات الصلاة من أن تتشــكل على شفتيها. الصلاة مع رجل غير مرتبطة به لم يكن مسموحا به. سوف تصلي في وقت لاحق.

«سبحان الله وبحمدك، وتبارك اسمك، وجل جلالك، ولا إله غيرك، أعوذ بك من الشيطان الرجيم».

سمعت الدم يدق في قلبها وارتعشت لأنه بالتأكيد كان يسمعه. أغمضت عينيها. على الفور خطرت آما على بالها تفيض بدموعها المعروفة تنتحب ويدها على فمها.

قال كريم «قل هو الله أحد، الله الصمد» صوته لم يتلعثم.

فكرت نازنين أنه لا يتلعثم في الصلاة. تذرعت نازنين بنفسها لكي تســاير ســرعة الكلمات «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد».

ركــع، اليدان على الركبتــين، ثم عاد منتصبــا. رأت كم كان يتحرك بمهارة. مرتــين أيضا. كان هو الذي يتحرك، لكنها التي بدت تدوخ.

لملمت نازنين السجادة ووضعتها في الدولاب. سوف تحتاجها قريبــا. ولكن الجلوس منتصبة هــذا كان ضروريا. لاحقا بعدما تغيــر المــلاءات بعدمــا كان، تذكــرت رد فعله. تذكرتــه تماما. بالطريقــة الوحيدة التي يمكن أن يســتدعى بهــا الألم بحق من خلال ألم جديد.

حــزم الصدريات بنفســه وكان ينتظر أن يذهــب. راح يعبث بالربطــة علــى كتفه وأعمــل أصابعه فــي الهاتف. شــرع في

الانصراف وعندئذ ضبط حقيبته من جديد وقال «أريد أن أطلب منك أن تحضري شـيئا ما . اجتماع». مرر يدا على شـعره، «من فضلـك اطلبي مـن زوجك. إنه لمصلحة كل المسـلمين. نريد أن يكون الجميع ممثلين. ونحن ليس لدينا أي امرأة كبيرة».

أدركت أنه كان يعنيها بامرأة كبيرة بعدما انصرف.

الفصل الحادي عشر

ابيض

بالطبع لم تكن لتذهب. كان مستحيلا. لم تذكر الأمر لشانو لأنه لم يكن ثمة تحفظ على ذهابها. لم يكن ثمة موضوع في إثارة هذا.

في اليوم المحدد، كان لديها القليل لتفعله. لقد انتهت من خياطتها في الليل، متنقلة بين المطبخ لتأكل وحجرة الجلوس لتعمل. لقد دلفت إلى حجرة النوم وأخذت كتب شانو من على الوسادة. دلفت مرة ثانية لترفع أغطية السرير لتغطي كتفيه. ومرة ثالثة، شاهدته من الباب، وخرجت عن المجال عندما تحرك.

كانت متعبة اليوم، بيد أنها كانت مضطربة. الثلاجة مملوءة بأوعية حفظ الطعام ولم يكن هناك داع حقيقي للطهي. غسلت بضعة جوارب في حوض المطبخ ثم خرجت.

كان الاجتماع في مبنى واطئ على أطراف العزبة. لقد أقيم من دون اعتراف بالجمال وبانتظار الانتهاك. كانت النوافذ موصدة بقضبان معدنية سميكة لم تفتح قط، وثمة بيانات مثبتة إلى المبنى القرميدي تقرأ بالإنجليزية والبنغالية: «المخربون سيتم مقاضاتهم». كانت هذه بلاغة صرفة. كانت البيانات مكتوبة على عجل بالأحمر والأسود. أحد البيانات المدلاة بمسمار واحد متبق كتبه شخص ببخاخ فضي في ترو وانسياب على الحائط «باكيس». وأضاف شخص آخر بحروف سوداء أقل جمالا لكنها واثقة «قاعدة». انفتح الباب ودخلت فتاتان ترتديان الحجاب.

أسرعت نازنين تتبعهما، باحثة عن غطاء. كان ضوء الشمس يضيء المدخل ولكن في الداخل كانت الصالة معتمة.

توجهت الفتاتان مباشـــرة إلى المقدمة وكانتا ترتبان نفسيهما على الكراســـي. ترددت نازنـين، ففكرت فـــي الالتفات. لم يرها أحد.

«استقلي قطار التوبة يا أختاه قبل أن يغادر محطتك».

كان فمها مملوءا باللعاب ولم تستطع أن تبتلعه.

ثمة شاب ضئيل بلحية خشـــنة المظهر تجهم في وجهها. كان غارقا في بيجامة بنجابية وكان معه نبات في يديه، لوح لها بالنبات «مرحى، على الرحب والسعة يا أختاه، اذهبي واجلسي».

سارت حائرة بجوار كراسي شاغرة. الصفوف الأربعة الأولى مـــن المقدمـــة كانت على الأرجـــح نصف ممتلئـــة. أين تجلس؟ بجانب شـــخص ما، ليـــس رجلا، ليس بجانب شـــخص، تترك مقعـــدا بينهما، ســـيبدو هذا قلة ذوق، كلا، ســـيبدو كأنني في انتظار شـــخص مـــا ينضم إلي، زوجي، لكنه لـــن يأتي، ومن ثم سوف يتساءلون بشـــأني، يتحدثون، حتى قبلما أنصرف سوف يتحدثون. قبضت على حافة كرسي. رأت الناس من دون تمييز وسمعت أصواتا بلا كلمات.

وضع وجهه أمامها. كان ينقل شـــيئا ما. الآن كان يشير. قال كريم: اجلسي هنا. جلست بصعوبة.

سار إلى المقدمة وصعد إلى المنصة الصغيرة. صفق بيديه.

قال «حسنا، شكرا لكم جميعا على المجيء».

ســـمعت الباب ينفتح. والآن الصوت نفســـه الذي حياها عند المدخل. «اســـتقل قطار التوبة يا أخي قبـــل أن يغادر محطتك». ســـمحت لنفسها أن تلتفت حولها. الأغلبية شباب، جينز وأحذية

رياضية، بضعة كورتات[٥١] وحفنة من فتيات يرتدين الحجاب. ربما عشرون شخصا.

قال كريم ثانية «حسن، أطلب من سكرتيرنا أن يقرأ علينا العمل الخاص باليوم. أي شخص يريد أن يضيف شيئا ما من فضلك ارفع يدك».

هرول الرجل ذو اللحية الواهنة من الخلف.

«عمل اليوم. رقم واحد، اختيار الاسم. رقم اثنين، إعلان المهمة. رقم ثلاثة، انتخاب المجلس».

على الفور ارتفعت يد. أشار إليها السكرتير «تفضل».

«لِمَ لا نؤدي هذا كله بلغتنا الخاصة؟»، تجهم السكرتير. نظر إلى كريم «سؤال من القاعة. هل أسمح به؟».

وقف كريم ويداه مطويتان «سأجيب. هذا الاجتماع متاح لجميع المسلمين. إنني أتحدث هنا عن الأمة. كل أخ وكل أخت من حيث أتوا».

وقف المتسائل وراح ينظر بإمعان خلال الصالة، كذلك إلى الكراسي الشاغرة «إخان أمرا شوباي بنجالي؟ هل من أحد هنا لا يتحدث البنغالية»، كانت هناك لحظة سكوت قبل أن يزاح كرسي إلى الخلف وينهض رجل أسود يرتدي قميصا بأكمام واسعة وطباعة حلزونية. هل أبدو مثل بنغالي بالنسبة إليك، يا أخي؟

أظهر المتسائل كفيه كأن اللعبة انتهت، وعاود كلاهما الجلوس.

---

(٥١) كورتا: قميص فضفاض من دون ياقة يرتديه الناس في شبه القارة الهندية ـ المترجم

قال السكرتير «حسن، بند رقم واحد. اختيار الاسم. سأتيح هذا للجمهور».

«الاتحاد الإسلامي!».

«الحركة الإسلامية الموحدة».

«الجبهة الإسلامية».

تهامست الفتاتان اللتان رأتهما نازنين تدخلان من خلف أيديهما. في النهاية صاحت إحداهما «جمعية الشباب المسلم، تور هامليتس».

لوح السكرتير بذراعيه. أسقط نباته. التقطه، ودفعه في جيبه. كفى اقتراحات. سوف نأخذ بالتصويت. ماذا كان الاقتراح الأول؟ من قام بالاقتراح الأول؟ ليتكلم».

حث المتسائل قدميه «هذا الرجل سكرتير، لكنه لا يأخذ أي ملاحظات. إن هذا غير إسلامي بالمرة».

قام السكرتير فاردا طوله على آخره. امتلأ وجهه الضئيل بالحنق «أين ذكر في القرآن أي شيء بخصوص أخذ الملاحظات؟».

«واضح في الحديث والسنة أن الرجل لابد أن يأخذ مسؤولياته على محمل الجد».

أثار السكرتير نفسه ليرد. ارتعشت لحيته. إحدى رجلي البيجامة المرفوعة انفردت وغطت قدما بكاملها. درست نازنين الأمر. إن لحيته كانت صغيرة على أن تنمو مكتملة.

وضع كريم يدا على كتف الفتى «أحضر قلما ودفترا. ستكون مسؤولا عن حفظ المحضر».

ثم كان هناك بعض النقاش عما إذا كان اسم الجماعة يمكن أن يختار من دون غرض الجماعة الذي تم التصويت عليه في البداية. استثار السكرتير، وعلى اعتبار أن إثارته راحت تكبر بدت بيجامته تكبر بدورها حتى استحال إلى صوت ضعيف داخل خيمة. «إنها الأجندة يا صاح، يجب أن نلتزم بالأجندة».

حسم كريم الأمر، «سوف نأخذ الاسم أولا. نحن جميعا نعرف سبب وجودنا هنا».

كان هناك موافقة عامة تمتموا بها. وجدت نازنين نفسها تنخرط على الرغم من أنها لم تكن موجودة إلا لأنه لم يكن وراءها خياطة أو عمل منزلي.

جال كريم حول المنصة، وارتأت أن ذلك عرض من القيادة. وقف عند حافة المنصة وقال «لقد سجل السكرتير كل ملاحظاتكم. لدي اقتراح آخر لإضافته. النمور البنغالية».

كان هناك انبهار جماعي، ورفعت فتاتا الحجاب أياديهما من جديد إلى فميهما من أجل مزيد من الهمس المكثف.

صاح الشاب «نم - ور بنغ - الية»، وراح يلكم الهواء بقبضته أثناء التقطيع الصوتي «هل أستطيع أن آخذ هذا الاسم لفرقتي؟».

وقف السائل على قدميه من جديد «هل ننسى إخواننا غير البنغال الموجودين هنا؟».

سار كريم عبر المنصة ليقف أمام الرجل ذي القميص الحلزوني. تبعه السكرتير والدفتر جاهز. قال كريم «لا أقصد أن أستبعدك يا صاح».

وقف الرجل الأسـود وانحنى بشدة. «أعتقد يا صاح أنه اسم جبار. سأكون فخورا بأن أصبح نمرا بنغاليا».

تم التصويت وجرى الرأي (بالإجماع، قالها السكرتير، مع صوت واحد إجماعي ضد) وانتقل الاجتماع إلى البند اثنين: إعلان المهمة.

تصايحت الاقتراحات من القاعة بينما راح السكرتير يعجل بالكتابة في دفتره. كان يجلس على حافة المنصة ورجلاه تتأرجحان، وراح يلوك طرف قلمه تماما مثل بيبي. ظل كريم واقفا على الرغم من أنه كان يجول بين الفينة والفينة، وعندما كان يهدأ من جديد كان يثبت رجليه ويطوي ذراعيه ويظهر قوته مجددا. طفقت فتاتا الحجاب أكثر هدوءا. لم تعودا تتهامسان بل راحتا تتحدثان من دون رفع أيديهما. وصاحتا بالاقتراحات في طلاقة، صاحت إحداهما «حقوق النساء» وصاحت الأخرى «التربية الجنسية للفتيات، يجب أن تضموا هذا» لكنها أخفضت رأسها فور أن تحدثت وهي تتوارى منه.

طالب كريم بفترة راحة ومن مكان ما ظهر «ترولّلي» مكدس بأكواب بلاستيك بيضاء. وضعت الفتاتان نفسيهما وراءه وراحتا تقومان عليه. أخرج الشباب علب سجائر مارلبورو.

أمام نازنين مباشرة قام بعض الصبيان بكسر صف الكراسي ليكونوا لجنة فرعية.

«لقد قتلوا واحدا منا، نعم، سوف نقتل عشرة منهم. الأمر بتلك البساطة».

«أحرقوا مكاتبهم، لأي شيء نحن ننتظر؟».

«نحن لا نعرف أين هو؟».

«لا يجب أن يترددوا هنا. ماذا يفعلون هنا إذا كانوا لا يحبونه؟».

«لا نريد مشكلات. لكن إذا جاءوا يسألون، وهو كذلك، سوف نعطيهم ما يريدون».

«فكر في هذا، منذ بضع سنوات لم يكونوا ليجرؤوا».

«لقد كنا أفضل تنظيما».

«والآن نحن مشغولون بالشجار بعضنا مع بعض».

«جماعة بريك لين ماسيف في مواجهة جماعة استبني غرين بوس».

«العنصريون - لقد تم إخلاؤهم من هنا منذ عصور - وماذا عن شيبلو رحمن؟»

تعرفت نازنين على الاسم. لقد طعن الرجل حتى الموت.

«يمكن أن يحدث ذلك مرة ثانية».

«لاحظ، الموضوع أنهم يصبحون أكثر تعقيدا. إنهم لا يذكرون العرق، بل يذكرون الثقافة والدين».

«إنهم يدفعون منشوراتهم الحقيرة من خلال بابي الرئيسي».

«إننا جميعا نعلم لماذا نحن هنا. لماذا لا نواصل الأمر؟».

دعا كريم إلى مراعاة النظام «حسن. سوف نأخذ تصويتا. ما الذي نؤيده؟ نحن نؤيد حقوق المسلمين وثقافتهم. إننا بصدد حماية أمتنا المحلية ودعم الأمة الكبرى».

جاهد السكرتير في الصعود إلى المنصة «تصويت. الجميع ارفعوا أيديكم. أقصد هؤلاء المؤيدين، ارفعوا اليد».

رفعت كل الأيدي.

«إجماع» وضع علامة على الصفحة.

قال كريم «ماذا نحن في مواجهته؟ نحن في مواجهة».

صاح شخص ما من القاعة «جماعة ليون هارتس».

قال كريم «نحن ضد أي جماعة تعارضنا».

تم تنفيذ هذا.

قدم الموسيقي التماسا لتصبح فرقته الفرقة الرسمية للنمور البنغالية «ننشر الرسالة مثلا. هل أنت تتفق مع هذا، يا صاح؟».

نهض المتسائل على قدميه من جديد «ماذا سنفعل؟» لقد غير كرسيه أثناء فترة الاستراحة وأصبح قريبا إلى نازنين بما يكفي لترى أن له وجها متعصبا «إننا مع هذا وضد ذاك. هل نمثل نادي معارضة؟».

كان ثمة ضحك وأصبح وجه المتسائل أكثر شراسة. كان هذا الولد ضامرا وجائعا. ملابسه كانت تتدلى من عظامه كأن اللحم تكلفة غير ضرورية، كأن وضعيته أتت عليه. الإسراف الوحيد تمثل في أنفه الذي كان ضخما وعلى الرغم من كونه جافا وذا مظهر عظمي فإنه أسهم في الإضافة إلى ملامح الصرامة.

قال السائل «ماذا نريد؟ الفعل أو المناظرة؟» قاطع كريم الضحك «بند رقم ثلاثة. انتخاب المجلس». نظر إلى المتسائل «إذا تم انتخابي سيبدأ الفعل على الفور».

انتخب السكرتير سكرتيرا. وعلى الرغم من أنه لم يتقدم أحد إلى المنصب فإنه أخفض عينه في حجره عندما أخذ التصويت

كما لــو أن التوتر غير محتمل. بعد ذلك شـــد بيجامته بطريقة شـــخص يجهز نفســـه للفعل. تقدم كريم والســـائل إلى منصب الرئيس. كان الأمر متقاربا. تسعة أصوات للسائل وعشرة لكريم. لقد منحته التفوق، فكرت نازنين. أحســـت أنـــه أمر جلل. برفع يدها أو عدم رفعها. كان باســـتطاعتها أن تغير مجرى الأحداث، والقضايا في عالم لم تعرف عنه شيئا.

سار المتسائل إلى المقدمة وصعد إلى المنصة. صافح يد كريم بحيوية بالغة وربت أحدهما على ظهر الآخر. فهمت نازنين أنهما كانـــا على غير وفاق. ثم اقترح نفســـه أن يكـــون أمينا للصندوق وبسرعة تمت حيازة المنصب.

في الصالة تذبذب الهواء لنغمة اجتماع على وشـــك الانتهاء. عشـــرات من التعديلات الصغيـــرة، وتوقع لحركة أكبر. أشـــار الســـكرتير بدفتره «انتظروا، انتظروا، ثمة انتخاب آخر، الزعيم الروحي». قفز من على المنصة وســـحب رجلا عجوزا من مقعده ودفعـــه إلى المنصـــة. رأت نازنين أن الرجل العجـــوز كان يلبس صندل إصبع مستوي بزهرة بلاستيكية بيضاء على رباط الكعب: حذاء للنســـاء. وعرفت أن الإمام تم جلبه أخيرا، ظل يبلل شفتيه ويبتســـم. لم يكـــن لديه أدنى فكرة عما يجـــري. لقد تم انتخابه بغباء.

أتى كريم بحزم الجينز والثياب غير المبطنة، معلقة على كتفه. جلـــس علـــى ذراع الأريكة وراح يتحدث. عندمـــا كان هاتفه يرن لـــم يعد يخرج به إلـــى الصالة. أحيانـــا كان يتحدث في الهاتف عن منشورات وطرق الطبع، اجتماعات وتبرعات. أحيانا يصبح

صوته رقيقا وينساب بعيدا عنه، ثم أغلق الهاتف وقال في نشاط، «قلق وتوتر. ذلك ما تحصل عليه».

بدأ يتحدث معها عن العالم. لقد شجعته، قالت «فعلا؟».

أخجلتها معرفته. لقد عرفت عن أخوتها وإخواتها المسلمين. عرفت كم كان عددهم وكم كانوا مشتتين ومعذبين. اكتشفت البوسنة. قالت «متى كان ذلك؟» لا يمكن أنه كان أكبر من خمس أو عشر سنوات آنذاك... لقد أخجلها وأثارها.

في مكان يدعى شيشنيا. كان هناك في ذلك الوقت جهاد. قرأ من مجلته «إرادة الله، سوف يراك المجاهدون في قلب أمك روسيا، ليس فقط شيشنيا. إرادة الله، سوف نرث أرضكم». عرض الصفحات المنسوخة، مقدما لها دليلا. «إنه صراع على نطاق العالم يا صاح. في كل مكان يحاولون أن يخدعونا. يجب أن تقاوم. لقد حان وقت المقاومة».

قال، عارضا المجلة ذات الكلمات الإنجليزية على الغلاف «هل يمكنك أن تقرئي هذا؟

أمالت رأسها جنبا إلى جنب «أمار إنجريجي بودا أوتي شامانيو». أي «لا يمكنني أن أقرأ سوى النذر اليسير». رفع لها نشرات بنغالية. إحداها تسمى النور وأخرى كانت تسمى «أمة». لم يعطها شانو من قبل أي شيء لتقرأه. وماذا عادت به هذه الكتب من فائدة على أي حال؟ كل هذا التاريخ القديم.

وضعت النشرات على الطاولة ليراها زوجها. لست الشخص الوحيد الذي يعرف أشياء. ولكن عندما سمعته وهو قادم خبأتها. في الأيام القليلة التالية أصبحت القراءة سرا جميلا

وحزينـــا، مداعبة العبارات بعينيها، متخيلـــة كريم يطفو هناك، وراء الكلمات تماما.

شيء واحد لم تستطع أن تفهمه: الشهداء.

لكن الله لا يسمح بهذا.

«أليس هذا انتحارا، بحق؟ إنه حرب».

لقد عرفت شـــيئا عن فلسطين. قال لها «ذهبوا إلى الشوارع لأن طفلا متظاهرا قتل. ويعودون للبيت وهم يحملون جثة شخص آخر».

لقد آلمها. والآن عندما كانت تسير الحبل المشدود بين الأطفال وأبيهـــم، عندما كان يؤرقها ذهنها المشـــتت أو تقلق على أختها، الآن أحســـت بضآلة كل هذا. لذا فقـــد أخطأت حمل التوق في أحشائها من أجل الحزن، وقرأت في الليل عن المحتلين واليتامى، عن الانتفاضة وحماس.

وقد صلى في بيتها مرات كثيرة أخرى. وعندما أخذ السجادة منهـــا التقـــت أطراف أصابعهما معا وشـــمت الرائحة المنعشـــة لقميصه.

رائحة الليمون.

المترجم في سطور

عبده عبدالعزيز أحمد عبدالفتاح

- مواليد المنصورة عام ١٩٧١.
- اسمه الأدبي عبده الريس.
- مترجم وباحث وشاعر مصري.
- تخرج في كلية الآداب - جامعة المنصورة عام ١٩٩٧.
- عضو اتحاد الكتاب بمصر ومحاضر مركزي بالهيئة العامة لقصور الثقافة - مصر.
- له العديد من الإصدارات والترجمات، منها: «فقط يربي حماما ويصنع برجا حصينا من العزلة» (مجموعة شعرية). وترجمة رواية «دميان» للكاتب هرمان هسة. و ترجمة كتاب «اليسار الفرويدي» من تأليف بول أ. روبنسون، عن المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦ - مصر.

المراجعة في سطور

- **د. طيبة محمد صادق**
- من مواليد الكويت عام ١٩٥٠.
- حصلت على ليسانس في الأدب الإنجليزي من جامعة الكويت عام ١٩٨١.
- حصلت على شهادة الماجستير في المناهج والتعليم عن طريق الكمبيوتر - جامعة سان فرانسيسكو عام ١٩٨٤.
- حازت شهادة الدكتوراه في تعلم اللغة عن طريق الكمبيوتر من كينجزكوليج - جامعة لندن عام ٢٠٠٢.
- عملت في وزارة التربية والتعليم عدة سنوات، كما عملت في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، وتشغل حاليا منصب أستاذ مساعد في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية التربية الأساسية.
- شاركت في كثير من اللجان العلمية، وحضرت العديد من المؤتمرات.
- كتبت العديد من البحوث في مجال استخدامات الكمبيوتر والمهارات اللغوية.

إصدارات قادمة

شارع بريك لين

(روايـة)

الجزء الثاني

تأليف: مونيكا علي

ترجمة: أ. عبـــه عبـــالعزيز أحمـــ عبـــالفتاح

مراجعة: د. طيبة محمـــ صادق

(ترجمت عن الإنجليزية)

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري

ما صدر من هذه السلسلة

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ **تجديد اشتراك** ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ: / / ٢٠٠م**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

أسماء وكلاء التوزيع

الكويت:
شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع
شارع جابر المبارك - بناية التجارية العقارية
ص. ب ٢٩١٢٦ - الرمز البريدي ١٣١٥٠
ت ٢٤٠٥٣٢١ - ١١/٢٤١٧٨١٠ فاكس ٢٤١٧٨٠٩

الإمارات:
شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع
دبي، ت: ٩٧١٤٢٦٦٦١١٥ - فاكس: ٢٦٦٦١٢٦
ص. ب ٦٠٤٩٩ دبي

السعودية:
الشركة السعودية للتوزيع
الإدارة العامة - شارع الملك فهد (الستين سابقا) - ص. ب ١٣١٩٥
جدة ٢١٤٩٣ ت ٦٥٣٠٩٠٩ - فاكس ٦٥٣٣١٩١

سورية:
المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
سوريا - دمشق ص.ب (٩٦٣١)١٢٠٣٥
ت - ٢١٢٧٧٩٧ فاكس ٢١٢٢٥٣٢

مصر:
دار الأخبار للتوزيع
شارع الجلاء رقم ٦ - القاهرة
ت - ٥٨٠٦٤٠٠ فاكس ٥٧٨٢٦٣٢

المغرب:
الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر والصحافة (سبريس)
زنقة سجلماسة الدار البيضاء ٧٠
ت ٢٢٢٤٩٢٠٠ فاكس (٢١٢) ٢٢٢٤٩٢١٤

تونس:
الشركة التونسية للصحافة
تونس - ص. ب ٤٤٢٢
ت - ٣٢٢٤٩٩ فاكس - ٣٢٣٠٠٤ (٢١٦٧١)

لبنان:
شركة الشرق الأوسط للتوزيع
ص. ب ١١/٦٤٠٠ بيروت ٢٢٢٠/١١٠٠١
ت - ٤٨٧٩٩٩ فاكس - (٩٦١١) ٤٨٨٨٨٢

اليمن:
القائد للتوزيع والنشر - ص. ب ٣٠٨٤
ت - ٣/٢/٣٢٠١٩٠١ فاكس (٩٦٧) ٧/٣٢٠١٩٠٩

الأردن:
وكالة التوزيع الأردنية
عمان ص.ب ٣٧٥ عمان - ١١١١٨
ت - ٥٣٥٨٨٥٥ فاكس (٩٦٢٦) ٥٣٣٧٧٣٣

البحرين:
مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف
ص. ب ٢٢٤/ المنامة - البحرين
ت ٢٩٤٠٠٠ - فاكس (٩٧٣) ٢٩٠٥٨٠

عمان:
المتحدة لخدمة وسائل الإعلام
مسقط ص. ب ٣٣٠٥ - روي الرمز البريدي ١١٢
ت ٧٠٠٨٩٦ - ٧٨٨٣٤٤ فاكس ٧٠٦٥١٢

قطر:
دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة ص. ب ٣٤٨٨ - قطر
ت ٤٦٦١٦٩٥ فاكس (٩٧٤) ٤٦٦١٨٦٥

فلسطين:
وكالة الشرق الأوسط للتوزيع
القدس/ شارع صلاح الدين ١٩
ص. ب ١٩٠٩٨ ت ٢٣٤٣٩٥٤ فاكس ٢٣٤٣٩٥٥

السودان:
مركز الدراسات السودانية
الخرطوم ص. ب ١٤٤١ ت ٤٨٨٦٣١ (٢٤٩١١)
فاكس ٣٦٢١٥٩ (٢٤٩١٣)

نيويورك:
MEDIA MARKETING RESEARCHING
25 - 2551 SI AVENUE LONG ISLAND CITY
NY - 11101 TEL - 4725488
FAX 1718 - 4725493

لندن:
UNIVERSAL PRESSلله MARKETING LIMITED
POWER ROAD. LONDON W 4SPY
TEL 020 8742 3344
FAX: 2081421280

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني عام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط.

وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسماها إلى سلسلة إبداعات عالمية عام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتنطلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

-١ أن تكون المادة المقترح ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.

٢- يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣- يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعاً على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤- السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥- المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.

الفهرس


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب